رواية

مها حسن

عمت صباحاً أيتها الحرب

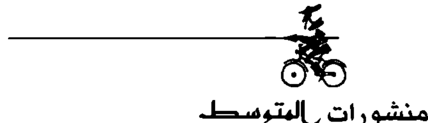


المتوسط

عمت صباحاً
أيتها الحرب

المؤلف: مها حسن / عنوان الكتاب: عمت صباحاً أيتها الحرب
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-92-2



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مها حسن

عمت صباحاً أيتها الحرب





المتوسط

"... لكنّكم تستعدّون للكتابة عن ذلك ...عن ذلك؟ لكنّني لا أريدُ أنْ تعرفوا عنّي ذلك. ماعانيتُه هناك ... من جهة لديّ رغبة في الانفتاح، وقول ما عندي، لكنْ، من جهة أخرى - أشعر، بأنّني أتعرّى، وهذا ما لا أريدُه ...

تذكرون، بيير بيزأوخوف عند تولستوي؟ كيف كان مصدوماً بعد الحرب، لدرجة، هُيِّئ له فيها - أنّ العالم كلّه تغيّر، وإلى الأبد. لكنْ، بعد مرور بعض الوقت، لاحظ على نفسه، بأنّه أخذ يشتمُ السّائق من جديد، ويتذمّر كذلك، كما في السّابق. فلماذا، إذنْ، يتذكّر النّاس؟ لاستعادة الحقيقة؟ العدالة؟ التّحرّر والنسيان؟ كي يُدركوا بأنّهم مشاركون - في الحَدَث الضخم؟ أو يبحثون عن الحماية في الماضي؟"

صلاة تشرنوبل - سفيتلانا أليكسيفيتش

لو كانَ عندي بيتٌ

لا بيتَ في حلبَ

أتمنّى أنْ أهديَ هذا الكتاب إلى أخي الذي قاطَعني، بسبب الحرب، أخي لؤيّ الثاني بين إخوتي الأربعة. هاجر إخوتي الثلاث، وأختاي، وتبعثروا في بلدان شتّى، أخي الأكبر ماهر فرّ إلى هولندا، وفرَّ عامر الثالث بينهم إلى فنلندا، والصغيرُ حسام موضوعُهُ طويلٌ، سأحكيه هنا، ما يزال عالقاً في أوربا، دون إقامة محدّدة، أمّا سُها، فقد وَصَلَتْ أخيراً إلى السويد، والأخيرة نائلة بقيتْ في تركيا.

لؤيّ، إذنْ، ظلّ وحيداً في حلب، مثل أمّي التي تَرَكَهَا أولادُها وأخوتُها وأخواتُها، وهاجروا جميعاً إلى ألمانيا، وبعضهم إلى بلجيكا ..

فَقَدَ لؤيّ بيتَهُ الذي استأجرَهُ في حيّ بني زيد، حين تعرّض للقصف. المفارقة التي تحدث في الحرب أنْ يَقصفَ بيتَكَ أصحابُكَ، فأخي لؤيّ مُقرَّبٌ من النظام، وربّما لم يخترْ هذا، ولم تأتِ الفرصة لنتحدّث، فقد أغلقَ كلَّ الأبواب والنوافذ للحديث بيننا، نحن باقي أخوته. ربّما يشعر بالخيبة والظُّلم، لا أعرف، لكنّه المُقرَّب من النظام، قَصَفَ النظامُ بيتَهُ في بني زيد التي كانت مأوى للمعارضة المُسلَّحة، جاء ذات ليلة مُغطّىً بالغبار والتراب، هارباً من بين الأنقاض مع عائلته، زوجته وأولاده الخمسة، دون أنْ يتمكّن من إحضار حتّى قميص أو بنطال لأحد الأولاد، لقد ضاقتِ الحارةُ به سريعاً، لأنّ حارتنا المحكومة من قِبَلِ النظام امتلأتْ بخلايا المعارضة. وكان أكثرُ أولاد حارتنا من المُنضمِّين إلى الجيش الحُرّ، وكان أخي الصغير حسام من المُقرّبين كثيراً إلى المعارضة.

تلقّى لؤيّ تهديدات من المعارضة: أصدقاء أخيه! ففرّ ذات يوم مع عائلته إلى السَّكَن الجامعي الذي حوّلتْهُ الدولةُ إلى سَكَنٍ مؤقّت للذين فَقَدُوا بيوتهم تحت وابل القصف.

ظلّ لؤيّ وزوجته، على الأخصّ، يحلمان بالسَّكَن في بيت أهلي، حيث تعيش أمّي وحيدة، بعد أنْ غادرها أولادُها جميعُهم، وكانا ينظران إلى أمّي بحَسَد: وحدها تعيش في بيت كبير، تستقبل فيه الغرباءَ، وتأويهم، بينما يعيش ابنُها وأحفادُها الخمسةُ في غرفة واحدة، لا تكفي لإقامة أكثر من شخصَيْن ..

ظلَّت المفاوضاتُ قائمةً بين أمّي ولؤيّ، كي يعودَ إلى الحارة. بعد أنْ غادَرَها أكثر سكّانها، وبدتْ خالية من المعارضة، وخفَّ خوفُهُ من اغتياله، كما هُدِّد، لكنّ أمّي رفضت، أمي التي سَبَقَ أنْ تشاجرتْ مع زوجة لؤيّ التي تتعاملُ مع أمّي بفظاظة، وتُعاملُها على أنّها صاحبةُ المكان، وأنّ أمّي مجرّد عجوز، لا يحقّ لها الكلام، بل من الأفضل أنْ تلحقَ بأولادها في تركيا والسويد وهولندا، وأنْ تتركَ البيت لأحفادها الذين يحقُّ لهم العيشُ في بيت جَدِّهم.

لأنّ أمّي ناضلتْ في حياتها، لتحصلَ على هذا البيت أماناً في شيخوختها، وكانت تخشى أنْ تُرمَى من قِبَلِ أهل أبي، حيث كان البيت مسجَّلاً باسم جدّتي، والدة أبي، فقد كان البيت كلَّ حياتها ووجودها، وآثرتْ أنْ تموتَ فيه على أنْ تتشرّد في المنافي.

ظلّ لؤيّ، إذنْ، يحلم بالعودة إلى بيت أبيه، إلى أنْ قُصِفَ، وتحوّل إلى ركامِ حجارة. المفارقةُ ذاتها تتكرّر، تقصف البيتَ المعارضةُ التي ينتمي إليها بقيّة أخوتي، وأنا.

تقصف المعارضةُ بيتَ أمّي، ويقصف النظامُ بيتَ أخي، فيبقى أخي لؤيّ في حلب، دون بيتٍ.

مزّقَتْنا الحربُ، زَرَعَت الكراهيةَ والفرقةَ بين الأخوة والأهل والأصدقاء، لكنّ أمّي ظلّتْ تكرّر على مسامعي هاتفياً، كلّما تحدّثتُ إليها: ديري بالكْ على أولاد لؤيّ، حرام، هؤلاء أطفال!

كانت أمّي - ككلّ امرأة أو جدّة - تتمنّى احتضانَ أحفادِها في بيتِها، وكانت البنتان، فرح ومرح، تأتيان، أحياناً، للنوم عندها، وسرعان ما تشعران بالضَّجَر، وتُفضّلان العودة إلى عائلتهما.

ماتت أمّي بعد أنْ رأتْ أشلاءَ البيت ..

تقول أختي الصغيرة نائلة: إذا عُدنا ذات يوم إلى حلب، فأين ننام؟ لقد فَقَدْنَا البيت، كما إنّني أرى نفسي في كوابيس دائمة، أتجوّل في شوارع حلب باحثةً عن مأوى، وأهمس لأمّي: هل من المعقول أنّني وُلدتُ في هذه المدينة، وعشتُ فيها أكثر من ثلاثين سنة، لا أجدُ فيها مبيتاً، ولو ليلة واحدة؟!!

أحلم أنْ أعودَ ذات يوم، لأعمِّرَ ذلك البيت، ونسكنَ فيه جميعاً، أخوتي السّتّة، الصبيان الأربعة، والبنتان وأنا، وكلّ أولاد أخوتي.

ربّما هكذا فقط ترتاح روحُ أمّي العالقة في الحديقة، إذ تتسرّب من القبر، لترويَ معي هذا الكتاب.

إلى لؤيّ الذي لن يقرأ هذا الكتاب، لأنّه لا يهتمّ بأخباري، ولا يريد أنْ يسمعَ أيّ شيء عنّي، وإلى كلِّ سوري فَقَدَ بيتَهُ وعائلتَهُ وأهلَهُ، في هذه الحرب التي تبدو دون نهاية.

هاجسُ البيتِ

البيت يعني سريراً وغطاء، والحُلمَ بالنوم بين جدران آمنة، تحمي من البرد والخوف والمباغتة.

البيت يعني أنْ تدخلَ إلى مكان مغلَق، تُقفِلُ عليكَ بابه، فتشعر بطمأنينة السلام. هو السلامُ، الوقايةُ من الآخر، وعلى نقيضه اللا بيت، هو التواجدُ في احتماليّة الخطر: هجوم ما من طرف ما، إنسان، حيوان، طبيعة ..

سيكونُ حُلم السوريين، بعد حُلم طويل من الحُرّيّة والمساواة، والتّحرّر من الخوف، فقط: بيت!

سيتنازل السوريون عن أحلام الأفكار الكبرى في العدالة والحقّ والحُرُيّة، وسيكتفون بحلم الأمان في مكان، يَقِيْهِم من الخوفِ، الخوفِ الغريزيّ الذي يشعر به المتشرّد والمحروم من أمن البيت.

أمّا أنا، فسوف أقضي حياةً طويلةً مليئةً بالبيوت، وأمتلك بيتاً آمناً، جميلاً وواسعاً، أصادقُ داخلَهُ كائناً سِحْريّاً: كلبَتي التي تُقاسمني الأمانَ والسلامَ، ولكنّني كلّما أغمضتُ عينَيّ، تخيّلتُ أنّ معنى البيت لاصقٌ هناك: في سورية، حيث بيتي الأوّل. وحيث حنيني الأزليّ، كما قال أبو تمّام:

كـم منـزلٍ في الأرضِ يألفُهُ الفتى وحنينُـهُ أبـداً لأوّلِ منـزلِ

البيت الأوّل بمنزلة الحُبّ الأوّل، يبقى الحاملَ القويّ لكلّ المعاني المُعادِلة

للبيت. كلّما أشرقت الشمسُ في مطبخي الفرنسيّ، تسرّب خيالُ مطبخ بيت أهلي داخلَ مطبخي هنا: بروائح الثّوم والبصل والزيت المقليّ ودبس البندورة وعلب النعنع اليابس والكَمُّون والكزبرة .. المطبخ السعيد كأحلام الأطفال، هو مطبخ أمّي، والبيت السعيد هو ذلك البيت القديم الذي كنتُ أكرهه، حالمةً بالخروج منه صوبَ الانفلات والحُرّيّة والضوء.

أنا لديّ بيتٌ هنا، لكنّ غرامَ البيوت ظلّ عالقاً هناك.

مَنْ ليس لديه بيتٌ يحلمُ ببيت له جدرانٌ، يضع عليها صور الطفولة، أو العائلة، أو الأمّ التي ماتتْ في الحرب، بيتٌ يحملُ رائحة الحماية.

لا بيتَ في السّويدِ

أمّا أخي، فقد تنقّل في كثير من البيوت المؤقّتة التي أُخِذَتْ منه بالتتالي، ولم يقبلْ أيٌّ منها أنْ يقبلَه دائماً، ليكونَ مكانَهُ الآمن.

أخيراً السويد، الحُلمُ الأعظمُ، الحُرّيّاتُ وحقوقُ الإنسان، لكنّ السويدَ، أيضاً، أعطتْهُ وثيقةَ الطَّرْد.

أنْ تكون مطروداً من البيوت يعني أنْ تعيشَ هلعَ الخروج، هلعَ الدفاع عن نفسِكَ خارج البيوت، كلّ البيوت التي حطّ فيها حسام، وغيره الكثيرون من السوريين، فَتَحَتْ أبوابَها، طالبةً منه المغادرةَ إلى غير رجعة.

في سورية، فَقَدْنَا البيتَ، ذلك الذي ما يزال معي، كأنّ الحرب لم تهدمْه وتُحوِّلْه إلى أنقاض. عقلي يُدرك هذه المعلومة، لكنّ روحي التلقائيّة تنسى، وتتخيّل أنّ البيت قائم. تنسى أنّ اللصوصَ المارقين فكّكُوا حتّى القضبانَ المعدنيّةَ من بين الإسمنت، لبَيْعها كحديد خردة. فكُّوا صنابيرَ الماء، أخرجُوا بقجَ الملابس من بين الأنقاض، أخرجُوا ذكرياتِنا كلَّها، وأوراقَنا الثبوتيّةَ، وصُورَنا، وملابسَنَا، ومُقتنياتِ أمّي التي ادّخرتْها لنا، لبَيْعها، أو رَمْيها في الزبالة، في سورية، لم يعدْ لنا بيتٌ، أمّا في السويد، فقد حلمتُ من أجل أخي ببيت صغير، بغرفة واحدة، بسرير صغير، أو فرشة على الأرض، بأمان عدم الترحال، أو الترحيل، إلا أنّ السويدَ ضاقتْ بحسام، فطلبتْ منه الرحيل.

ولكنْ، قبل هذا، وفي الوقت الذي كان حسام يرتحل من بلد لآخر،

باحثاً عن ملاذ آمن، وحُلمٍ لبداية حياة جديدة، دون حرب، ودون خوف، كانت أمينة تقاوِم الحربَ في المدينة التي تَرَكَهَا حسام الشّابّ، وهي تكبرُه بأربعين عاماً على الأقلّ.

سأروي، أنا الشاهدةُ على تلك الحكايات، حيث (وُلِدتُ لأروي) كما كَتَبْتُ في (الروايات)، بينما تروي أمينة، داخلَ سَرْدِي ذاته حكاياتِها، لأنّها على العكس منّي، حيث أخذتُ عن ماركيز عبارته: "عشتُ لأروي"، تتمسّك هي بخطّ الحكاية، حتّى لا تموتَ، هامسةً في الرواية: رويتُ لأعيشَ.

أمينة التي تعيشُ رغم الموت، تتحرّكُ بطريقة ما، تزورُني، تلتصقُ بأفكاري، تتنقّل معي وأنا أُحضرُ الطعام في مطبخي الفرنسيّ، فأتحوّل إلى كائنَيْن معاً: امرأة أطبخ هنا، في بيتي في مورليه المُطلّة على الأطلنطي، وأخرى تتجوّل مع أمينة هناك، في حارتنا القديمة في حلب، حيث موقد الغاز يشتعل تحت آنية الطبخ الكبيرة، وحيث اعتادت أمّي تحضيرَ الطعام لعائلة كبيرة، كما في بيت أهلها، تتسلّل أمّي من قبرها، وأهرب أنا من فرنسا، لنعودَ خفية إلى ذلك البيت، نتجادلُ، نتبادلُ القصص والخبرات، وفي الصباح، تتركُني لتنامَ، وأنهض أنا لأبدأ نهاري يتيمةً، بانتظار الليل، هكذا هي الحياة الآن: استعادة الحياة.

لا أبالغ حين أقول: إنّها كائنٌ خرافيٌّ. أنظر إلى صورها في رأسي، جدائل شعرها الطويلة التي كانت تنقعُها بـ (البيلون)(*)، ثمّ تفردُها على ظهرها كشلالات سوداء، استفدتُ منها في وَصْف نسائي في (تراتيل العَدَم). كائن خرافيّ قَفَزَ من الأسطورة، وعاش في الأرض، عالقاً بين الحكايات والواقع. هذه المرأة الخياليّة أنجبتْني، ورمتْني إلى الحياة، وما

*) ويُدعى كذلك بالطين الحلبيّ، أو حجر حلب

أزال عاجزة عن تصديق أنّني أتحدَّر من رحم كائن غير واقعيّ، غير عاديّ، أرتجف وأنا أتخيّل تفاصيلَ معاناتها في الحرب، ثمّ استسلامها للموت، والرحيل وحيدة، غريبة. تجتاحُني الكتابة كغرامٍ مُدمِّر، لأصفَها، أمّي امرأةٌ خاصّةٌ، بطلةٌ خَرَجَتْ من روايات أمريكا اللاتينيّة، وعاشتْ في قرى عفرين، وتدحرجتْ مع بنات الحكايات التي غذَّتْ رأسيَ الصغيرَ بها في طفولتي، ثمّ طارت روحها في حلب، مُمسكةً بأرواح صاحباتها الحلبيّات اللواتي أصرّتْ أنْ تموتَ بينهنّ، فتلحق بهنّ، ويلحقنَ بها، للاضطجاع في حديقة (حلب الجديدة)، ساخراتٍ من الحرب، وهنّ يُحوِّلنَ مقاعدَ الحديقة إلى شاهداتِ قبور، من أين أبدأ الحكايةَ مام؟

شوقُ البيتِ

أسّستُ هذا البيتَ قطعةً قطعةً. ادّخرتُ المالَ من مصروف البيت سرّاً، كأنّني أسرق، لأجمعَ المال خلال العام، فأشتري أريكة أو سجّادة أو فرن غاز ..

اشتريتُ أثاث المنزل بالتقسيط. حين تزوّجتُ، كان لديّ ماكينة خياطة وفرشة وسجّادة وأغراض مطبخ وموقد كاز (ببور). لم تكنْ لديّ ثلاجة ولا مروحة ولا تلفزيون. اشتريتُ لاحقاً غسّالة كهربائيّة مُستعملَة، وتعرَّضتُ للضرب من زوجي بسببها. في كلّ قطعة أثاث كنتُ أشتريها، دون إذنِ زوجي الذي يرفض دائماً اقتناءَ أيِّ شيء للبيت، كنتُ أتعرّض للضرب، أي كلّ قطعة اشتريتُها، فوق أنّني ادّخرتُ ثمنَها بشقّ الأنفاس، واقتنيتُها بالتقسيط غالباً، كلَّفَتْني ضرباً مبرحاً: ركلات وصفعات وشجار ليالٍ طويلة .. طويلة.

إلى أنْ غامرتُ تلك المغامرة الكبرى، بعد أكثر من ثلاثين سنة من زواجي، اشتريتُ غسّالة أتوماتيك، كادتْ تُكلّفني الطلاقَ، لولا أنّ زوجي هو ابن عمّي، وفي أعرافِنَا ليس هناك طلاقٌ.

هذا البيتُ، بالنسبة لي، هو أجملُ مكان في العالم. صار لديّ تلفزيون مُلوّن، وماكينة كبّة كهربائيّة، جَلَبَهَا ابني من بيروت، وسجّادة، وأريكة حديثة، وفرشتُ الطابق العلويّ بعد مغادرة سِلْفِي وعائلته، واشتريتُ غرفةَ ضيوف مُستعملةً، لكنّها أنيقة، وصرتُ مثل الأكابر.

أمضي نهاري خارج البيت، أمامه، ليس بعيداً عنه. أجلس على المصطبة، والباب خلفي مفتوح، أستقبل الجاراتِ، نُمارس طقوسَ النهار، من التشارك في إعداد الطعام، تحضر كلّ جارة أشغالَ يومها: الفاصولياء الخضراء التي تقطِّعُها، عدّة ورق العنب مع الحشوة، لنقومَ بمساعدتها في لَفّ (اليبرق)، الباذنجان والكوسا، لنتعاونَ في حفرها تحضيراً لأكلة "المحشي"، أو تحضر بكرات الصوف أو الخيطان، مع سنّارات الحياكة، أو القميص الذي يحتاج لتقطيب أزراره ...

هكذا تتحوّل مصطبةُ البيت إلى ورشةِ عملٍ في الهواء الطَّلْق، تمرّ جاراتٌ عابراتٌ من أحياء مجاورة، تنضمّ بعضهنّ إلى جلساتنا، نحتسي القهوة والشاي، وثمّة مَنْ تقرأ في الفنجان، يذهبُ الأولاد إلى المدرسة، ويعودون، ونحن جالساتٌ في دفء الشمس، نشتغل ونحضّر ليومنا، يعود الأولاد من المدرسة، يلعبون بالكرة أمامنا، نتشاجر معهم، لأنّ كرتَهم تقتحم دوائر اشتغالاتنا ..

يحين موعد الغداء، تنصرف النساء إلى بيوتهنّ لتحضير الطعام قبل عودة الأزواج، تأخذ كلّ منهنّ الكرسيّ الذي حملتْهُ معها، أحمل كرسيَّ، وأدخل به، أكنس المصطبة، ثمّ أُغلقُ البابَ.

ما إنْ أغلق الباب حتّى يتوقّف العالمُ خارج البيت، أنفصلُ عن العالم، أشغّلُ التلفزيون، أو أضعُ شريطاً في المسجّلة، لأسمعَ سميرة توفيق أو صباح، أجهّز الطعام ..

في الحرب، لم تتغيّر كثيراً هذه اليوميّات، بيتي مُحاطٌ ببيوت الجيران، وبحيطان عالية، يصعب على القذائف السقوط فيها.

كان هذا في بداية الحرب، ولكنْ، منذ سقوط القذيفة على جدار بيت

أبي فيصل الملاصق لجدار بيتنا، صرنا نخاف من القذائف، ولا سيما أنّ المصطبةَ صارت مكشوفة من طرف الجدار المتهاوي.

ولكنْ، ظلّ إحساسي بالأمان قائماً، حين أُغلقُ بابَ البيت، كأنّني أُغلقُ على الخوف والخطر اللذَيْن يبقيان خارج الباب، وأبقى داخل البيت مَحمِيّة من أشباح الحرب.

صرتُ أقول: إنّ بيتي مَحمِيّ بقوى سماويّة، سَقَطَتْ بعضُ جدران الجيران، من قصف الطيران، وهذا لا يصمدُ له بيتٌ، وصار الجيران يُهرعون إلى بيتي للاختباء لديّ، قائلين: إنّ أساسَ بيتي قويّ، يصمد أمام هزّات القصف.

إلى أنْ سَقَطَ الزجاج في ساحة الدار، وتحطّمت النوافذ، ثمّ انخلع الباب بقوّة القصف، وبدأتُ أشعر بالرعب.

دفعتْني الحرب للهرب من البيت. نزحتُ إلى القرية بعد أوّل تحليق طيران حربيّ. لكنّني لم أرتحْ هناك. ليس هناك حمّاماتٌ نظيفة، وأنا أتوضّأ وأصلّي، ويصعب عليّ الذهاب إلى تواليت غير نظيف، غير مُزوَّد بالماء، وأنا أتوضّأ عدّة مرّات، بسبب السّكّريّ الذي يدفعني للتّبوّل كثيراً..

مع أنّ الماء ينقطعُ هنا في الحيّ، لكنّ حمّامي نظيف ومُهيّأ لوَضْعي الصّحّي، حيث أستعمل التواليت الفرنجي، كما نُسمّيه، لأنّ ساقيّ تتعبان من القرفصة في التواليت التركيّ. الماءُ هنا يُوفِّره الأولاد، يجلبون لي الماءَ ببراميل أو تنكات من الجامع.

حتّى حين نزحتُ مجدّداً خلال الحرب، ولكنْ، إلى بيروت، لم أحتمل الحياة مع ابني وزوجته التي كانت تُعاملُني على أنّني ضيفةٌ ثقيلةٌ عليهما، أحدُّ من حُرّيّتهما، وأُزعجمها.

عدتُ من بيروت في ظرف خطر، رأيتُ الموت عدّة مرّات على الطريق: حواجز كثيرة لعَسْكَر مُتعدّدي الانتماءات، عَسْكَر البلد وعَسْكَر يتحدّثون بلُغة لا تُشبهُ لغتنا، وعَسْكَر لا يتحدّثون بالعربيّة أصلاً.

ما إنْ دفعتُ باب البيت، ولمحتُ أريكتي هذه حتّى أحسستُ بأنّ الدنيا تدور بي، كأنّني أدخل الجنّة. ارتميتُ على الأريكة، وأجهشتُ بالبكاء. كنتُ سعيدة، رغم القصف، أنّني في بيتي، ورحتُ أغنّي وأنا أبكي وحيدةً: يا بيتي يا بيتاتي يا مسترلي عيوباتي، فيك ولدت وفيك كبرت وفيك بقضي حياتي.

هذا ما ستُسمّيه ابنتي لاحقاً بشوق البيت، نعم، هناك شوقٌ للبيت، أعلى من الشوق للبشر.

مزاجُ البيوتِ

تقول كلجي، جارتي التركيّة التي تعيش وحدها في مرسين، حيث لم تتزوّج بعد . أخوتها مُوزّعون في مُدُن تركيّة أخرى، وأولاد أخوتها وأخواتها في أوربا. تقول كلجي إذنْ، قاطعةً زيارتها إلى هولندا، حيث سافرتْ لقضاء عيد النويل ورأس السنة مع ابنة أختها التي تعدّها بمثابة ابنتها، وتضع صورها في كلّ مكان في الشّقّة هنا في مرسين، تقول: يا إلهي، كم فهمتُكِ هناك! كم شعرتُ بمعاناة السوريين! آخ .. ما أجملَ البيت! تقولها مُصدّرة تلك الآهة التي تلي استمتاعَنا بالهواء بعد الحَرّ، أو الدفء بعد البرد، وتتابع: أنا أحبّ ابنةَ أختي لدرجة الجنون، لكنّني سأموت بعد يومَيْن من وصولي إلى هناك. اشتقتُ لبيتي! أنا لديّ مزاج خاصّ. أنام وأفيق دون ساعات محدّدة. لديّ أوقات قيلولة غير ثابتة. أنا لا أعمل، أعيش من راتب التقاعد. عملتُ كثيراً، والآن أرتاح. أفيق باكراً، أذهب إلى السوق، أشتري الخبزَ والخضار واللحمة، أعود، فأطبخ، وأتناول الغداء باكراً، ثمّ أنام، أستيقظُ لأخرجَ وأسيرَ في المدينة، حول البحر، حتّى في الشتاء. أسيرُ كثيراً، ثمّ أعودُ إلى البيت، لا أتحدّثُ مع أحد، سوى مع الجارات أحياناً. في كلّ حياتي لا توجد أكثر من ثلاث جارات يزرْنَني وأزورُهنّ، يَسْكُنَّ في البناية ذاتها. أحبّ أنْ أطبخَ، وأُقاسِمَ جاراتي الطعامَ. فأنا أطبخ، ولكنّني وحيدة، ولا أستهلك الطعامَ، أشتهيه، أشتهي الطّهْيَ، لكنّ شهيّتي حين أشرعُ بالأكل قليلة. لهذا عدتُ تاركةً أمستردام الجميلة. لم أرَهَا هكذا، مَلَلْتُ. اشتقتُ لشُرفة بيتي، هنا أشرب قهوتي بعد الظهيرة، وأفتحُ جهاز

التلفزيون، وأستمعُ إلى الأغاني الحزينة، أغنّي وأبكي، أحبّ هذا، أحبّ هذا الحزن، هذه الوحدة، هذه العُزلة، لا أحبّ الضجيج والزحام، لا أحتملُ العيش مع الآخرين، لم أتزوّج كي لا يقاسِمَني أحد فراشي وحمّامي وأريكتي. ويُفسدَ أوقات قيلولتي ونزهتي، عشتُ وحدي، لأنّني أحبّ بيتي. أحبّ حياة البيت. ستسمّي أختكِ لاحقاً هذا الكلام بمزاج البيوت، أجل مزاجي بيتي، أو بيتوتي كما تقولون في حلب. آخ، فهمتُ عليكِ يا سُها، حين تتحدّثين عن بيتِكَ في حلب، يقفزُ الدمع إلى عينَيْكِ .. البيت غالٍ، البيت أمان وراحة وسلام وحنان. البيت حضن من جدران، دافئ وحميميّ، ومُخلّص من ضجر الآخرين.

عقدةُ البيتِ

كنتُ أكره بيت أهلي في صباي، وكان ذلك أحد أسباب زواجي: الانتقال إلى بيت، يتيحُ لي الكتابة. عشتُ طويلاً حلم فيرجينيا وولف، وتأثّرتُ به: غرفة تخصّ الشخص وحده.

كان بيت أهلي مليئاً بالصراعات والشجارات، وكان صوت أبي دائماً يُوتّرني، ويمنعني من الاسترخاء، ويُسبّب لي حالةَ ذعر طويلة، لا أستطيعُ الخروج منها.

بعد زواجي من رجل اخترتُهُ فكريّاً، وحَلُمْنا بتشكيل علاقة مشابهة لسارتر وسيمون دو بوفوار، انصدمْنا بالواقع، ورغم أنّه صار لديّ بيت هادئ دون صوت أبي وشجار أهلي، لم أشعرْ بأمان البيت، بسبب شجارات من نوع آخر.

حين أُجبِرْتُ على الإجهاض في حملي الأوّل (والأخير)، وخُيِّرْتُ بين الاحتفاظ بالطفل والطلاق، أو التّخلّص منه والبقاء مع زوجي، ذهبتُ إلى بيت أهلي مريضة، مُنكسرة، أُعاني من آلام التخدير والجراحة والقَهْر النَّفْسيّ، كانت تلك أوّل ليلة أنامُ فيها في بيت أهلي بعد زواجي، نمتُ بعُمق مُدهش، نمتُ بأمان وطمأنينة، وكان السلام يلفُّني بشكل غامض، كأنّني طفلةٌ.

أُجْبِرْتُ، بشكل ما، على مغادرة البلد، والتّخلّي عن بيت أهلي وبيت زوجي اللذَيْن كانا سجنَيْن مُتوازيَيْن.

في فرنسا، عرفتُ الكثيرَ من البيوت، ونمتُ في الكثير منها، منذ بيت صوفي، حتّى بيوت الأصدقاء حين أزورُهم وأبيتُ لديهم، حتّى بيت أمستردام الذي أمضيتُ فيه عاماً كاملاً، وسيكون له مكانٌ خاصّ في كتابتي ذات يوم، حتّى الفنادق في أوربا، ثمّ بيوت الصديقات الكاتبات والفنّانات في العالم العربي، في لبنان ومصر، وفي تركيا، بل وفي باريس.

اكتشفتُ أنّني أكتب طويلاً عن البيوت. حتّى إنّني أملك المشاريع العديدة عن لوائح بيوت صديقاتي الكاتبات، وعلاقة الكاتبة بالبيت، وبيوت أخرى ألهمتْني الكتابة، وبيوت مَنَحَتْني الحلم.

ربّما أكثر بيت أحسستُ فيه بالأمان كان البيت الذي استأجرتُهُ في غازي عنتاب، في تركيا، بهدف استقبال أهلي القادمين من الحرب، و لم يتمكّنوا من المجيء، لكنّ ذلك البيت الذي ربّما هو قريبٌ من أجواء بيوت حلب، كان الأكثر دفئاً وأماناً.

أعتقد أنّني أحمل عقدة البيوت. حين كنتُ في حلب، كنتُ أحلم بحلم متكرّر بعدّة صياغات، أنّني في مكان ما، أريد العودة إلى البيت، لكنّني أضيع، وحين أصل إلى الحارة، لا أجد البيت، كأنّه تبخّر، كان البيت هناك يعني لي العنوان، وكنتُ أشعر أنّني دون عنوان.

أمّا في فرنسا، فمنذ مجيئي وأنا أحلم أنّني في سورية، لا أشعر في مناماتي بأنّني في فرنسا، حتّى المترو وتفاصيل باريس، أحلم بها على أنّها تحدُثُ في حلب، لهذا ربّما كَتَبْتُ روايتي: مترو حلب.

منذ أنْ قامت الحرب، وبعد موت أمّي، صرتُ أشعر أنّني كائنٌ جديد، كائنٌ لم يعشْ تلك الحياة هناك. كأنّ حياتي في سورية مجرّد وَهْم أو تهيّؤات. أحاول تذكّر بيتي هناك، بيت زوجي، فأنسى تفاصيل الحارة،

وأقول لنفسي: إنّني لو عدتُ الآن إلى حلب، لما عرفتُ كيف أجدُ ذلك البيت.

إذا لم أكنْ قد عشتُ في حلب، كما أحسّ الآن، بعد فقداني بيت أهلي الذي ربّما كانت كوابيسي في حلب عن تضييع البيت حَدْسَاً مبكراً لفقدان هذا البيت، ودماره تحت القصف، وإذا لم أكنْ أعيشُ في فرنسا، حسب كوابيسي التي تؤكّد لي دائماً أنّني في حلب، وأنّني لم أكنْ يوماً في باريس(ورد هذا أيضاً في رواية مترو حلب)، فأين أعيش؟! أين هو بيتي الحقيقيّ؟! عنواني؟ جذوري؟ هويّتي؟ هل ثمّة مَنْ يُخلّصني من عقدة البيت؟ هل أكتب هذا الكتاب، لأصدِّقَ الحياتَيْن اللتَيْن أشكّ بوجودهما: حياتي التي حَدَثَتْ فعلاً ذات يوم في حلب، وحياتي التي تحدث الآن في فرنسا؟!

حلبُ ديسمبر ٢٠١٦

يومَ تحريرِ حلبَ

موسيقا تصدح في الشارع، سيّارات تُطلقُ زماميرَ الفرح، حشود تُوزّع الحلوى، البهجة تملأ الحارة، كأنّنا في عرس، بل يتجاوز الأمرُ العرسَ، إنّه عرسُ الوطن.

التلفزيون لا يتوقّف عن نَشْر الأخبار السّارّة واحتفال المواطنين بالنصر. الناس تتبادل التباريك عبر التلفزيون، الجميعُ مبتهجٌ رغم الحرب!

أقفُ على النافذة، أتفرّج على فرحة الناس، لم أذهبْ إلى صالون الحلاقة اليوم، صاحبة الصالون مُحتفلة، خَرَجَتْ ترقص في الشارع، أكثر ما يريحني أمران، أنّني لن أخافَ على أبي بعد اليوم، إذ تخيّلتُهُ دائماً جثّة على الأرض، ورصاصة مزّقتْ رأسَه أو صدرَه. ذَهَبَ أبي إلى الحاجز كالعادة، لكنّ الحرب انتهتْ في حلب، ولن يتعرّض أبي لقذائف الخصوم. أمّا الأمر الآخر، فهو أنّنا قد نعود إلى بيتنا في الأرض الحمراء، حيث قُصِفَ وسُوِّيَ بالأرض، ربّما أستطيع العودة ورؤية بنات جيراني هناك، بعد أنْ أخرجَ السّيّدُ الرئيسُ الإرهابيين الذين كانوا يحتجزون المَدَنيين.

تدخل أمّي وضحكتُها شبرٌ، كما يُقال. كانت ترقص في الساحة مع جاراتنا النازحات معنا هنا، بالأحرى، لَسْنَ جاراتِنَا، لم نكن نعرفهنّ من قبلُ. أجبرتْنا الحرب على السَّكَن معاً هنا، في مكان مخصّص للطَّلَبة، لا للعائلات والأطفال، كنتُ طفلة حين وَصَلْتُ مع أهلي إلى هنا، طفلة في

سنواتي التسع، وكنتُ أبول في فراشي، وما أزال، تقول أمّي: إنّني أفعل، وبقيّة إخوتي، أي نبول في الفراش، بسبب الخوف من الحرب.

دخلتْ أمّي، إذنْ، رمتْ غطاءَ رأسها على الكرسيّ، وجلستْ سعيدة:

- لن يعودوا، سيبقى البيت لنا، غداً نبنيه، ونسكن فيه.

أمّي سعيدة، لأنّ أعمامي وعمّاتي سيبقون في أوربا، جميعُهم وقفوا ضدّنا، وقفوا ضدّ السّيّد الرئيس، وجميعُهم خسروا الآن.

حين سَقَطَ بيتُ جدّتي، أحسّتْ أمّي بالتّشفّي. فهي تكره جدّتي، لأنّها طردتْنا من بيتها.

جئناها حين سَقَطَ بيتنا في بني زيد، نعم، أسقطه صاروخ النظام، لكنّ الإرهابيين هم السبب، جدّتي المصابة بهَوَس النظافة، رأت القملَ في رؤوسنا، وقالت لأمّي: أولادك مُقمِّلون، ويبولون في الفراش، وأنا أصلّي وأنتُم تُنجِّسون البيت. فقالت أمّي لجدّتي: تنقلعين، وأبقى أنا وأولادي.

جدّتي العنيدة تركتْ بيتَهَا لأمّي، وفي اليوم التالي، وَصَلَت رسالة من الإرهابيين، تُهدِّد أبي: تخرج من الحارة، أو تعرف ماذا نفعل بكَ!

تركْنَا بيت جدّتي، ولجأنا إلى السَّكَن الجامعيّ.

خمس سنوات ونحن نتذوّق جحيم الحرب.

سَقَطَ بيت جدّتي، وطار صواب أمّي من الفرح.

ماتتْ جدّتي، ولم يذهبْ أبي لوداعها، ولا حَضَرَ دَفْنَهَا، ولم تذهبْ أمّي، وأنا صغيرة، ولا يحقّ لي الذهاب وحدي.

أنا اليوم في الرابعة عشرة من عمري، أتعلّم مهنة الحلاقة النسائيّة،

وأخاف كلّما خرجتُ من البيت. قذائف الإرهابيين تطالُنا حتّى هنا، قُتِلَ الكثيرون ممّنْ أعرفهم، منذ أسابيع قليلة، استُشهد خالي مدافعاً عن الوطن.

قالتْ أمّي شامتةً:

سأكتب لعمّتكِ عبر الواتس آب، عمّتكِ الكبيرة في فرنسا، رئيسة العصابة:

(مبروك علينا حلب).

يومَ سقوطِ حلبَ

لم أنم منذ عدّة ليالٍ، رأسي داخل الأخبار، تتمّ المساومة على المَدَنيين المحاصرين داخل حلب الغربيّة. الفصائلُ المتعدّدة تتحكّم بمصائر النساء والأطفال. اتفاقيّات بين الروس والمعارضة في الداخل لإخراج المحاصرين، ينتظر الناسُ الفرجَ في الصباح، وتبدأ رحلات الإجلاء، تقوم فصائلٌ ما (أحرار الشام وجبهة الشام) بإطلاق النار، يعدّ الروس أنّ المعارضة نقضت الاتفاق، تتوقّف عمليّة الإجلاء، الناس يحلمون بالنجاة، لقد قبلوا بتَرْك بيوتهم، والخروج دون أيّ شيء سوى غريزة البقاء على قيد الحياة. نسمع صيحات الاستغاثة من الداخل: ناشطون وصحافيون ومَدَنيون: (طالبوا بوَقْف القصف، لا نريد سوى أنْ نعيش). أخبار عن إعدامات ميدانيّة. أبكي وحدي خلف جهاز الكمبيوتر وأنا عاجزة، أنقل الفيديوهات على صفحتي، في الفيسبوك.

الأطبّاء يناشدون العالمَ لإنقاذ الجرحى. الجرحى مَرميّون في الشارع تحت البرد، يُمضون الليل في الخارج، بانتظار حافلات، تنقلهم إلى الريف الغربي، بحسب الاتفاق بين الروس والفصائل، نشرات الأخبار الفرنسيّة تُقدِّم تقارير من حلب. الكاميرا تُصوِّر من الأعلى، أتفرّج على الأنقاض، أحاول التقاط مشهد لبيت واحد نجا من الخراب، البيوت كلّها تحوّلت إلى حجارة متساقطة على أطراف بقاياها، أضع صورةَ طفلة تركض وسط

الجثث على صفحتي أيضاً. تشبهُ طفلةَ النابالم الشهيرة التي تركض عارية في حرب فيتنام، الميلشيات تدخل البيوت، وتعدمُ العائلات عن بكرةِ أبيها، صرخاتُ الاستنجاد والاستغاثة في رأسي تمنعُني من النوم. أشعر أنّ رأسي ماكينةٌ، تُسجّل الصور والأصوات: اخرجوا في الشوارع، أنقذُونا، نحن مُحاصرُون، ستتمّ تصفيتُنا، أو سنموت من البرد والجوع والخوف، أذهبُ إلى السرير بحَنْجَرَةٍ مخنوقة من البكاء، وبعَيْنَيْنْ مُتورِّمَتَيْنْ. تصلني رسالة على الواتس آب. أحفظ الرَّقْم باسم ابنة أخي فرح، وأعتقد أنّ الرسالة من أمّها، زوجة أخي:

(مبروك علينا حلب)

قبلَ سقوطِ حلبَ

أكاد أؤمن أنّ أكبر أسباب فرح أمّي لتحرير حلب هو التّشفّي بعمّاتي. ولا سيما عمّتي الكبيرة التي تعيش في فرنسا منذ سنوات بعيدة.

أعتقد أنّ أمّي امرأة طيّبة، ولكنّني لا أفهمُها، ربمّا ما أزال صغيرة على فَهْم الكبار، وربمّا لأنّني لم أذهبْ إلى المدرسة مثل عمّاتي، فإنّني لا أُجيد التفكير، عمّتاي الكبيرتان دَرَسَتَا المحاماة. والصغيرةُ درستْ حتّى الصّفّ التاسع، بينما لم يتابعْ أبي تعليمَهُ، وأمّي لا تعرف القراءة والكتابة، لكنّني أحبّ عمّاتي وأعمامي، وأحبّ أمّي وأبي وإخوتي، ولا أعرف كيف أقف مع طرف ضدّ طرف، أو لماذا يجب أنْ أفعل مثل هؤلاء الكبار؟ أنا عاجزةٌ عن كراهية عمّاتي وأعمامي الذين تُخاصمُهم أمّي وأبي، وكذلك عاجزةٌ عن كراهية أبي وأمّي.

حين غادرتْ عمّتي الكبيرةُ البلادَ، كنتُ في السنة الأولى من عمري، كما أظنّ، ولا أتذكّر عنها أيّ شيء، ولا أظنّها تعرفني، أو تذكر أيّ شيء عنّي، أو عن أخواتي وإخوتي. وُلدتُ أنا البنت البكر، مثل عمّتي التي كانت البنت البكر في عائلتها، ثمّ وُلدتْ أختي، ولُدنا نحن الاثنتَيْن، حين كانت عمّتي في حلب، لكنّ أختي الثالثة وأخواي وُلدُوا جميعاً بعد مغادرة عمّتي إلى فرنسا.

لكنّني أحبّها، أقسم أنّني أحبّها. كانت جدّتي - رحمها الله - تقول: إنّني

حنونة، وكانت تحبّني. وقد تحدّثتُ مع عمّتي على الهاتف عدّة مرّات، حين كانت تتّصل بجدّتي، وأكون هناك. وكانت تُحدِّثني بمحبّة.

أنا أحبُّ أهل أبي، لكنّ أمّي لا تحبّهم، وأبي أيضاً على خلاف دائم مع عائلته.

أعرف أنّ أبي صعبُ المراس، إنّه يضربنا كثيراً. وأنا أخاف منه كثيراً، وأظنّ أنّني أبول في فراشي، بسبب خوفي من الضرب.

حَكَتْ لي جدّتي أنّ أبي ضَرَبَ عمّي الصغيرَ ذات مرّة ضرباً مبرحاً، شوَّه به وجهه. ضربه بحزام البنطال، وجَرَحَ جبينَهُ بالقفل المعدني للحزام، وتورَّم وجه عمّي حسام. قالتْ لي: إنّ عمّتي مها كانت ما تزال في حلب، وحين رأت وجه عمّي متورّماً وعينه تكاد تنفقئ، طار صوابها، وراحتْ تسبّ أبي، فَخَرَجَ أبي من بيت جدّتي آنذاك، حتّى لا يتورّط بضرب عمّتي أيضاً.

لم أكنْ قد وُلدتُ آنذاك، وكان أبي يسكن في بيت جدّتي حين تزوّج من أمّي، ثمّ غادرا بيت جدّتي، بسبب الشجار الدائم بين أمّي وجدّتي من طرف، وبين أبي وجدّتي من طرف ثان، وبين أبي وأمّي من طرف ثالث، لم تحتملْ جدّتي شجارهما معاً، فأخْرَجَتْهُما من بيتها، وأعطاهما جدّي بعض المال، لتسديد ما يقارب أجرة سنويّة في حيّ بستان الباشا. ثمّ انتقلتْ عائلتنا إلى حيّ الصاخور، وبعدها بسنة، انتقلنا إلى الأرض الحمراء، حيث دارت رحى الحرب، وانقصف بيتُنا.

كنتُ أستغرب من تصرّفات عمّي حسام، فهو وأبي لا يتّفقان، وأظنّه لم يغفرْ لأبي، أنْ تسبّب بضَربه وبفَشَلِه الدراسي بعد موت جدّي، وبقائه وحيداً. لكنّه رغم هذا، كان يُعاملنا بشكل جيّد، كان يأخذني وإخوتي إلى مخزن الحارة، فنشتري الأكلات: بطاطا وشوكولا وشيبس وكولا وعلكة، وكان

يزورنا أكثر من باقي أعمامي، عمّي الكبير لم يزرْنا يوماً، ولا عمّي الأوسط، فقط عمّي حسام وعمّتاي كانوا يزورُوننا. وكان عمّو حسام في الفترة الأخيرة يشتغل سائق سيّارة أجرة، كان يأتينا بالفاكهة واللحوم والفرّوج المشوي، ونركب في سيّارته، لنتجوّل في المدينة ...

لكنّ حسام، آخر مَنْ تبقّى من إخوة أبي، تركنا هو الآخر، ومثل إخوته، غادر البلاد، وهو الآن في السويد.

ثلجُ السويدِ الكاذبُ

صدمةُ البردِ

صَدَمَني البردُ!

لم أستطع التفكيرَ في أيّ شيء آخر، فقط أريد مكاناً، لأخرجَ من هذا البرد.

البردُ فظيعٌ هنا، لم أعرف في حياتي برداً كهذا، لا أريد أيّ شيء في الحياة، في هذه اللحظة، فقط أريد أنْ أهربَ من هذا البرد.

تأخّر الوقت بنا، حلَّ المساء سريعاً، المدينة تشبهُ المقبرة الصامتة. أنا خائفٌ من تمضية ليلتي في العراء. سأدفعُ كلّ ما بحوزتي، وأبيع ملابسي حتّى، من أجل قضاء ليلتي في مكان مُغلَق، سأذهب إلى أوّل فندق يستقبلُني، ها أنا أزجّ بجسدي في سيّارة الأجرة فارّاً من البرد، يا إلهي، كيف يعيش الناس هنا؟ كأنّنا داخلَ ثلاجة، كلّ عضو من جسدي يكاد يتجمّد!

حطّتْ بي الطائرة في مطار بروكسل منذ ساعات. كنتُ أشعر بسعادة كبيرة، وباقتراب الوصول إلى برّ الأمان.

آخرُ العنقودِ

مغصٌ شديدٌ في بطني، كنتُ أُجبر نفسي على تحضير الطعام، وفجأة لم أعد أحتمل الوجعَ، صرختُ في إبراهيم، ليحمل عنّي الصينيّة الكروم، حيث صَفَفْتُ فوقها صحون الفاصولياء الخضراء والبرغل، ناولتُهُ الصينيّة من قرص الدرج، ونزلتُ أمسكُ ببطني.

أبوك القاسي كعادته سخرَ منّي، قال: إنّني أكلتُ الكثيرَ من البرغل، لكنّني كنتُ أعاني من آلام المخاض.

هذه أوّل مرّة ألدُ فيها وحدي، دون فادية أو أمّي، لكنّ جدّتكِ هنا لحسن الحظّ، نزلتْ ببطئها المشهود لها، وراحتْ تُهدِّئ أوجاعي، وحين تيقنتْ أنّني ألدُ، أرسلتْكِ لتحضري أمّ علاء، الداية كنّة بيت شريف..

كان هذا في منتصف آب، أبوك يأكل البرغلَ والفجلَ على السطح مع إبراهيم، وإخوتك يلعبون في الحارة، وأنا أرتجفُ من الحرارة والألم، حين وَصَلَ حسام.

كنتِ تقفين قرب باب الغرفة، وترتجفين من الخوف، أتيتِ لي ببقجة أغراض الصغير، وكنتِ أوّل مَنْ يراه بعد الداية وجدّتك وأنا، وطار عقلُكِ من الفرح، وأنت تكتشفين هذا الكائنَ الذي كان منذ لحظات مختبئاً داخل بطني، وقلتِ لي مندهشة: إنّه جميلٌ، وأرغب في لمسه وعناقه، إنّه نظيفٌ، يا إلهي، وكأنّه لم يكن محاطاً بكلّ هذا الدم. وأشرتِ إلى الطستِ البلاستيكيِّ الذي أحضرتِهِ أنت منذ قليل، ورمتْ فيه الداية المشيمةَ المليئةَ بالدم.

بدايةُ السويدِ

إنّه صباح الخامس من نيسان. أفقتُ اليوم متذكّراً أنّني أنام في السويد. هذا نهاري الأوّل في السويد.

وَصَلْتُ البارحة، مغادراً اليونان. إذ قطعتُ الرحلة من مطار أثينا، ثلاث ساعات أمضيتُها في مطار بروكسل، ثمّ أخذتُ الطائرة إلى غوتنبورغ، إذنْ: أنا الآن في السويد.

مضتْ قرابة عشرين شهراً على مغادرتي مدينة حلب، تركتُ أمّي وحدها هناك، كنتُ مضطرّاً للرحيل، لم أكنْ أعرف بعدُ ماذا ينتظرني هنا.

حين نزلتُ في بروكسل، أحسستُ بالطمأنينة. إنّني الآن في أوربا. وكأنّني تركتُ خلفي مرحلةً سابقةً، وطويتُ صفحة التّشرّد بين تركيا واليونان. كانت تلك أوّل مرّة أستقلّ فيها الطائرةَ في حياتي، وكنتُ أشعر بالراحة والاسترخاء.

ولكنّ مشاعري سرعان ما تغيّرتْ حين وَصَلْتُ إلى السويد. حيث حطّتْ بنا الطائرة في مطار غوتنبورغ، في الساعة السادسة مساء، كنتُ بصحبة رفيقي من دير الزور الذي جاء معي أيضاً من اليونان، أبو جرّاح، كما ندعو محمّد الحسين. كان الطقسُ شديدَ البرودة، درجات الحرارة ثلاث أو أربع تحت الصفر، وأنا لم أعتدْ في حياتي على هذا البرد، أحسستُ بالقلق على الفور، ورحتُ أفكّر كيف سأتدبّر أمر النوم الليلة، خفتُ من التّشرّد في هذا البرد، انشغلَ ذهني على الفور بفكرة المبيت والهروب من البرد، كان الليل قد هبط، السويديون ينامون باكراً، وفي الثامنة ليلاً، لا ترى أحداً

في الشارع. أحسستُ بالوحشة، ونسيتُ فرحتي بالوصول إلى أوربا، كان هاجس الخلاص من البرد يسيطر على كلّ حواسي.

توجّهتُ مع صديقي صوب مركز المدينة، أخذنا سيّارة أجرة، كان سائقُها عراقيّاً، وكنّا نفكّر في الذهاب إلى فندق، لكنّه نَصَحَنَا بالتّوجّه مباشرة إلى دائرة الهجرة، وقال: إنّ أسعار الفنادق غالية علينا كلاجئين. وعملْنا بنصيحة السائق الذي أوْصَلَنَا حتّى باب دائرة الهجرة في غوتنبورغ: وحدة الاستقبال العامّة. هناك كان ثمّة صبيّة في الاستقبال، لم تطرحْ علينا الكثيرَ من الأسئلة، أخبرناها بأنّنا سوريون، وَصَلْنا للتّوّ إلى أرض السويد، وليس لدينا مكان نبيتُ فيه. سجَّلتْ اسمَيْنا، محمّد وأنا، وأعطتْ كلّ منّا كيساً، يحوي غطاء ومخدّة وشراشف ومفتاح غرفة، عليها الرَّقْم ١١٣، وتوجّهنا قاطعين ممرّاً طويلاً، يقودُنا صوب الغرف. كانت الغرفة تحوي ستّة أسرّة. وكان هناك أشخاص قبلَنا، مَدَدْنَا الشراشف، وجهّزنا سريرَيْنا، وأمضينا ليلتنا الأولى في السويد.

قلبي على ولدي

الحمد لله أنّ حسام وَصَلَ سالماً إلى ذلك المكان، لا أعرفُ اسمَ هذا البلد، ولا أين يوجد، لا يهمّني هذا، المهمّ أنّه صار بعيداً.

نحن الأمّهات تنحرق قلوبنا، حين يبتعد عنّا أولادنا، ونتمنّى أنْ يبقوا إلى جوارنا طيلة العمر، ولا سيما حسام، كنتُ متعلّقة به أكثر من غيره، الأعزب الباقي من صبياني الأربعة، أمضيتُ معه آخر سنواتي، لا سيما بعد ترمُّلي، واعتمادي عليه كرجلٍ أخيرٍ باقٍ إلى جواري، نعم، حلمتُ أنْ أُزوِّجَهُ، وأُقيمَ معه، ولكنّ كلّ شيء تغيّر، إنّها الحرب، أشعر بالطمأنينة لأنّه صار بعيداً. نعم، أنا حزينة، وأبكي على فراقه، وأخشى أنْ أموت دون أنْ أراه مجدّداً، ولكنّني لستُ أنانيّة، أنْ يكون في أمان بعيداً عنّي أفضل بكثير من أنْ يكون قُربي، مهدَّداً بالقتل، أو السجن.

يا إلهي، كيف احتملتْ جاراتي مقتلَ أبنائهنّ؟! قُتل سعيد حسّون بن ضياء، وهو بِكْرها، ولم يبلغ الثامنة عشرة بعد. وقُتل يُسر بن فكريّة، وهو يصغر حسام بسنتَيْن، ولم ترَ ضياء ولا فكريّة جثّة ولدَيْهما، ولكنّ عدلة زوجة المرّاوي تسلّمتْ جثّة جمال، ابنها البكْر الذي كان يعيش في اليونان، وجاء لزيارة أهله، وهو لا علاقة له بأيّ شيء، جاء فقط يزور أهله، حين اعتقله الأمن، ليضغطوا على أخيه مروان الهارب، والمتّهم بالتظاهر ضدّ النظام، عذّبوا جمال نكاية بأخيه، فمات تحت التعذيب، ورموا جثّته بوجه أهله، وهدّدوهم بأبشع من ذلك، إنْ قالوا كلمة عن آثار التعذيب

على الجثّة، أو تحدّثوا عن سبب موت ابنهم، قضاء وقدر، قال أبو جمال المرّاوي، ودَفَنَ حزنه في صدره.

صار حسام بعيداً، في بلاد، لا أعرف اسمها، تضحكين عليّ؟ كلّ البلاد خارج سورية هي بالنسبة لي ألمانيا، كلّ بلد تلفظون اسمه، أتخيّله داخل ألمانيا، أمّا ألمانيا، فأتخيّلها بلدة كبيرة، فيها الكثير من الضوء والمحلات التجاريّة والفتيات الجميلات، والسّيّارات الحديثة تلمعُ من النظافة، والكثير من البرد، هذه الـ: ألمانيا التي طالما تحدّثتْ عنها أمامي أسمهان بزهوٍ وافتخارٍ، بل وبغرورٍ، يُسبّب بعض الكراهية لمستمعاتها الساذجات مثلي، وهي تسخر من حياتنا، وكأنّها لم تُولَد مثلنا هنا، من الأمّ ذاتها، والأب ذاته، بل كأنّها وُلِدَت من الأصل في ألمانيا.

أغلبُ المراكبِ تؤولُ إلى الغرقِ

لم يخترْ حسامُ المجيءَ إلى السويد، ولم يختر النزول في ذلك المركب القادم من الحدود التركيّة إلى اليونان، وهو لا يعرف السباحة، بل يخافُ البحرَ، ويخافُ الغرقَ، لكنّ تلك الخطوات لابدّ منها، لماذا؟ لا يعرف، إنّهم يتنقّلون من بلد لبلد، باحثين عن الأمان في البلد الآخر، ليس أمام حسام وأمثاله الكثيرُ من فرص الاختيار في أثناء الحرب.

لم يغادرْ حسام حلب برغبتِهِ، ولم يتركْ بيتَهُ وأمَّه وحدها بإرادته، هرب من الاعتقال والموت تحت التعذيب، لم يكن خيارُه فرديّاً. هؤلاء السوريون يتبع بعضهم الآخر، يتبادلون النصائحَ والخبراتِ، للوصول إلى طُرُق تدبير حياتهم ونجاتهم. لم يحلمْ يوماً بمغادرة بلده، ولم تكنْ لديه طموحاتٌ، تتعلّق بالغرب والسَّفَر، ولم تأتِ سيرة السويد في حياته، إلا حين صار على أبواب الرحيل الجديد من تركيا.

حين غادر إلى تركيا، كان يطمحُ بحياة خالية من القَتْل والاعتقال، لم يُخطّط لخطواته التالية، الحياة هي التي تخطو صوبَهُ بعشوائيّة. تماماً كمركب متروك على سطح الماء، تُحرّكه الأمواج، دون ربّان له، كان حسام مركباً مهدَّداً بالغَرَق، أخذ البلم، ذلك القارب المطّاطيّ، وقلبه يرتجف من الخوف، في عمق الليل والظلام وتهديد البوليس التركيّ الذي إنْ أمسك بهم في مياهه الإقليميّة، فسيعتقلهم، وإن وَصَلُوا أحياء إلى الضفّة الأخرى، فهو لا يعرف ماذا يوجد هناك.

مات الكثيرون في هذه الرحلات القصيرة غير الشرعيّة، هناك مَنْ ماتوا لسوء ظروف الرحلة، وثمّة مَنْ تسبّبت نوعيّة القوارب ذاتها بالغَرَق وسط البحر، لثِقَل الحمولة، وهناك مَنْ قفز من المهرّبين واللصوص من مراكب أخرى، لسرقة المسافرين، وهناك الكثير من القصص، والكثير من الصور الموثَّقة في الصُّحُف العالميّة والعربيّة، حيث جثث السوريين صارت ولائمَ يوميّة لأسماك البحر.

غوتنبورغُ - دائرةُ الهجرةِ

سنتوجّه الآن إلى الإدارة، حيث يستكملون إجراءات اللجوء، لقد أخذوا أوراقنا، وأجرينا أوّل مقابلة رسميّة، شرحتُ فيها وَضْعي ورغبتي في اللجوء في السويد.

بقينا أنا وأبو الجرّاح حوالي أربعة أيّام، إلى أنْ تمّ استدعاؤنا، وأخذونا في باصات إلى الكامب. تمّ فَرْزُ رفيقي إلى مدينة أخرى، وصار من المتعذّر أنْ نلتقي، لا يوجد مكان نلتقي فيه، فالمكان الذي يقيم فيه كلّ منّا هو مكان مخصّص فقط على مقاسنا، فرشة واحدة، لا يمكن تقسيمها، ولم تكن لدينا إمكانيّة ماليّة، ليسافرَ أحدنا صوبَ الآخر، حيث الطريق إليه يُكلّفني حوالي خمسمئة كرونة.

أخذوني إلى "كامب" في منطقة نائية، اسمُها "هيمل"(*)، وهو عبارة عن ستّ وأربعين غرفة منفصلة عن بعضها، على شكل أكواخ خشبيّة. تتّسع الغرفة الواحدة لثلاثة أشخاص، وبعضُها لتسعة أشخاص. ويوجد مطعم في الكامب، لكنّ الطعام سيّئ جدّاً.

(*) Himlle

كبّة نيّة بالزيتِ

كدتُ أزغرد من فرحتي، نذرتُ أنْ أُوزِّع الخبز على الجيران، إذا وَصَلَ حسام إلى أوربا، كنتُ خائفة أنْ يرجعَ، كلّ شباب الحارة اعتُقلوا أو استُشهدوا أو هربوا، لم يبقَ أحد من أصحاب حسام، إذا عاد، فسيكون قَدَرُهُ الاعتقال أو القتل.

الخبز الذي هو أرخص الموادّ وأسهلها انتشاراً أصبح صعب المنال، لهذا استبدلتُ به الكبّة. ولعدم وجود اللحمة وغلائها، استعضتُ عنها بالزيت، نعم، لدي نصفُ زجاجة زيت، اشتريتُها، كلا، لا تحلمي بتَنَكَات الزيت التي كانت تأتينا من الضيعة، أمّا أشجارنا هناك، فلا أعرف مصيرها، ربّما نوري يعتني بها، لم أتذوّق نقطة زيت من محصولنا منذ بداية هذه الحرب.

حقوقُ الإنسانِ في السويدِ

يستيقظ حسام من النوم، فيحاول تذكُّر الجواب على سؤال دائم يُراودُه كلّما أفاق: أين أنا؟ ليُدركَ أنّه في السويد. لا شيء حوله يؤكّد هذه الإجابة، يفتحُ باب الغرفة أو الكوخ الخشبيّ الذي يشبهُ الغرفة، ويخرج ليتفرّج على المباني المتلاصقة كهنغارات، كأنّه في مخيّم سياحيّ .. نعم، هنا السويد، يشعر بأنّه ريشةٌ في الهواء، أو مركب يطفو على سطح الماء، تتقاذفُهُ أمواج الحياة.

ما إنْ يخرج من الغرفة، حتّى تسقط نظراته على الشجرة الضخمة قبالة مسكنه الخشبيّ، والمقعد الذي تحتها، غالباً الطقسُ باردٌ، والمقعدُ فارغٌ، بينما تحطّ النوارس في المكان.

ينظر إلى ما حوله مدهوشاً، ولا يُصدِّق ما يراه، ويتساءل مقارناً الصورة التي أمامه بالصور التي نمَتْ طويلاً في مُخيّلته، ويبدو مصدوماً منذ اللحظات الأوّل، للمعاملة التي يتلقّاها.

كان حسام شابّاً ميتافيزيقيّاً إلى حدّ ما، وربمّا ساذجاً، وهو يحيا في عالم نَظَري من القِيَم التي يقرأ عنها. يمكن وَصْفُهُ أيضاً بالطوباويّ الذي لا يرى الحياة كما هي، أكثر ممّا يتصوّر عنها، وفق معلوماته عنها.

تعلّق طويلاً بحبال الحقّ والعدالة، وكان مؤمناً أنّه سيعثر على الأمان والاستقرار في السويد، وكان يشبهُ فعلاً طلاب الجامعة الذين يُطبّقون

النظريّات التي يتعلّمونها، إلى أنْ يكتشفوا بعد صدماتٍ متتاليةٍ الفارقَ بين النظري والعملي.

عاش حسام يقينَ حقوق الإنسان في الغرب. وظلّتْ نظرته في الغرب مثاليّةً، إلى أنْ بدأت الصورة تتّضحُ، وتأخّر طويلاً، حتّى استوعبَ المشهد.

كلّ شيء يُسبّب له الدهشة، لا شيء يشبهُ ما تخيَّله. مديرة الكامب مثلاً، تينا التي انتظر منها أنْ تكون متفهّمة لأوضاع اللاجئين ومشاكلهم. متخيّلاً أنّها ملاك سويديّ، خَذَلَتْه، ليشعر بأنّها تصلحُ لأنْ تكون مديرة سجن، فهي غير مبالية باللاجئين، وتنظر إليهم على أنّهم كائنات بحاجة إلى الطعام والسَّكَن فقط، وعليهم أنْ يأكلواويناموا بصمت.

السويدُ في مكانٍ آخرَ

مضى على وصولي إلى الكامب عدّة أيّام، تلقّيتُ اليومَ رسالةً من دائرة الهجرة، تحدّد موعد مقابلتي الرسميّة التي ستكون بعد ستّة أشهر من الآن.

أمضيتُ ستّة أشهر هنا، وأنا لا أُصدِّق ما أحياه.

يفتقر الكامب لأدنى الشروط المعيشيّة، فنحن في منطقة منعزلة عن المدينة أو القرية، ولايوجد حولنا أيّ دكاكين أو مخازن لشراء أيّ شيء قد نحتاجه، حتّى لايوجد أيّ مركز طبّيّ أو عيادة أو مشفى، حتّى إنّهم لم يأتوا لنا بمترجم، كانوا يُحدّثوننا بالسويديّة، دون أنْ نفهم ما يقولونه لنا.

حين كانوا يقولون: (السويد) كنتُ أتخيّل هذه البلاد بطريقة أخرى، لكنّني صُدمتُ بها.

طبعاً لا أستطيع الآن أنْ أحكمَ على حياتي في السويد التي لم أرَ منها حتّى اليوم سوى هذا المخيّم.

السويد بالنسبة لي هي فقط هذا الكامب.

الكامب الذي لا يختلف عن الحياة هناك في سورية، بكل تعقيداتها وصعوباتها. كأنّنا انتزعْنا قطعةً من ذلك العالم الأحمق، ووضعناه في السويد.

لا شيء هنا سويديّ.

نحن لا نعرف اللغة، نحن لاجئون، يتحدّث كلّ لاجئ لغةَ بلده التي

جاء منها، مع القادمين من بلاد أخرى، لا يعرفون لغته، أو مع السويديين العاملين في الكامب.

كانت لديّ أحلام وتصوّرات مختلفة عن الحياة هنا.

توقّعتُ أنْ يكون هناك مُرشد نَفْسيٌّ، مُصلحٌ اجتماعيٌّ، مركزُ بوليس، نقطةٌ طبّيّةٌ، لا شيء أبداً.

نعيش معزولين في منطقة مقطوعة عن المدينة، لا تمرّ فيها وسائل المواصلات، هناك باصٌ واحدٌ يمرّ مرَّتَيْن في اليوم، في خمسة أيّام، ولا يمرّ في العطلة الأسبوعيّة - الويك إند.

الباص يصل إلى منطقة، اسمها فاربري.

الكامب الذي نقيم فيه يبعد حوالي ١٢ كم عن أقرب منطقة سَكَنيّة (ناحية).

كأنّنا في سجن.

إنْ تعرّض أحدنا لعارضٍ صحّيٍّ، فلن نعرف كيف نتّصل بالهاتف، ونحن لا نعرف اللغة، ولا نعرف كيف نتّصل بالإسعاف أو البوليس.

لا أشعر أنّني في السويد.

المشاكل التي كنتُ أعيشها في سورية هي ذاتها. الأشخاص، الأحداث، فقط تغيَّر عليّ المكان. كأنّني انتقلتُ من حارة إلى أخرى، ولكنّها غريبة.

الأشخاص ذاتهم التقيتُهم هنا، المُتزمّتين، المُتديّنين، المُتطرّفين، الجهاديّين، اللّصوص ..

نعيش في عزلة تامّة عن المجتمع السويدي.

لا شيء، إذنْ، سوى الانتظار.

لمّ الشملِ

أرفض العيش في أوربا، ولكنّ الشخص الوحيد الذي يمكنني أنْ أفعل لأجله هو حسام ..

لقد صار في أوربا، وسألتحق به قريباً، نعم، سأرى أخواتي، منذ سنوات كثيرة، لم أرَ أسمهان، سأراهنّ جميعاً، حيث ذهبنَ إلى ألمانيا، وسألتقي بفؤاد أيضاً هناك، إذا أطال الله في عمري، وخَرَجَتُ من هذه المقبرة في حلب الجديدة.

منعُ تجوالٍ في السويدِ

اعتاد حسام الشّابّ، وهو في مقتبل الشباب الآن على الحركة والنشاط، كان مثل المكّوك، لا يتوقّف عن الدوران، وقد كان لا يهدأ في الأيّام الأخيرة، قبل فراره من سورية، كان يُشكِّل مع أصحابه خليّة عمل في أثناء الثورة، يخرج في المساء، ويمضي الليل في العمل السّرّيّ، كانوا مَليئين بالأفكار الثوريّة الإيجابيّة، وكانوا مؤمنين بأنّهم سيُغيّرون العالم، ويخلقون الجنّة في سورية.

لكنّه يحيا الآن، وكأنّه مُعتقَلٌ، أو ممنوعٌ من المغادرة. ليست إقامة جبريّة بالمعنى القانونيّ، ولكنّها هكذا بالمعنى الوجوديّ، فهو عالقٌ في الكامب، يملك حقّ مغادرته والتجوال في مدينة غوتنبورغ، بل والذهاب إلى استوكهولم، ولكنّ هذا يعني المال، وهو مجرّد طالب لجوء، يعدّ الكرونات التي يحصل عليها، لتدبُّر مصروف الهاتف والدخان، فيجد نفسه عاجزاً عن الصمود حتّى آخر الشهر.

الخروج من الكامب يعني المواصلات، والمواصلات تعني المال.

كأنّه ممنوعٌ من التجوال، حيث كان في سورية، عالقاً في تلك المزرعة، خائفاً من الخروج، فيلتقطه أحد خصوم المعارضة، الباحثين عن تصفية حسابات داخليّة بين بعضهم، فيقتل أو يأسر أو (يشوّل)(*) فصيلٌ ما أفراداً

*) راج فعل : شوّل في حلب خاصّة، ويعني سرق أو خطف

من فصيل آخر، وبالقوّة، وبالقَسْر، وبالإجبار، ولأنّه يحمل هويّة شخصيّة، تُثبت مولدَه في منطقة كرديّة، هو المولود في حلب، لكنّ دائرة النفوس التي تتبع لها عائلته مسجَّلة في (شرّان)، الضاحية الكرديّة التابعة لمنطقة عفرين، المحسوبة على فصائل الحزب الديمقراطيّ الكردستانيّ والبي كي كي..

عالقٌ هنا، في هذه القرية الصغيرة، عاجزٌ عن الخروج والتّنقّل، لأنّه لا يملك المال، ولا يمكن التّنقّل سيراً على الأقدام، كما في المُدُن المأهولة بالناس، حيث الكامب معزول تماماً، وعليه أنْ يقطعَ الكثيرَ من الكيلومترات على الأقدام، ليصل إلى أوّل نقطة مأهولة بالسكّان.

يرغب في الخروج من الكامب، في النزول إلى غوتنبورغ، ليتفرّجَ على الشوارع والمحلات، وليدخلَ ربمّا أحد المقاهي، أو دار سينما، لكنّ هذا صعب، إنّه في السويد، ولكنْ، خارج السويد.

كان في اليونان، يحيا هذا الحرمان، كان يسمع بأسماء الجُزُر الشهيرة التي يأتيها السّيّاح من أقاصي الأرض، لكنّه لا يملك المال للذهاب إليها، بل حتّى لم يغادر ساحة أمونيا، حيث الفندق وساحة الاعتصام، المكانان الثابتان لتواجده في أثينا، محروماً من متعة التّفرّج على مدينة أثينا، كَمَنْ يعيش في باريس دون أنْ يرى برج إيفل، أو في حلب دون أنْ يذهب للتفرّج على قلعة حلب.

Interview

جاء اليوم المُنتظَر. كان إحساسي أنّ مصيري كلّه مُتعلِّق بهذه المقابلة.

استيقظتُ باكراً، شربتُ قهوتي، وأنا ممتلئ بالتفاؤل، وغادرتُ لأبدأ رحلة القطارات والباصات، حيث مكان المقابلة هو المكان الذي سلّمتُ نفسي فيه للسلطات، لحظة وصولي، أي قبل ستّة أشهر، في غوتنبورغ.

غادرتُ الكامب في الساعة التاسعة والنصف، تستغرق الطريق حوالي الساعتَيْن والنصف، ولكنّني خَرَجْتُ من أجل الحيطة بوقت أبكر، خشية حدوث عطلٍ ما في إحدى الحافلات أو القطارات، فأصل متأخّراً على موعد المقابلة.

وَصَلْتُ قبل ساعة من الموعد، وانتابَني إحساس اليوم الأوّل، استرجعتُ مشاعري ذاتها، حين سلّمتُ نفسي هنا قبل ستّة أشهر.

التقيتُ بالأشخاص الواصلين للتّوّ، كما وَقَعَ لي قبل ستّة أشهر، وتبادلْنا القصص والحكايات. أنا بالنسبة إليهم لاجئٌ سابقٌ، ربمّا يستفيدون من خبراتي، ويعرفون ماذا سيحلّ بهم، بعد لحظة وصولهم. وصاروا يسألونني، متى يتمّ إرسالهم إلى الكامبات، ومتى تأتي مواعد المقابلات؟ إلى آخر ما هناك من أسئلة، تُؤرِّق الواصلين للتّوّ إلى هذه البلاد.

دخلتْ شابّةٌ إلى قاعة الانتظار، ونظرتْ إليّ، ثمّ اقتربتْ منّي، وصافحتْني: أنتَ حسامٌ؟ اسمي ميرياما، وملفُّكَ لديّ، هل نذهبُ؟

غادرتُ معها وأنا أشعر بالثقة والأمان، كأنّني أعرفُها منذ سنوات، صرنا نتحدّث بالإنجليزيّة، سألتْني عن الطريق، وكيف جئتُ من الكامب، وأثنتْ عليّ، لأنّني لم أضلّ الطريق، وكانت لطيفة ومبتسمة طيلة الوقت، إلى أنْ وَصَلْنا إلى المكتب.

سألتْني عن أمور كثيرة، عن علاقاتي السياسيّة، عن أقاربي، عن نشاطاتي، عن انتماءاتي الحزبيّة، فيما إنْ كنتُ مطلوباً لجهة ما، وأنا حكيتُ لها كلّ شيء، بشفافيّة ووضوح. كانت لطيفة، وعرضتْ عليّ فترة استراحة، وقدّمتْ لي القهوة، ثمّ حكيتُ لها بعد الاستراحة عن طريق مغادرتي، منذ حلب حتّى وصولي إلى السويد.

مضت المقابلةُ بطريقة لطيفة، لم أشعرْ بأيّ ضيق أو إزعاج، كنتُ مرتاحاً في الكلام، وبعد انتهاء المقابلة، ومغادرة المُترجم، تقدّمتُ منها، وشكرتُها، فاعتذرتْ لي عمّا يحدث في بلدي، وأبدت تعاطفها مع الشعب السوري، تبادلْنا السلامَ بالمصافحة، وذكّرتْني باسمها مجدّداً، وأعطتْني إيميلها، لأتواصل معها بشأن ملفّي.

رحتُ أجول مجدّداً بالمكان، مستعيداً ذكريات وصولي، المطعم، الغرفة التي نمتُ فيها أوّل ليلة لي في السويد، ثمّ غادرتُ متّجهاً صوب الكامب، أيضاً كان عليّ، كما جئتُ، أخذ عدّة قطارات وباصات، والانتظار في المحطّات، حتّى وَصَلْتُ في السابعة مساء إلى الكامب.

بستانُ الخرزِ

بنتُ الحجّ منّان

ما هذا الكتابُ المُملّ؟ أنتِ لا تجيدين الكتابة، لأنّك ما تزالين أسيرة، تقولين: إنّكِ ورثتِ عنّي السَّرْدَ، لكنّكِ لم تأخذي عنّي الحُرُيّة. أنتِ مثل أبيكِ، أسيرة رأي الآخرين بكِ، أنا لم أذهبْ إلى المدرسة، أمّي حَرَمَتْني من المدرسة، بسبب توأمها، حين وَلَدَتْ زينبَ وشقَّ التوأم التي ماتتْ، أخرجتْني أمّي من المدرسة، لأربيّ معها بنتَيْها. لو أنّني ذَهَبْتُ إلى المدرسة، لتعلّمتُ القراءة والكتابة، وما تركتُكِ تكتبين هكذا. نعم، أخذتِ عنّي السَّرْد، لكنّكِ أخذتِ من أبيكِ الاهتمامَ برأي الآخرين. لم يعلّمكِ أحدٌ، ولم تتعلّمي من كلِّ قراءاتكِ وخبراتِكِ في سورية وأوربا، أنْ تكوني حُرّة في الكتابة، لا تعنيني تلك الكُتُب الخياليّة التي لا تمتحن حُرّيّتكِ .. هناك تتخيّلين القصص، وترْوينها دون مساءلة، أمّا الآن، فأنتِ جبانة وأسيرة الآخر في هذا الكتاب. تريدين كتاباً يليق باسمِكِ، ولا تبحثين عن كتاب يليق بداخلِكِ، حسناً، سأتدخّل في هذا الكتاب، سأعاونكِ فيه، وأنت فقط انقلي كلامي بالنَّحْوي، فأنا لا أعرف الفرقَ بين الألف والعصا، أو بين الباء والباب.

مَنْ هذه رانيا التي سلّمتها مفتاح البداية؟ ماذا؟ لا تُدعى رانيا؟ ماذا؟ لنا؟ لم أفهم، لا ترفعي صوتكِ، لستُ طرشاء، نعم، حين وضعتُ حسام، جاءتْ جدّتي زينب لمساعدتي، ودخلتْ معي الحمّام، لتغسّلَني بعد ولادتي، أجل، دلقتْ طاسة الماء في أذني، وخفَّ سَمْعي في تلك الأذن اليمنى، نعم، لكنّني لستُ طرشاء، لا تصرخي، رنا؟ ما هذا الاسم؟

لماذا تمنحينها خطّ البداية؟ لأنّها متناقضة عن حسام؟ لأنّها من بيئة غريبة؟ ما هذا الكلام؟ نسيتِ ميّادة؟ ميّادة التي هربتْ مع هلال. أجل الحمار هلال، كانت تْسوَى رأسه وعائلته. ميّادة التي تركتْ مدرستها وعائلتها، وهربتْ مع هلال حين كان يخدم الجيش في اللاذقيّة، ووقعتْ في هواه. ولأنّها عَلَوِيّة، لن يقبلَ أهلُها بزواجها من السُّنِّيِّ، هربتْ معه، وجاءتْ لتسكنَ جوارَنا، هل تظنّين أنّ الحارة ستنتظرُ عشرات السنين، حتّى تأتي واحدة مثلكِ ومن أصحابكِ، ليتحدّثوا عن التماثل في مجتمعاتنا؟ لم يكن حسام قد وُلدَ بعد حين جاءت ميّادة، كانت نائلة آخر العنقود آنذاك، اسمعي، كتابُكِ فاشلٌ هكذا، سأُطرِّزه لكِ، نعم، لا تضحكي، نحن نشتغلُ بالخرز هناك، أقصد هنا، حيث نرقدُ جميعاً، لا تستعجلي، سأحكي لكِ عن بستاننا الذي سمّيناه بستانَ الخرز، أعرف أنّكِ كنتِ تحبّين رواية، عنوانها بستان الكرز، لهذا أيضاً تجنّبْنا، أنا وصديقاتي الحديث عن الجثث، فلم نتحدّث عن رقادنا على أنّه رقاد الجثث في حديقة البلد، بل سمّينا الحديقة بستان الخرز، حيث نحن النساء، خرزات يُطرّز بها هذا البستان الذي يسمّيه الأحياء الأغبياء المقبرة.

سأبدأ لكِ من حكاية حافظ الأسد.

نعم، حيث إنّني وُلدتُ امرأةً حُرّة، أنا ابنة حجّ منّان، كما كنتُ أصرخ وأتباهى، لا أخاف إلا من الله الذي خَلَقَني، ولا يهمّني أيّ كائن آخر، حتّى لو ظنّ نفسه حافظ الأسد.

لماذا تضحكين؟ أنت تُعاملينني دائماً على أنّني غبيّة أو حمقاء أو مجنونة. وهذا بالمناسبة رأي والدكِ. هل تعرفين، يا حضرة الكاتبة الفهمانة، لماذا كان والدكِ يصفني بالمجنونة؟ اسمعي، إذنْ، هذا، ثمّ وضِّحي لي قصدكِ بأنّ حافظ الأسد ليس مهنة، بل اسم شخص.

لأنّ أباكِ مثلكِ يخافُ من الآخرين، ويحسبُ حسابهم، ويريد أنْ يكون كاملاً في عيونهم، كان يخجل من صراحتي. فأنا امرأة أقول للأعور أعور في عينِهِ، نعم، نعم، فهمتُ إلامَ ترمين. تذكّرينني بتلك الفضيحة حسب وصفكِ أنتِ وأبيكِ، حين قلتُ لمنّان أمام عروسِهِ: أنتَ أعور، منيح رضيتْ فيكْ، وكنتُ أعني أنّه أحول!

نعم، كان أبوكِ يتحرَّجُ من صراحتي، وكلّما نطقتُ بأمرٍ لا يليق من وجهة نظره، قال مبتسماً: أمينة دينا، أي أمينة مجنونة، وهكذا سهّلَ الأمر على نفسه وعلى عائلته، ولكنّكِ تعرفين أنّني لستُ مجنونة، المجنونُ برأي هؤلاء هو مَنْ يقول الحقيقة دون خوف، أنتِ ينقصك هذا الجنون في الكتابة، أنت مُبدعة، وأنا فخورةٌ بكِ، وأعرف أنّكِ عاقلةٌ وذكيّةٌ، لكنّني فقط ألومُ رصانتَكِ المبالغ بها، لا تخافي من الآخرين، اكتبي كما أعيش أنا، اكتبي كما تعرفينني، وكما يعرفني الجميع.

انظري إليهم جميعاً، كلّ مَنْ عرفوني، ما رأيهم بي الآن؟ هل يعتقدون أنّني مجنونة؟ حسناً. نعم سمعتُكِ ،لا تقلقي، يقولون: إنّني طيّبة، وثمّة مَنْ يقول: إنّني مُبارَكَة، هذه أيضاً خدعةٌ، لجأتُ إليها لكسب صداقتهم. أجل، أعني قصّة الفنجان وقراءة الغائب، حيث قلّدتُ جدّتي زينب وأمّي سامية، كنتُ أريد دخول المجتمع من طرفي، وعلى طريقتي، وهذا ما حَصَلَ.. أمّا الخديعة الكبيرة التي أريدكِ أنْ تُدوِّنيها في هذا الكتاب، فهي تكاد تكون أهمّ ما توصّلتُ إليه في حياتي، ولولا الحربُ ما اخترعتُ تلك اللعبة، هذا ما عليكِ تدوينه، حيث اخترعتُ ألعاباً في الحرب، لأتجنّب الموت وحدي.

نعم، يا ستّي، تركتُمُوني كلّكم، أنا لا ألومُكِ، أنت غادرتِ قبل الحرب، وحَرَقْتِ قلبي، أنا ألوم أخواتي القحبات، لماذا أقول قحبات؟

لأنّهنّ كاذبات، خرجنَ مُتسلّلات واحدة تلوَ الأخرى، تاركاتٍ البلدَ، دون أنْ يُودّعنَني.

قحبات منذ الأزل هنّ هكذا، يتصرّفنَ معي كأنّني غريبة، يعتقدنَ أنّني مجنونة، وأنّني أبوحُ بالأسرار، يتصرّفنَ كفريق واحد، ويُخرِجْنَني منه دائماً، أنا التي غسلتُ أطيازهنّ جميعنّ، تركتُ المدرسة لأغسلَ خراءهنّ، هاجرنَ البلدَ، وتركْنَني، كانت إحداهنّ تتّصل بي حين تصل إلى أوربا، وتقول لي: لا تقلقي، سنجلبُكَ إلى هنا، كذّابات، لقد أغلقتُ الهاتف بوجه أسمهان آخر مرّة، لأنّها تكذب، لا يردنَني بينهنّ.

حسناً، هذا ليس موضوعنا، نحن نتحدّث عن اللعبة وعن الحُرّيّة، سأُركّز، ولكنْ، إذا سهوتُ، فَذَكِّريني، لأعودَ إلى الموضوع.

آخ، انتظري، غارةٌ جوّيّةٌ الآن، الطيران فوقَنا، سأسكتُ، هيا، تابعي الكتابة أنت، وعليّ أنْ أرقدَ بصمت، حتّى تمرَّ الغارة.

قطع: تحليق طيران

كوكبٌ خاصّ اسمُهُ الكامبُ

الانتظارُ يعني المَلَلَ، يعني الخوف، يعني وقوف الزمن.

رغم برودة الانتظار، كان حسام مملوءاً بالأمل، وكانت عيناه تلمعان بذلك البريق الطفوليّ الذي لم ينضبْ مع الصبا، إذ يحمل في داخله كائناً، يحاول دائماً نَحْتَهُ، ليظهر نظيفاً وبريئاً، ولم يفهمْ أبداً أنّ كائنَهُ يميلُ صوبَ السذاجة، في العيش، في عالم مليءٍ، بالنسبة له، بالمثاليّات، ومن تلك المثاليّات: السويد بلدٌ عظيمٌ، بلدُ حقوق الإنسان!

كان يُمضي وقتَهُ بالأحلام: غداً أحصلُ على الإقامة، وتتغيّر حياتي، وأغادر هذا المكانَ الكئيبَ.

كان كلّ شيء متوقّفاً على قرار الإقامة، إذ لا يحقّ له فعْلُ أيِّ شيء قبل هذا، فهو جالسٌ هكذا، مَرميّ في العطالة، لا يمكنُهُ العملُ، ولا تعلُّم اللغةَ السويديّةَ، ولا الخروج من هذا المعتقل الذي يتمتّع فيه بحقّ الطعام والنوم والاستحمام فقط، كأنّه سجين.

مع أنّه يملك حقّ الخروج من الكامب، ولكنّ الذهاب إلى المدينة يعني المال. وسائل المواصلات غالية الكلفة بالنسبة للاجئين، تبقى السويد الحقيقيّة بعيدة عن متناول اليد، حيث يعيش السويديون في عالم آخر تماماً، لا يمكن للاجئين القادمين للتّوّ من الحروب الذهاب إليه، والدخول فيه.

هنا الكامب فقط للأجانب، هنا سيعيشُ حسام كأجنبيّ للمرّة الأولى، في حلقة خاصّة، لا تنتمي إلى المجتمع السويديّ الذي حلمَ به، بل سيمضي وقتاً طويلاً لفَهْم هذا المجتمع الخاصّ داخل المجتمع السويديّ الكبير.

هنا لسنا في السويد، جغرافيّاً يقع المخيّم داخل أرض السويد، ولكنّه لا يمنحُ الشعور بأنّه في السويد، لا أحدَ هنا يتكلّم السويديّة سوى الموظّفين القلائل، الكلّ هنا غريب، هارب من المشاكل في بلاده، لاجئ إلى هذا البلد، حالم بحياة آمنة. ولكنّها لم تأتِ بعد.

في انتظار الحياة السويديّة، في انتظار العيش داخل السويد، واللقاء بالسويديين، أولئك الكائنات البيضاء الجميلة، سيبقى اللاجئ محكوماً بالاعتقال داخل حياة ضيّقة، لا أحلام ولا إذن بالعيش خارج مجتمع صغير، مجتمعٌ له قوانينه التي لا تشبهُ قوانين السويديين. هنا لستَ في أوربا، ولا في اليونان، ولا في تركيا.

كان حسام يتنقّل في اليونان بين المقاهي والفنادق، ويلتقي بأشخاص يونانيين، يشتغلون في مؤسّسات خيريّة ومنظّمات مَدَنيّة، تُقدّم خدماتٍ للاجئين، وفي تركيا كان يعيش داخل المجتمع التركيّ، يركب الترام والباص، ويتناول الطعام في محلات أصحابها أتراك، ويتبادل الأحاديث مع الأتراك، ببعض الكلمات التي تعلّمها.

لكنّ السويديّ هنا بعيدٌ، ولا يمكن الاحتكاك به، فاللاجئ هنا لا يملكُ، بعدُ، حقّ الدخول في حياة مُكلفة ماليّاً ونَفْسيّاً، لمَنْ لا يملكُ أوراق الإقامة بعد.

رجالُ الرملِ

كنتُ قد افتتحتُ هذه الرواية برنا، مُتحدِّثة عن حسام، إلى أنْ تدخَّلتْ أمّي، ونسفتْ دخولي إلى الكتاب، لتُؤنِّبني مُتحدِّثة عن المَلَل، وهي تتابعني، ولكنّني رغم هذا آثرتُ استعادة رنا في مكان آخر من السَّرْد، حيث ساعدني وجود رنا على التّعرّف إلى حسام أكثر. إذ إنّني فعلاً لم أكن أعرف عنه الكثير، حيث كبر في غيابي، وتغيّر كثيراً، بعد أنْ تركتُه مراهقاً صغيراً، تبدَّلتْ ملامحُهُ الفيزيولوجيّة والنَّفْسيّة في غيبتي، حتّى إنّني لم أتعرّف عليه، حين رأيتُهُ لأوّل مرّة بعد غياب عشر سنوات، كان يقفُ أمامي، وكنتُ أبحث عنه بين الوجوه البعيدة.

من رنا، سأكتشف المزيد من طوباويّة أخي، الكائن الذي صَنَعَتْهُ المُثُلُ النظريّة أكثرَ ممّا صَنَعَتْهُ تجاربُ الحياة، فبدا مثاليّاً في علاقته مع النساء، الشّابّ الذي لم يتابعْ تعليمَهُ، بدا أخلاقيّاً بشدّة مع الفتيات، وهذا أمرٌ غير مضمون في واقعٍ شرقيٍّ مكبوتٍ، سأعرف عن حسام المزيد من القصص، في علاقته مع الفتيات اللواتي يعاملهنّ دائماً كأخوات، وسأفكّر طويلاً في احتياجه العميق لمفهوم الأخت، أو ربّما الأمّ.

رنا لا تختلف كثيراً عن طينة حسام، وهذا ما دعاني للإبقاء عليها في الكتاب، فهي شبه نائمة، تتصرّف كالأميرات في القصص، شبه منفصلة عن الواقع، تصادقُ شابّاً معارضاً، كرديّاً، وهي المحسوبة على النظام، ولن أقول الموالية، فرنا لم تستيقظْ يوماً على هذه الثنائيّات، وتتعامل مع

الجميع كأنّهم من عالمها، ولم تنصدمْ من حسام الذي كان يشتمُ بشّار الأسد في علبة رسائلها، وفي المحادثات الصوتيّة بينهما عبر الفيسبوك أو الواتس آب، بل كانت تضحك، وتصفه بالفاجر.

تعيش رنا في اللاذقيّة، في شارع الجمهوريّة، قريباً من محطّة حيدرة للوقود، أبحث في الإنترنت عن عنوانها، لأقع على صفحة على الفيسبوك، تحمل عنوان الحارة ذاتها، أفتح الصفحة، لأجدها عبارة عن طرائف وأخبار ضاحكة وتعليقات على البنات، وكأنّ أصحاب الصفحة يعيشون في كوكب آخر، خارج سورية، أتساءل بيني وبين نفسي: من أين ينبع هذا الإحساس بالأمان والثقة واللامبالاة؟.

الحيّ ذو أغلبيّة عَلَوِيّة، من الواضح أنّ هؤلاء نائمون أو غائبون، غارقون في عيشهم الهانئ، وكأنّ الحرب ليست على مقربة منهم، وكأنْ لا يموت بشرٌ في القرب منهم: بشرٌ منهم، ضبّاط يتبعون لهم، لطائفتِهِم، يموتون في القتال، لأجل هؤلاء أيضاً.

ليس لهؤلاء إحساسٌ بالخطر، اعتادوا أنّهم أربابُ البلد، وأنّ النظامَ يعمل لتحقيق أمْنِهِم وحمايتِهِم، لهذا فهم لا يتكلّفون حتّى عناء الأرق.

أمّا رنا، فهي من باب البساطة ذاتها، لا تشعرُ بالقلق من التّحدّث مع حسام، ولا حتّى بالخطر، بل تتعاطف معه، كأنّه شخص ينتمي لبلد مختلف، ويعيش معاناتِهِ بسبب نظام مختلف.

تضحك رنا، تضحك كثيراً، وتميل إلى المرح، تغنّي وتسمع الموسيقا، وتذهب إلى البحر للسباحة، وتذهب للتّسكّع مع صديقاتها، فهي ليست مَعنيّة بهذه الحرب، هناك أشخاص يخوضونها عنها، ولم يسألها أحدٌ عن رأيها، الحروب تواجدت دائماً، ولن تستطيع رنا مثلاً وَقْفَهَا، ولم تعتدْ أنْ

تتأمّل فيها، فهي مُنوَّمة في تفاصيلها العاديّة التي تعيشها كما كانت، دون أنْ يكون لهذا العنف أثرٌ على حياتها.

تستيقظ رنا في الصباح، لتُحضر القهوة لها ولأمّها، ثمّ تُنظّف البيت، وهي تسمع الموسيقا، ثمّ تتزيّن وتتّصل بصديقاتها، وتخرج للتّنزّه والثرثرة مع الصديقات، تماماً كما تعيش كلّ بنت أخرى في عمرها، تعيش رنا هذه الحياة، في ظلّ الحرب، كما في السِّلْم، دون أيّ فارق، سوى بعض التسلية الفائضة.

أعرف أنّها فتاة طيّبة، وليس مطلوباً من جميع البشر أنْ يخافوا ويتحمّلوا كوارثَ العالم، هناك بشرٌ هكذا، خُلِقُوا بسطاءَ، ولا يَعنيهم ما يحدُثُ حولهم، طالما لم يمسّ حياتهم.

لا تنتمي رنا إلى عالم صاخب فضوليّ، يبحث عن المعرفة حوله، بل تَرَبَّتْ على الدلال والهدوء، لهذا فهي ليست مُضطرّة أنْ تُفكّر في هذه الحرب.

إنّ أكبر تغيير طال حياة رنا هو خسارتها لفرصة العمل، وتَرْك أختَيْها لعملهما في التدريس، في درعا وحلب، وعودتهما إلى اللاذقيّة.

تستيقظ بمزاج مرح، وتمضي نهارها بالمزاج ذاته، تُحبُّ المرحَ والسلام، وتكره الحرب والشجار والمشاكل. تقول لي: أنا مسالمةٌ جدّاً، ليست لديّ مشاكل مع أحد في حياتي، ولم أشتبكْ مع أحد أبداً، أحبّ الفرح والضحك والموسيقا، وأحبّ الملابس كثيراً، وتسخر أمّي منّي بسبب غرامي بالثياب، حيث أغيّر ملابسي عدّة مرّات في اليوم، وأتزيّن وأرقص، أنا كائنٌ سعيدٌ، يُحبّ الحياة.

لكنّني خجولةٌ جدّاً، وعلاقاتي ضيّقة، لهذا ربّما أتحدّث إلى حسام عبر

الفيسبوك، هو شخصٌ فضوليٌّ، وأنا أصفُهُ بالفاجر، لأنّه يُصرُّ على ما يريد، ويتتبّع ما يرغب في فعْله، هو الذي أجبرني تقريباً على إقامة الصداقة معه، ثمّ اكتشفتُ أنّه طيّبُ القلب، فانجذبتُ إليه، وشعرتُ كأنّه أخي، ولا سيما أنّني فَقَدْتُ أخي قبل الحرب، لديّ أخان، مات أحدُهما، وبقي الآخر فقط.

نعم، أريدكِ أنْ تعرفي أنّني نباتيّة، لا أتناول اللحومَ، ويقولون: إنّ النباتيين أشخاصٌ لطفاء، لهذا أظنّ أنّني مسالمةٌ، وأحبّ البساطة في العيش، ولا أفهم أبداً دواعي صراع البشر، وأسباب قيام الحروب، وقتل الناس بعضهم بعضاً.

حُلمُ الرَّقْمِ الرباعيّ

حين أحصل على الإقامة، سأُمنَحُ الرَّقْم الرباعيّ، أو الرَّقْم الوطنيّ، حيث تتوقّف كلّ الأشياء هنا على هذا الرَّقْم السِّحْري الذي من دونه لا يحقّ لي الذهاب إلى المدرسة لمتابعة دروس اللغة السويديّة، وكذلك حضور جلسات الاندماج التابعة للبلديّات، كما أنّني سأحصل على بطاقة مصرفيّة، بموجب هذا الرَّقْم، وسيكون لديّ حساب مصرفيّ صغير، أُسدِّد عبرَه التزاماتي، وسأحصل على حقّ إبرام عقد أجار لسَكَنٍ مُستقلّ. ستكون لي غرفة خاصّة بي، أرتّبها وأنظّفها، وأرتّب أغراضي فيها، بل سأعدِّل شهادة سوّاقة السّيّارة السوريّة، وأحصل على شهادة قيادة سويديّة، وربّما أسافر خارج السويد في العطل، لأزورَ أقاربي في أوربا، ولكنّني، قبل هذا، سأجلسُ حبيسَ الانتظار، لا أفعلُ شيئاً سوى الأكل والنوم والثرثرة على الإنترنت.

المبلغُ الذي أتقاضاه من مؤسّسة الهجرة لا يكفي لدَفْع قيمة المواصلات، ومغادرة الكامب، للذهاب إلى المدينة، واكتشاف الحياة هنا، ما أزال أعيشُ خارجَ السويد، لن أرى السويد، ما لم أتجوّل في شوارع المدينة، وأتعرّف على محلاتها التجاريّة ومقاهيها، وأقرأ عناوين اللافتات المضيئة في الليل.

خليطٌ بشريّ اسمُهُ اللاجئونَ

يخرج حسام من الغرفة، أو الكوخ الذي يقيم فيه مع خمسة أشخاص آخرين، يحاول تمضيةَ الوقت في شيء آخر غير الجلوس والانتظار، حيث الإحباط والطاقة السلبيّة المُتلِفَة للأعصاب.

يتوجّه صوب غرف الآخرين، أولئك الذين يعرفهم قليلاً، فهو يُقيمُ بين الأغراب. لاجؤون جاؤوا من بلاد، يجهل حسام مكانها على الخارطة، ولا يتحدّثون لغته. الكلام عن الاندماج مبكر جدّاً، فهم أيضاً، هؤلاء القادمون الجدد مثل حسام لا يفقهون الاندماجَ مع بعضهم . هؤلاء لم يتعلّموا الاندماج في مجتمعاتهم الأصليّة حتّى، ويحملون مشاكلهم من هناك، ويعتنون بها هنا، لتكبرَ معهم في هذا المكان المنزوي عن العالم. هنا تكبرُ المشاكل، وتزيدُ الفرقة بين البشر. هؤلاء القادمون من جهات متباعدة، لم تلمّ السويد جراحَهُم وآلامَهُم بعد، وما يزالون بعيدين عن فكرة الاندماج التي ستبدأ الحكومة في تأهيلهم لها، بعد حصولهم على شرعيّة البقاء في هذه البلاد.

بعد الإقامة،إذنْ، سيخضعُ كلّ هؤلاء الأجانب إلى دورات تمكين للاندماج في المجتمع السويديّ، وفَهْم الثقافة السويديّة، ولكنّهم كأجانب الآن، كأرقام مصفوفة في ملفّات، تقبعُ في مكاتب موظّفي الهجرة، لما يزالون يتنازعون مع أجانب آخرين، يعدّونهم، أحياناً، خصوماً لهم في الطعام والمَسْكَن، بل ويتنازعون مع أقرانهم القادمين من البلاد نفسها، دون اختيار

أنْ يكونوا في المكان نفسه، حيث تُفرِّقهم الانتماءات والعقائد منذ كانوا في تلك البلاد.

هنا، سيحاول كلّ لاجئ البحث عمّنْ يُشبههُ، وستزداد النعرات والكراهية والخصومات، مَنْ يهمّه أنْ يتفاهم الأجانب غير الحاصلين على الإقامة فيما بينهم، أو أنْ يتحاوروا أو أنْ يتقاربوا ويندمجوا؟

من المنطقي لكائن بعيد عن هذا المكان، لكاتبة هذه السطور، وللقارئ، أنْ يُوضَع اللاجئ الجديد في مكان مشترك مع لاجئ من بلد آخر. فنحن نتفهّم ضرورة المشاركة وتقاسم الحياة مع الآخر المختلف، ولكنّ هذا يبدو باكراً بالنسبة لهؤلاء القادمين من الحروب والمجاعات، والمعاناة التي لا تتقبّل فكرة الآخر الشريك في البؤس، هؤلاء المُتطلِّعون إلى شراكة مع الآخر الأبيض، السويديّ البعيد المنال.

يغادر حسام، إذنْ، غرفته التي تجمعُهُ بأشخاص، لا ينسجم معهم، ولا يشعر بتقاطعاتٍ، بل يشعر أنّ الخلافات تكمن تحت الجِلْد، ما إنْ يبدأ أيّ كلام حتّى يُمهِّدَ لعنف لفظيّ أو شجار.

حين يقول حسام لشريكه القادم من بلد، لم يسمعْ به من قبلُ، وكذلك شريكه لم يسمعْ باسم سورية من قبلُ: ممكن تخفض صوت الموسيقا؟ سيثور الآخر، ويقول: هذا المكان للجميع، لا يحقّ لكَ فرض رغبتِكَ، أنا أفعل ما أريد!

سيغادر حسام بحثاً عن آخرين، يشاركهم اللّغةَ والهمومَ، فيذهب إلى غرفة الدكتور عمّار، حيث جاء مع عائلته، وحين يقيمُ في الغرفة مع أفراد عائلته الأربعة، هو وولداه وزوجته، ويُحقّقون بعض الاستقلاليّة، إذ لا يوجد بينهم أغراب.

جزيرةُ الكنزِ والقراصنةُ

الغرفُ تعجّ باللاجئين.

الغرفة مخصّصة لستّة أشخاص، وبعضها لأربعة.

في الغرفة الواحدة تجتمع عدّة جنسيّات وطوائف ومذاهب.

كأنّني في سورية، تُدهشني التّصرّفات البدائيّة، كأنّنا في قرى نائية في بلادنا المُتخلّفة التي لا يمكننا مقارنتها بالسويد. اللاجئون يحيون هنا، كما لو أنّهم في بلادهم، وكأنّنا لم نطأ أرض السويد بعد. ها هم يُضرمون النار في الخارج، ويجلسون في الطريق أمام الكامب.

ضجيجٌ وصراخٌ وشجاراتٌ، تماماً كأنّنا في حارة شعبيّة في مدينة عربيّة.

كأنّنا في جزيرة خاصّة، كجزيرة القراصنة التي كنتُ أراها في مسلسلات الأطفال، أو جزيرة الكنز التي يذهبُ إليها القراصنة بسُفُن كبيرة، تُحلِّق في أعلى سواريها أعلامٌ خاصّة: أعلامُ القراصنة.

هذا ما جاء بأغلبنا إلى هنا، حلمنا بالجزيرة الأسطوريّة التي ستَهبُنا الأمانَ، وتعرّضنا نحن السوريين على الأخصّ لنَهْب قراصنة البحر، أولئك المهرّبين الذين وجدوا في الكارثة السوريّة فرصة للارتزاق.

الحياة مُملّةٌ في هذه الجزيرة الباردة. أُمضي معظم وقتي على الإنترنت. هناك شبكةُ إنترنت مُتاحة للاجئين، لكنّها ضعيفة، أضطرّ لشراء الوحدات من المبلغ الذي تدفعه لي دائرة اللجوء. أتّصل بأهلي وأصدقائي، وأفتح

الفيسبوك والصفحات السوريّة، لأعرف ماذا يحدث هناك. هكذا أمضي وقتي، كي لا أفقدَ عقلي.

ليس لديّ علاقات هنا.

كانت السويد في مخيّلتي هي ذلك البلد الأوربيّ المتحضّر الذي سيُتيح لي اللقاء بأشخاص مميّزين، كما نسمع عن الغرب.

حين التقيتُ مثلاً بأحد الصحافيين في مدينة الريحانيّة، كنتُ مذهولاً أمامه، وكأنّه من عالم آخر.

نحن ننظر إلى الغربيين الذين ندعوهم في بلادنا بالأجانب على أنّهم مختلفون عنّا، كأنّهم كائناتٌ أخرى. المضحك أنّني اليوم أُدعَى أجنبيّاً في هذه البلاد، ولكنّ الأجنبيّ هنا هو تقويم أدنى من المواطن، بينما كان تقويم الأجنبيّ في بلادنا هو ترتيب أعلى منّا.

نحن مَحكومون بالترتيب الأدنى، سواء كنّا في بلادنا، أو في بلاد الآخرين.

نعم، كنتُ أُعِدُ نفسي بحياة مختلفة، ببشر مختلفين، بأولئك السويديين العاقلين، المثقّفين، المتعلّمين، المتطوّرين كثيراً بالنسبة لنا، لكنّ كلّ تصوّراتي وتطلّعاتي سَقَطَت في الكامب. نحن هنا نلتقي بالأسوأ، والسويديون نجومٌ تسطعُ في سماوات بعيدة.

صحيحٌ أنّني لم أتابع تعليمي، لكنّني شخصٌ مُتطلّعٌ صوب الأمام، وأحلم بالتّقدّم والتّغيّر. نعم، أريد أنْ أصبح شخصاً أفضل، أريد أنْ أتعلّم، أريد أنْ أعمل، أريد أنْ أعيش مثل الكائنات المتحضّرة، أريد أنْ أنتمي إلى حضارة جديدة، أريد أنْ أصبح شخصاً أفضل في السويد.

لكنّ هنا، كلّ شيء ثابت ومُملّ.

يتواجد معي في الكامب أشخاص من عدّة مستويات ثقافيّة واجتماعيّة، وبعضهم لم تكن لديه مواقف سياسيّة ضدّ النظام، وثمّة مَنْ لم يكن في سورية، لكنّه انتهز فرصة اللجوء، ليأتي ويعيش في أوربا. هناك أشخاص أشعر بخَطَرهم عليّ، ولا أريد أنْ أقول بخطرهم على أوربا. أشخاصٌ ليست السويدُ المكانَ المناسبَ لهم: مُتشدّدون دينيّاً - طائفيّون - عِرْقيّون - هناك أيضاً صدامات وتناقضات بين اللاجئين، مثلاً ثمّة لاجئون إيرانيون، لا يتقبّل السوريون وجودهم بينهم، لكنّني أتفاهم معهم، وهما أمير وبوريا.

كما أنّ هناك بعض السوريين الذين أتفاهم معهم في هذه الغربة، كالدكتور عمّار شاميّة، وهو طبيب أسنان، وابنه المهندس مُضر، ومرهف الصيدلانيّ. عدا هؤلاء يصعبُ عليّ التقارب مع الآخرين القادمين بأحلام تطبيق الشريعة الإسلاميّة. لقد حَصَلَ الكثير من الخلافات بيننا، وأحدهم استدعى الشرطة، حيث قال لهم على الهاتف: هناك أمرٌ خطيرٌ، يجب أنْ تأتوا! وحين وَصَلَت الشرطة، أخرج جميع فوارغ الفودكا التي كنتُ أحتفظ بها، وقال لهم: انظروا، كلّ هذه الزجاجات له، إنّه يشرب الكحول! وكأنّه أمسك بي بجرم كبير، فراحوا يضحكون، وسألوه: ألهذا اتّصلتَ بنا؟ قال لهم: هذه جريمة، الخمر جريمة يُعاقب عليها الدِّيْن. المسكين يتصرّف وكأنّه في حيّ قديم في حلب، حيث قد يشرب الناسُ الكحولَ، ولكنْ، في السّرّ، ويعدُّون أنّ السّكّير شخص ذو سمعة سيّئة. مع هؤلاء الناس، كان عليّ السَّكَن والإقامة والتناحر اليوميّ للدفاع عن تفاصيل حُرّيّتي الصغيرة، حيث لم يتدخّل بي يوماً أحدٌ من أهلي أو معارفي، للاحتجاج على تدخيني، أو رغبتي في احتساء الكحول. طبعاً أنا لستُ مُدمناً، ربمّا تخطر في بالي زجاجة بيرة يوماً في الشهر، أو حتّى في السنة، لكنّ ظروفي النَّفْسيّة السّيّئة كانت تجعلني ألجأ إلى الشرب للتخفيف من توتّري قليلاً.

قلعةُ بيتي

هدأ القصفُ اليوم.

لن أقلقَ على البيت، فقد سَقَطَ، وانتهى الأمر.

بصراحتي التي تعرفينها، لم أتخيّل أبداً أنّ البيت سيسقط، كنتُ أعدّه قلعةً مُحصَّنة، وكنتُ أبالغ في إيواء الآخرين، ولا سيما الغرباء، مؤمنةٌ بأنّ اللهَ سيحمي بيتي، لأنّه ملجأٌ للهاربين من الموت.

لا أنسى ذلك اليوم.

حسام فَضَحَني، لقد أخبركِ بهذا، نعم، لقد بلتُ في ملابسي من الخوف.

كنتُ في الغرفة الكبيرة، حين سمعتُ صوت الباب الحديد انفتح بقوّة الضغط، كان القصف عنيفاً. نهضتُ بساقَيّ المرتجفَتَيْن، لأفتحَ النافذة المُطلّة على أرض الدار، وكأنّني في كابوس، لم أصحَ منه حتّى الآن، أذهلَني المشهد: كلّ الحارة دخلت البيت!

كأنّني في عرس أو جنازة، وجدتُ الكثيرَ من الناس، أعرف منهم، وأجهل الكثير منهم، يجتمعون في ساحة البيت، حيث انفتح الباب، وهُرع الناس الذين كانوا في الشارع يختبئون في بيتي.

كان الزجاج يملأ الأرض أيضاً.

حين صحونا جميعاً من الصدمة، واكتشفنا أنّنا أحياء، غادر الغرباء ناجين وسعداء بنجاتهم، ليُكمل كلٌّ منهم ما كان يقوم به قبل سقوط الصاروخ.

ورأينا الزجاجَ المحطَّمَ على الأرض، سَقَطَ زجاج النافذة المُطلّة على الشارع، وبكيتُ فجأة، وأنا أقول: يا الله، أنا امرأة مريضة، كيف أكنسُ هذا الزجاجَ كلَّه؟!

سمعتُ صوت زينب تقول: أمّ ماهر، لا تاكلي هَمّ، أنا بكنّس البلّور.

نعم، زينب، يا مها، تظنّين أنّنا مختلفات؟! هذا هراء، نحن في الحارة أكبر من القصص التي تسمعونها، لا شيء يُفرّقنا.

صرنا نضحك ونحن نلمُّ الزجاج، حيث رحتُ أجلب لزينب سطل الزبالة، لتضعَ فيه الزجاج المحطَّم، ثمّ قالتْ لي مازحة:

- مابدِّك تْشَرْبِيْنِي قهوة؟

اتّصلتِ بي في ذلك اليوم، تذكرين؟

لم تكوني تعرفين هذا، لم أفكّرْ في شرح الأمر، لم أكنْ أعرف كيف أشرحه، عرفتُ ذلك لاحقاً، حين حدّثتْكِ سُها، نعم، سمّاعة الهاتف مُعطّلة، أنا لا أرفع السمّاعة حين يأتيني اتّصال، بل أفتح زرّ السبيكر، أجل، كان صوتكِ مسموعاً، وكان الجيران يعرفون كلَّ ما نقوله في الهاتف.

لم أكنْ أعرف أنّكِ تُحبّين التّحدّث إلى زينب، كأنّكِ أحسستِ، يا مها، كأنّكِ كنتِ تُودّعينها ..

آخ، ما هذا؟ لحظة، أين وقعت القذيفة؟ نعم، نحن متْنا، وما نزال

نخاف من سقوط القذائف فوقنا، نخاف أنْ تطيرَ جثثنا في الهواء، وأنْ نفقدَ حتّى قبورنا ومراقدنا الأخيرة.

سأتوقّف الآن، القذائف تنهمر كالمطر، ذكِّريني أنْ أحدِّثَكِ عن رأي جاراتي بكِ.

قطع: قذيفة هاون تسقط قرب المقبرة

قائدُ دبّابةٍ في الجيشِ

لم يتابعْ حسام تعليمَهُ، تَرَكَ الدراسةَ منذ الصّفّ التاسع. واشتغل في معمل مفروشات لستّة أشهر تقريباً. ثمّ ترك، ولم يجد عملاً في حلب، فغادر إلى بيروت، وعمل لمدّة شهر في محلّ مفروشات، ولكنّه لم يتأقلمْ في العمل هناك، فعاد إلى حلب، حيث اقترح عليه أبي أنْ يعمل في طلاء الجدران، مع صاحبه أبي فائق، كما ندعوه. وظلّ يعمل هناك، حتّى التحق بالخدمة العسكريّة الإلزاميّة.

منذ عام ٢٠٠٤ حتّى ٢٠٠٧، كان حسام عالقاً في الجيش الإلزامي، إلى أنْ تمّ تسريحه. حيث التحق بداية بمحافظة درعا، ليتمّ فرزه سائق دبّابة، ويقول لي: إنّ مكانه كان صعباً، ولم يكن يحظى بالإجازات، حيث سُمِحَ له بزيارة أهله خمس مرّات فقط خلال عامَيْن وأربعة أشهر. كان يعرف قيادة السّيّارة، كان يقود سيّارات أصحابه، لكنّه لم يكن حاصلاً على رخصة القيادة. إلا أنّه خَضَعَ في الجيش لدورات تدريبيّة مكثّفة في ميكانيك الدبّابات وقيادتها، لمدّة ثمانية أشهر تقريباً، إلى أنْ أتقن قيادة الدبّابة، وحَصَلَ على شهادة من قيادة المركبات في الجيش، تُتيح له القيادة، وتمّ تسليمه الدبّابة التي سيقودها.

حين عاد من الجيش، وجد نفسَهُ عاطلاً عن العمل وقتاً طويلاً. كان يكره العمل في الطلاء (الدهان)، ويتحسّس من رائحته.

قرّر أنْ يتقدّم لامتحان قيادة السّيّارات، وحَصَلَ على الرخصة، على أمل العمل كسائق في مكان ما، خاصّ أو حكوميّ.

حاول العمل في عدّة أعمال صغيرة متتالية، في الطلاء، وفي الحراسة، كما حَصَلَ على عقد مؤقّت لمدّة سنة في مؤسّسة الإصلاح الزراعيّ التابعة لمديريّة الزراعة في حلب.

اشتغل أخيراً سائق تاكسي، إلى أنْ قامت الحرب.

كان العمل في أثناء الحرب صعباً، بسبب كثرة الحواجز العسكريّة، ومخاطر القنّاصة المتواجدين في عدّة أنحاء من المدينة، وانتشار الشّبّيحة الذين يركبون، ولا يدفعون الأجرة. أصبح العمل شبه مستحيل، فقرّر حسام تَرْكَ السواقة، والتحق بمحلّ صديقه الذي لديه سوبر ماركت صغير، يُسلّيه، ويمضي معه وقته، ويعاونُه في البيع، مقابل عطاء رمزيّ، يقدّمُه له: شاي، قهوة، سجائر، برغل، سكّر ..

السويدُ ليسَتْ جنّةً

أجل، أنا في السويد الآن، كما كنتُ من قبلُ أذكِّرُ نفسي كلّما بدأتُ نهاري: أنا في أثينا، أو أنا في استنبول، لكنّني في السويد، وهذا أمرٌ آخر، بل يبدو كأنّه أمرٌ أخير، أتطلّع حولي لأتأكّد: هل أنا حقّاً في السويد؟ هل هذا المكان الذي يشبه السجنَ المَنفيَّ عن العالم هو السويد؟

أُقنعُ نفسي مراراً: أنا في السويد، أجل هذه هي السويد، السويد التي لا تشبه السويد، لا تلك التي حدَّثوني عنها، ولا تلك التي تقعُ خارج هذه الأرض المعزولة، خارج مخيّم اللاجئين.

أنا مصدومٌ بالسويد، لا أُصدِّق البرودَ الذي أراه في وجوه موظّفي الهجرة وأنا أشرح لهم: سَقَطَ بيتُنا في حلب، وتحوَّل إلى أنقاض، أنا بحاجة لاستقدام أمّي، أنا آخر أولادها، وأريد إنقاذَها، لم يبقَ لها بيتٌ هناك ولا أحد، أتحدّث كثيراً، أكتب الإيميلات، أستفسر عن سبب تأخّر الرّدّ. لا بريدَ يأتيني، ولا إيميلات ..

أطلبُ موعداً لأضيفَ معلوماتٍ جديدةً على حكايتي، أغضبُ، أنهارُ من القلق على أمّي، أشرح لهم معاناة الانتظار، يهزّون رؤوسهم، ويردّون عليّ بلطف وحياد: نفهمُكَ، ولكنّنا لا نستطيع أنْ نفعل أيّ شيء، ملفّكَ لدى المسؤولة عنه، حين تنتهي منه، سيصلُكَ الرّدّ.

المالُ الذي أحصل عليه لا يكفيني، كما إنّني لا أطيق الانتظار جالساً

دون فعْل أيّ شيء، أُمضي وقتي على الإنترنت. كلّما فتحتُ الفيسبوك شعرتُ بالخراب، وأحسستُ بالرغبة في العودة. حتّى الموت هناك له طَعْمٌ آخر، موتٌ حيويٌّ، يحسّ بكَ الآخرُ حين تموت، يُشيّعونَكَ، يكتبون عنكَ، أريد أنْ أموتَ عند أمّي، كلّما فتحتُ الفيسبوك قرأتُ أخباراً جديدةً عن أصدقاء وأقارب ماتوا، أتفرّج على صور الحارة في صفحات الأصدقاء هناك، تحوّلتْ البيوت كلّها إلى أنقاض، يا إلهي، مَنْ بقي حيّاً في الحارة؟ مات نصف مَنْ أعرفهم، وهرب الآخرون، وتشتّتوا في أوربا وتركيا واليونان.

أحاول أنْ أعمل لأكسبَ بعض المال، ربّما أُرسلُ لأمّي مالاً، يساعدها. فأنا لا أحتمل الجلوس مكتوف اليَدَيْن. أتعرّف على يورغن، وهو رجل سويديّ مُسِنّ، يأتي إلى المخيّم، ويزور اللاجئين، ويتعاطف معهم. أشرح له حاجتي الماليّة والنَّفْسيّة إلى العمل، يعرف أنّني لا أملك حقّ العمل، إلى أنْ أحصل على الإقامة. يشعر الرجل بي، يقترح عليّ مرافقته في ورشات الدهان، حيث يُشرف على أعمال الإنشاءات. يمرُّ عليّ بسيّارته، ليصحبَني من الكامب، فأعمل لديه، ويعطيني بعضَ المال.

يخلق دخول يورغن إلى الكامب وفرصة مغادرتي معه بعضَ الحيويّة، ولكنّ العمل غير متاح دائماً، ولا سيما في البرد، تتوقّف ورشات الدهان، وأعود إلى جلسات الصمت والكآبة والتّفرّج على الموت عبر صفحات الإنترنت ونشرات الأخبار التي أشاهدُها عبر هاتفي المحمول.

رجلُ الثّلجِ

كنتُ أمزح معه: اذهبْ، وتسلَّ بالثلج. نحن هنا نحلُمُ بهذه اللعبة.

كنتُ مَهووسةً بصناعة التماثيل على الرمل، وكنتُ أحلُمُ بصناعة تماثيلي من الثلج، لهذا كنتُ أحسد حسام على كلّ ذلك الثلج حوله، لكنّه لم يكن يُقدِّر قيمة الثلج.

حين أشعرُ بالضيق، أخرجُ إلى البحر، أعبثُ بالرمل، وأستعيدُ طفولتي بصناعة بيوت وبشر على الشاطئ، وحين تأتي الأمواج وتخرب بيوتي وتمحو بشري، أشعر بالغضب.

أقول لحسام، على الأقلّ، رجال الثلج الذين تصنعُهم، يبقون وقتاً أطول من رجال الرمل. فيضحك متهكّماً عليّ، ويقول: حتّى الثلج يمحو رجالَ الثلج، حين ينهارُ بغزارة، فيدفن كائناته الثلجيّة، بل أنت لا تعرفين مخاطر الثلج هنا، لأنّكِ تتفرّجين عليه من خلف النافذة، كما تتفرّجين على سورية من خلف نشرات أخبار النظام التي تُزوِّر الحقيقة.

كنّا نختلف كثيراً، ولكنّنا نبقى مُتشبّثين بصداقتنا التي لم أتوصّل يوماً إلى معرفة أسرارها: سرّ قيامها وسرّ استمرارها وسرّ نجاحها، كان يشتم النظام في كلّ مناسبة، ودون مناسبة أيضاً، وكنتُ أضحك.

لا أفهم نفسي كثيراً، لماذا كنتُ مشدودة دائماً إلى حسام؟ هل حسُّ المغامرة في داخلي هو السبب؟ هل كان بمثابة لعبة جميلة، ألعبها على

الشاطئ، فأصنع تمثالي من الرمل، مدركةً أنّه سيذوي منذ أوّل موجة؟ هل كان الفراغ بداخلي هو السبب لألهو بحكاية غيري؟ هل كان حسام فعلاً بديلاً لحلم، لا يمكنني عَيْشه، كأنّني أطير بخيالي من اللاذقيّة إلى غوتنبورغ، وأصنع هناك رجل الثلج الذي أحلُم به، كبديل أقوى من رجل الرمل على شواطئ مدينتي هنا؟

لا أعرف، لكنّني أشعرُ، أحياناً، أنْ حسام في حياتي هو رجلُ الثلج.

لا ثلجَ في السويدِ

في الأوقات النادرة التي كانت تُثلِجُ في حلب، كنّا نحتفي بالثلج. لا فقط عبر التراشق بالكُرات التي نجمُّعها ونُكبِّرها من الثلج، ولا عبرَ صناعة رجل الثلج، بل كانت لأمّي طريقة احتفائيّة مختلفة، حيث تقطف ندفَ الثلج من الأماكن العالية التي لم تدسْها الأقدام، ولم تمسّها الأيادي، من أعلى أسوار الحيطان، أو أغصان الأشجار، فكأنّها تقطف ثماراً أو زهوراً، تضع ندفَ الثلج في صحن، وتضيف عليه الدّبس، عصير العنب ذاك المكثّف المغلي ذا اللون الغامق كالنبيذ، وتأتي بملعقة، لتلتهم الثلج بالدّبس. وكنّا نُقلِّدها، ونُقلِّد طبقَ الحلوى ذاك الذي نشتريه من السّمّان ياسين، حيث يَبشرُ قالبَ البوظ، ويضع البشارة في صحن، ويضيف عليها قطرات من العصير، هكذا كان الثلج مناسبة للفرح في حلب. حلب المدينة التي ضاعت منّا، وصارت بعيدة كأنّها شبح أو خيال، حيث مات الكثيرون ممّنْ نعرفهم، وسَقَطَت البيوت والمحال، وصارت المدينة بمثابة مقبرة، ترقد أمّي في إحدى حدائقها اليوم، بعد أنْ طال القصف بيتها، فَقَتَلَهَا كَمَداً.

لكنّني هنا في السويد، لا أرى الثلج، نعم، ثمّة الكثير من الثلج، ولكنْ، ليس للثلج هنا نكهة الفرح، بل هو ثلج حزين، يمكن وَصْفه بثلج العزلة. إنّها تُثلج كثيراً في هذا الصباح مثلاً، أقرأ في الإنترنت عن التحذير من عاصفة ثلجيّة قادمة، وضرورة البقاء في البيوت، ولكنْ، لا بيتَ لي في السويد، أعيش الآن في هذا القبو، حيث هربتُ من الكامب، هنا لا

نوافذَ ولا أبوابَ، أخرج في البرد، للتّنفّس قليلاً أمام البيت، حيث تصعب تهوية هذا المكان الذي أُقيمُ فيه بشكل غير شرعي، لا لأنّ إقامتي مخالفة للقانون، بل لأنّ مؤجّر القبو يخالف القانون.

هنا لا أشعر بالثلج، ولا أستمتع به، كما لو أنّه لا ثلج في السويد.

ثورةٌ في الحارةِ

جيرانُ الأزلِ

كانت حارتنا تُدعى (العمران)، وكانت في البداية حارة صغيرة، تلتصق بحيّ شارع النيل المُمتدّ من حَيَّي الموكامبو والشهباء.

نشأتْ كحارة تتوسّط المعامل الصناعيّة والأرض الخالية من البناء من طرف، والأحياء البورجوازيّة، الشهباء وشارع النيل وحيّ السبيل من طرف آخر.

أذكر أنّ باص شارع النيل كان يقطع شارع النيل الذي تتفرّع منه الطلعة الصاعدة صوب حيّ العمران التي تذهب في اتّجاهها الآخر صوب الشهباء، ومنه إلى الجامعة.

أغلب سكّان هذه الحارة من النازحين الجدد من الأرياف، ولا سيما من قرية قريبة تُدعى: الليرمون(*).

كان أهلي فقراء، حين نزح أبي من القرية، وجاء يعمل في مدينة حلب، بعد وفاة والده، وحمله لثِقَل العائلة الباقية: أمّه وأخته العازبة الوحيدة وأخيه الأصغر. مع أنّ أبي كان الصبيّ الأوسط، لكنّ عمّي الكبير كان متزوّجاً ومستقرّاً في القرية، وأظنّ أنّ جدّتي لم تكن ترغب في البقاء في القرية، لأسباب عديدة، منها أنّ بناتها كنّ يقمنَ في مدينة حلب، وعلى الأغلب، كانت تريد الاقتراب من بناتها.

انتقل أبي للعيش، إذنْ، في حيّ العمران. وكان مستأجراً غرفة واحدة في

---

*) حي في شمال غرب مدينة حلب.

البداية، حيث يقيم مع أمّي، وحيث كان يعمل في معمل الغزل والنسيج القريب من الحارة، حيث تنتشر المعامل.

كانت جدّتي تزوره من وقت لآخر، إلى أنْ صارتْ تشعر بالراحة في الحارة، وإلى أنْ عرفتُ بأنّ (حسن جيج) يعرض بيتَهُ للبيع، فباعت جدّتي ممتلكاتها في القرية، وجاءت تسكن في هذه الدار التي وُلِدَ فيها أغلب إخوتي، وحيث ذاكرتي عالقة هنا، حيث فتحتُ عينيّ على الحياة في هذه الحارة.

يتوسّط بيتنا الساحة الصغيرة المحاطة ببيوت الجيران، على يمين بيتنا، يقع بيت أمّ توفيق، حيث ناديا صديقتي في الطفولة والمدرسة، وحيث محمّد أخوها، سيكون أوّل أصدقائي في الحياة.

أمّا قبالة بيتنا، فتقع تلك الدار الكبيرة التي راحت تكبر بسرعة، ويتفرّع سكّانها، غير أنّني أعتقد أنّني سأكتب ذات يوم عن تلك العمارة، حيث أثّرتْ كثيراً على مراهقتي وصباي.

لن أتحدّث عن البيوت الأخرى التي سأخصّص لها كتاباً، أتوقّف فيه على الجارات والعلاقات التي أثْرَتْ مخيّلتي، سأتوقّف فقط على سَرْدٍ سريعٍ لأثر تلك العمارة الكبيرة: بيت أمّ حسين.

كان البيت يُدعى من قبل ببيت أمّ سعيد، حيث أمّ سعيد زينب هي الأمّ التي تسكن في الدار، برفقة وَلَدَيْها: سعيد ومحمود. أمّا البنات، فوجودهنّ ضئيلٌ، لأنّهنّ كبرنَ وتزوّجنَ، وأنا صغيرة، أو لم أُولَد بعد.

نشأتُ أنا مع بنات سعيد، وزوجته سعدى، أمّ حسين التي انتقلتْ لها الملكيّة الرمزيّة لتسمية الدار، بعد هَرَمِ حماتها، وصار جيلي يدعو العمارة حين يتحدّث عنها، ببيت أمّ حسين.

بنات أمّ حسين الثلاث: نادرة ورقيّة وزينب كنّ رفيقاتنا، أنا وأختي، منذ المدرسة، وحتّى نهاية المرحلة الابتدائيّة، حيث توقّفنَ هنّ عن التعليم، وتابعتُ أنا وأختي دراستنا.

أمّا محمود الذي كان صغيراً بالعمر، يكاد يكون من عمر أكبر أبناء أخيه، فقد تزوّج لاحقاً، وكانت زوجته مُقرَّبة منّا أيضاً. وأذكرها عروساً في أيّام زفافها الأولى.

أنجبت فكريّة، زوجة محمود، ثلاثة صبيان وبنتاً وحيدة. وما أزال أذكر مخاض فكريّة، بأصغر أولادها. حين كنتُ أنام على السطح، وكان الطقس حاراً، وراحت فكريّة تبكي وتتوسّل وهي في المخاض، وتكرّر: يا ربّ، أنا أموتُ، وكنتُ أرتجف في فراشي، وأنا خائفة، وقد صدّقتْ أنّها ستموتُ.

في تلك الليلة، أنجبتْ فكريّة آخر صبيانها، وسمّوه يُسر. مع أنّ ولادته كانت عسيرة.

وهكذا، كما كبرتُ أنا وأختي الأصغر منّي، وأخي الكبير، مع أولاد سعيد وسعدى، سيكبر أخوتي الأصغر، لؤيّ وعامر وحسام مع أولاد محمود.

أمّا سعدى، أمّ حسين، فستبقى بمثابة العرّابة، حتّى وإن كانت حماتُها الحاجة أمّ سعيد، هي الأكبر سنّاً، وإن كانت فكريّة الكنّة الأصغر والأجمل، لكنّ أمّ حسين كانت أمّ الجميع. وما أزال أذكر وأضحك، كيف كان أخي لؤيّ ينادي: أمّي، أمّي، فتردّ أمّ حسين عليه: نعم؟ مُتخيّلة أنّ ابنها هو مَنْ يناديها.

كانت إطلالة بيت أمّ حسين قبالة بيتنا تبدو وكأنّه مرصد للجميع. من النافذة الكبيرة، بحجم الشرفة الزجاجيّة، كانت تطلّ أمّ حسين في الصباح، وتُثرثر مع أمّي الجالسة على المصطبة، ثمّ تُغلقُ نافذتها، وتنزل لتجالسَ

أمّي، وتتجمّع الجارات بالتدريج، وكانت أمّي تستعين بهنّ، لتُحضّر الطعام، إذ يفرمنَ لها الخضار، ويحفرنَ الكوسا، ويعصرنَ البندورة ..

كانت أمّ حسين بمثابة الأخت الكبرى لأمّي، وكانت تطهو وتُرسل لنا دائماً طبقاً من طبخة اليوم، وحين كانت أمّي تقوم بأعمال التنظيف الكبيرة، أو تُهيّئ لوجبة صعبة التحضير، كالكبّة أو اليبرق، كانت بنات أمّ حسين يُهرعنَ لمساعدة أمّي، وكانت أمّي تعتمد عليهنّ، ولا سيما حين كنتُ أذهب إلى المدرسة، ولاحقاً إلى العمل والجامعة، بينما كنّ هنّ جالسات في البيت.

كانت عائلة أمّ حسين، بالنسبة لنا، بمثابة امتداد لعائلتنا، وصارت عائلة فكريّة لاحقاً امتداداً أيضاً لعائلتنا، وكما كبرتُ مع بنات أمّ حسين يكبر حسام مع أولاد فكريّة.

مع أنّ التّوجّهات الفكريّة والسياسيّة كانت متباعدة، لكنّ الألفة وحالة الدفء في الحارة بيننا كجيران، كانت أقوى من الخلافات، بل كنّا نضع خلافاتنا على جنب.

فأنا كفتاة متعلّمة، ولديّ طموحاتي، وأرغب في دراسة المسرح آنذاك، وقد بدأتُ بالتّدرّب على بعض المسرحيّات في أثناء دراستي الثانويّة، كانت بنات أمّ حسين، ولا سيما نادرة التي كانت من عمري، يضعنَ الحجاب، وينتظرنَ العريس.

لأنّني درستُ، وأكاد أكون البنت الأولى في الحارة، في عمري، تُتابع تعليمها العالي، كانت البنات يكنّ لي المودة والتقدير، وكنّ يطلبنَ منّي بعض الأشياء التي أقتنيها لهنّ من خارج الحارة، حيث أملكُ أكثر منهنّ حُرُيّة الخروج والعودة وحدي.

رغم أنّه لم يكنْ من السهل عليّ أنْ أتابعَ نشاطي الفنّيّ والكتابي لاحقاً، في ظلّ ممنوعات الحارة، ونظرتها التقليديّة للمرأة، لكنّ هذا المَنْعَ كان من طرف رجال الحارة، بينما عاملتْني النساء بمحبّة. لم تكن نادرة مثلاً تغار منّي، ولم تتأخّر يوماً عن مساعدة أمّي، حيث أذهب أنا إلى الجامعة، بل كنّ يُبعدنَني عن العمل حين أكون موجودةً، ويقلنَ لي: أنتِ ادرسي، أنت لا تفهمين في شغل البيت!

ومع أنّ توجّهات العائلة العرّابة كما يمكنني وَصْفها كانت تختلف سياسيّاً، كما قلت للتّوّ، عن توجّهاتنا، لكنّ ذلك لم يحلْ دون إقامة علاقة مودّة وجوار، تصل إلى درجة القرابة.

فأبي كان معروفاً في الوسط بيساريّته، وشيوعيّته إلى حدّ ما، وأنا في بداية صباي، كنتُ قريبةً من أجواء الحزب الشيوعيّ، حيث كان أصدقاء أبي جميعهم، وأعني بكلمة جميعهم هذا من الشيوعيين، وكانت بنات أصدقائه المقرّبين أيضاً شيوعيّات.

أمّا سعيد ومحمود، فكانت ميولُهُما دينيّةً. وانتسب محمود لاحقاً لحزب التحرير المعارض للنظام. ربّما كانت نقطةً للقاءٍ بيننا، أي بين أبي وبين الأخوَيْن أبناء الحاجّة زينب، معارضة الجميع للنظام: معارضة سرّيّة مُتّفق عليها بصمت.

حتّى إنّ جدّتي، والدة أبي، والصديقة المُقرّبة من الحاجّة زينب، والدة سعيد ومحمود، كانت تدعو لأبي بالصلاح، وتنصحني بلطف نادر بين المُتديّنين، بعدم اتّباع طريق أبي الملحد.

كون أبي يساريّاً، وكوننا أكراداً، لم يؤثّر على الودّ بيننا، إذنْ. وكانت أمّي، على الأخصّ، متماهيةً مع الجارات، ومُنتميةً لهنّ، كأنّهنّ أخواتها، وتنظر إلى رجال الحارة، ولا سيما سعيد ومحمود، وكأنّهما أخواها.

حين احترقَ بيتُنا، وهذه حادثة مُسجّلة في ذاكرة أمّي طويلاً، كان أبي في القرية. حين كانت أمّي جالسةً في غرفة المعيشة في الطابق الأرضي، وكنتُ أنام في غرفتي التي كانت من قبل غرفة جدّتي، قبل أنْ تموتَ. سمعنا صراخَ نادرة من نافذة بيتِهِم، تنادي أمّي: أمّ ماهر، هناك دخان يخرجُ من غرفة الضيوف!

قفزتْ على صوتها، وركضتْ أمّي، لنرى النار تلتهمُ الأريكةَ والخزانةَ، صرختْ أمّي: الحقونا، بيتي يحترق.

أنا تجمّدتُ مكاني، ولم أعرفْ ماذا أفعل، حين قفز محمود بقميصه الداخلي والبيجامة، وجاء حافياً، لم ينزلْ من الدرج، حتّى لا يلفَّ من الطرف الآخر، ويُضيِّع الوقت، بل قَفَزَ من الشرفة، ورَكَضَ إلى بيتنا، فَصَعَقَهُ التّيّار الكهربائيّ، حيث كان المَسُّ الكهربائيّ سببَ الحريق. سحب محمود فيشَ الكهرباء الرئيس، وكنتُ أقف مذهولةً، أتفرّج على نادرة وفطّوم وبنات الجيران يملأنَ قواديسَ الماء، لإطفاء الحريق.

أطفأ محمود الحريقَ، بمساعدة أولاد أخيه وبناته.

حين عاد أبي من القرية، صُدم بالجدران المُتفحِّمة، وكاد يموت من الرعب، حين تصوّر أنّ النار في الغرفة المجاورة كان يمكنها أنْ تلحقَ بغرفتي وأنا نائمة، وأمّي في الطابق الأسفل، لا تشعر بما يحدث فوق، لولا صراخ نادرة.

فهمتُ آنذاك رَفْضَ أبي لطَلَبي المُتكرّر لمغادرة الحارة: نحن أغرابٌ هنا، نحن أكراد، وثقافتنا مختلفة، انظر بنات أصدقائِك الشيوعيين، نحن نعيش كالمسلمين المُتديّنين، هؤلاء الريفيون لا يُشبهوننا، نحن من الريف الكرديّ، وعاداتنا مختلفة.

كنتُ أتذمّر من الحارة، كفتاة مُتطلّعة إلى المسرح والجامعة والكتابة، وأعاني من القَمْع الجَمْعي الذُّكُوريّ ضدِّي، ومن تدخُّل جميع الجيران بشؤوني، إذ كان محمود مثلاً أحد الحريصين على حجابي، وكان يزجرني كلّما رآني دون حجاب.

قال أبي يومذاك: حين أخرج من الحارة، لا أشعر بالقلق عليكنّ، زوجتي وبناتي، فأنا أعرف أنّ هناك جيراناً يُضحّون بأنفسهم لحمايتكم.

أجل، كنّا مختلفين ثقافيّاً وسياسيّاً، ولكنّهم كانوا أهلاً لنا، مع التناقضات التي تحملها علاقة الأهل، من حيث الرعاية والوصاية في الوقت نفسه.

تركتُ الحارة قبل حسام بكثير. حين تزوّجتُ كان حسام في العاشرة من عمره. وحين غادرتُ سورية، كان قد التحق بالجيش، لذلك كبر حسام وصبيان الحارة بعيداً عنّي.

ورغم أنّني نجوتُ من تقاليد الحارة ومصير بناتها، فتابعتُ تعليمي، وبدأتُ الكتابة والنشر. لكنّ حسام توقّف عن الدراسة باكراً، وتماهى تماماً في جوّ الحارة، وانتمى لها، وتحقّقتْ شخصيّتُهُ فيها. حسام هو أصغرُنا في العائلة، وهو لم يُكمِلْ تعليمَهُ، حيث تكاد عائلتي تنقسم إلى جيلَيْن: جيلِنا نحن الأخوة الثلاثة الكبار، حيث تابعْنا تعليمَنا، واشتغلْنا في مِهَنٍ ذهنيّة، إذ درسْنا أنا وأختي الوسطى في كُلّيّة الحقوق، وكنتُ أكتب القصّة والرواية، وكانت أختي تكتب الشِّعْر، بينما أخونا الأكبر، الأكبر بين الذُّكُور، والذي يَليني بتسلسل الولادة، درس في المعهد الصناعيّ، وكان يرسم ويتابع دورات الرَّسْم والنحت في المعاهد الفنّيّة. أمّا الجيل الثاني الذي بدأ منذ أخي الرابع، حيث ترك المدرسة باكراً، ولحق به أخواي وأختنا

الصغرى. حسام، إذنْ، ترك المدرسة، لكنّه امتلك أحلاماً، كسرتْها الظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة. ربّما يعود سبب مغادرتي لبيت أهلي، وانعدام المُحفِّز لمتابعة الدراسة ووجود شخص يُتابع الأخوة الأصغر، لضياع فرصة متابعة التّعلّم لدى حسام الذي دَفَعَ فاتورةَ فَشَلِ أخوَيْه الأكبر منه في الدراسة، وابتعاده عن حلقتنا، نحن الجيل الأوّل الذين انشغلْنا في تحقيق مشاريعنا الفَرْديّة. لهذا انتمى حسام وحدَه إلى الحارة، وصار ابنَها، وصار أولادُ الحارة إخوتَهُ.

كبر حسام مع أولاد محمود الثلاثة: حسّان وسعيد ويُسر. وصار واحداً منهم، وصار ابنَ الحارة بجدارة.

جسّ نبضٍ

لم أكنْ أعرف مواقف أهل حارتي بدقّة من النظام، وممّا يجري. كان الحديث عبر الهاتف بهذه الأمور مستحيلاً، وكانت أمّي دائماً تُحدِّثني بالكرديّة، كلّما سألتُها عن تفصيل بسيط، لما يحصل في الحارة. وكنتُ أعرف أنّه ليس عليّ التّحدّث بالهاتف في أمور، تخصّ الوضع.

في هذه الأثناء، كانت اختيارات إخوتي تتمّ بعيداً عنّي. ربّما هم، أيضاً، كانوا ينتظرون معرفة موقفي ممّا يحدث.

التقطتُ اسم أحدهم على الفيسبوك، يحمل اسماً مستعاراً (أبو عبدو الخالديّة)، فَكَتَبْتُ له. وكانت تلك خطواتي الأولى صوب الحارة، عبر الفيسبوك، لأتفاجأ بالمسافة الزمانيّة والتغيير الذي وَقَعَ في غيابي لأطفال الحارة.

حدّثني أبو عبدو الذي نسيتُ اسمَهُ الحقيقيّ، وحين رجعتُ إلى أرشيفي في الفيسبوك لم أجدْه. حدَّثَني عن بيوت الحارة بيتاً بيتاً. ووَصَفَ لي أين يسكن، في ذلك الزقاق المُتفرّع من بيت أبي المجد كرديّة، صوب الصيدليّة، الزقاق الذي كانت تسكن فيه منذ سنوات طويلة عائلة صديقتي بسمة التي انتقلت من الحارة منذ أكثر من عشرين عاماً.

كلّما ذكر لي أبو عبدو اسمَ أحد الناشطين من الحارة، صرختُ وأنا أكتبُ مندهشة: يا إلهي! هذا كان يلعب في الحارة، يا إلهي! هذا كنتُ أصرخ عليه، لأنّه يلعب الكرةَ وقت قيلولتي، إلى أنْ جاء ذِكْر يُسر عثمان،

فقلتُ له: أبوس روحه، هذا حبيبي. فقال لي الرجل مازحاً: إذا سمعَكَ يُسر تقولين هذا، يُطلِقُ عليكِ النار، يُسر، الآن، قائد كتيبة!

كنتُ أتحرّق شوقاً لمعرفة المزيد من القصص عن أولاد حارتي، عن إخوتي، وكنتُ ألملم الحكاياتِ من الفيسبوك، إلى أنْ قرّرتُ النزولَ إلى تركيا، والالتقاءَ بالناشطين القادمين من حلب، وكان مشروعي الأساسي: كتابة الجزء الثاني من طبول الحُبّ، الجزء العسكريّ.

لم أتخيّل وأنا ألتقي بالناشطين الذين أعرفهم من قبل الثورة، حيث أغلبهم كان قد قرأ لي، أو اشتغل في مجال الكتابة، وربطتْنا علاقةً ما بسبب الكتابة، إنّني وأنا أُنقِّب عن شخوصي، للكتابة عنهم، سأقعُ دون قَصْد على أبعد مَنْ يكون في ذهني، لأكتب عنه، فكأنّه جاء ليلتقي بي، ويحكي لي، تأخّر لقاؤنا، بسبب انشغالي بقصص أخرى، سيردُ ذِكْرها لاحقاً، لكنّني حين التقيتُ حسام، لم يكن أبداً بقَصْد الكتابة، بل، فقط، لأنّه أخي الذي لم أرَهُ منذ أكثر من عشر سنوات، التقينا كإخوة، وراح يحكي لي. كان حسام يعرفني أكثر ممّا أعرفه، وفاجأني أنّهم كانوا يعرفونني في أوساطهم الثوريّة، وأنّ الحاجّ محمود نفسَهُ المتعصّب من وجهة نَظَري، والعضو في حزب التحرير الإسلاميّ، كان يُقدِّم حسام للآخرين، مُنوِّهاً بأنّ أختَهُ كاتبةٌ، ومعنا!

لم يخطرْ لحسام، أيضاً، أنّني سأكتب هذا الكتاب. لم يفكّرْ أحدُنا بهذا، حتّى راح نموذج رجل الثلج يفرض عليّ نفسَهُ، ويظهر في كلّ مرّة مرتدياً وجهَ أحد الأصدقاء الذين التقيتُ بهم في غازي عنتاب، فراح هذا الكتاب يفرضُ نفسَهُ عليّ، ويزيحُ مشاريع كتاباتي الأخرى، مع أنّه استغرق معي أكثر من ثلاث سنوات، وأنا أحاول مقاومةَ الاشتغال عليه، لخوفي من مطبّ المباشرة، وهذا ما سأتحدّث عنه في آخر الكتاب، حيث عليّ، الآن، العودة إلى الحارة، كما حكى لي حسام.

ثورةٌ في الحارةِ

حُسبت حارُتنا على النظام. بل يكاد يكون أغلب أهاليها من المتعاطفين مع النظام، أو الموالين له. ربمّا تكون عائلة سعيد (سعيد وأولاده ومحمود وأولاده) وحسام من بيتنا (وهو الذَّكَرُ الوحيدُ الباقي في الحارة) وعبد الكريم كرديّة (أبو المجد) الذي كان معتقلاً من قبل بسبب انتمائه لحزب العمل الشيوعيّ، وابن عمّه فيصل الذي كان أيضاً معتقلاً سابقاً، بسبب نشاطِهِ السياسي، هم الوحيدون المعارضون بطريقة واضحة. إضافة لبيت المراوي الذين فَقَدُوا ابنَهم الذي مات تحت التعذيب، أمّا باقي الجيران، فكانوا ينقسمون بين موالين صامتين، أو موالين يقومون بالتشبيح، مثلاً كان محمود الياقدي يرتدي البدلة العسكريّة، ويحمل البارودة أمام أعين أهل الحارة، كنوع من التّحدّي.

بدأت الثورة في الخارج، في درعا أوّلاً، وكان أهل الحارة يشاهدون نشراتِ الأخبار. وقد تأخّرتْ حلب عن الانخراط في الثورة. في هذه الأثناء، وقبل الظهور العَلَنيّ والخروج في تظاهرات ضدّ النظام، كان الحراك السّرّيّ يدور في بيوت الحارة. وكان حسام متواجداً في دائرتَيْن متناقضَتَيْن، وسبق أنْ شرحتُ كيف تتعدّد المواقف السياسيّة في الحارة، دون نزاع بين أطرافها، بسبب الاشتراك في معارضة النظام.

بدأ حسام يدخل الجوّ السياسيّ المعارض عبر شخصيَّتَيْن متناقضَتَيْن: محمود سعيد الذي يعدّه حسام عرّاباً له، والد الصبيان الثلاثة، حسّان وسعيد ويُسر، وعبد الكريم كرديّة.

كان يُسر الصديق الأقرب لحسام في الحارة، ومع فارق السّنّ بين حسام ويُسر، حيث سعيد، الأخ الأكبر ليُسر، هو من عمر حسام، لكنّ كيمياء الصداقة تولّدت بين حسام ويُسر. يحدّثني حسام، إذنْ، قائلاً: (كنتُ ومجموعة من الشباب في الحارة متحمّسين للثورة، ومندفعين للانخراط في صفوفها. كان أبو حسّان يجتمع بنا، ويعِظُنا. وكان يشرح لنا ما يحدث. صرتُ أشعر بمفهوم الظُّلم. وأحسستُ بصوت المظلومين الذين كانوا يتظاهرون، حيث لم تكن المظاهرات قد بدأت بعدُ في حلب. آمنتُ بفكرة الحقّ، وبالعدالة، وتابعْنا لقاءاتِنا في بيت أبي حسّان، ولم تكنْ لدينا أيّة اهتمامات دينيّة، بل فَصَلْنا الدِّين منذ البداية، عمّا يحدث، وقال لنا أبو حسّان: (لا ترفعوا شعاراتٍ إسلاميّة، الوضع حسّاس، كونوا من جميع الأطياف، مسيحيين، كرد، عرب، مسلمين، وحتّى عَلَوِيين ..).

بدايةُ المظاهراتِ كَسرُ جدارِ الخوفِ

بدأ الأمر بما يشبهُ اللعب. كانت كلمة السّرّ للخروج في المظاهرة هي: سنلعب اليوم، أو ذاهبون للعب. كانت فكريّة أمّ يُسر تنادي حسام، وتسأله: ألن تذهب للّعب اليوم؟

كانت فكريّة تعامل حسام وكأنّه ابنها الرابع، وكانت أمّي تجهل كلّ ما يقوم به حسام ورفاقه، ولم تتخيّل أنّ ابنها يُهيّئ نفسَه مع أصحابه للثورة ضدّ النظام.

ستكون بداية الخروج في المظاهرات بمثابة المَنفذ الأوّل صوب الضوء، والخروج من نفق الخوف. هنا سيبدأ الشباب بتذوّق نكهة الحُرّيّة.

يحدِّثني حسام عن الفرح في هذه المرحلة التي أعدّها بمثابة اكتشاف الذات داخل الجماعة.

فكرة المشاركة في عمل جماعيّ، يحمل قِيَماً عالية، تُفرز هرمونات خاصّة لدى الفرد. يحسُّ بقيمته، وقيمة ما يقوم به، ومن هنا تبدأ فكرة التّجمّعات الكبرى، في السياسة أو المجتمع أو الأدب. من هنا تنشأ الرغبة في الانضواء مع الآخرين المتشابهين تحت راية ذهنيّة، تُحقِّق ما يشبهُ الحماية داخل الجماعة، وتُولِّد متعةً كبيرة، تختلفُ عن متعةِ الأداء الفرديّ. لهذا برأيي تنشأ فكرة الأحزاب، أو مؤسّسات المجتمع المَدَني، أو الحركات والتّجمّعات الأدبيّة، حيث يحمل الفرد قيمة الجماعة، وحيث

تدافع الجماعة عن الفرد: عقدٌ اجتماعيٌّ مُتقدّمٌ عن فكرة المواطنة الفاشلة في أغلب الدول العربيّة.

بدأ الشباب بالخروج في التظاهرات رغم الخوف. يبدو الأمر متناقضاً، ففي الوقت الذي تمنح فيه النشاطات الجماعيّة بعضَ الأمان والثقة، يبدأ الخوفُ بالتهام الفرد، حين ينفصل عن الجماعة الحامية، ويتفرّق عن أصحابه، كي لا يلفتوا النَّظَر.

كانت المظاهرات بمثابة الأعراس: ازدحام، ضجيج، مفاجآت، أكشنْ، كما يقال في السينما. لعب كبير، كما يلعب القطّ مع الفأر، يلعب المتظاهرون ضدّ النظام، في كَرٍّ وفَرٍّ.

ستكون هذه المرحلة مليئة بالإثارة، وبلذّة الانتصار على الخصم، كلّما خَرَجَتْ مظاهرة، وعاد المتظاهرون منها أحياء، لم تطلْهم رصاصات النظام، ولم يعتقلْهم.

هرمون الجماعة يُفرز انتصاراتٍ، تشترط التواجدَ داخل الجماعة ذاتها، يُضخّم التّفوّق، ويُقلّل من الخسارة والخوف، ويمنح بعض التّهوّر.

يقول حسام:

(كانت أيّاماً حلوة، مليئة بالحيويّة والحراك والمشاغبات. كنتُ أشعر بالإثارة والحماسة، وكأنّنا أبطال. صرتُ أشعر بقيمتي الإنسانيّة، وأنّني أفعل شيئاً ذا قيمة. كنتُ سعيداً بكتابة الشعارات الثوريّة على الحيطان:

ما منركع إلا لله

ما لنا خايفين

بدنا المعتقلين

صرنا نخرج في المظاهرات في كلّ يوم تقريباً، وأقوم بتوزيع منشورات ثوريّة، تحضّ على التظاهر وكَسْر حاجز الخوف. كما شاركتُ بالاعتصام أمام فرع الأمن الجنائيّ إثر اعتقال الأمن لطالبات الجامعة.

في بداية التظاهرات، كنتُ أخرج في زيّ خاصّ بالتظاهر، جاكيت من الجلد البنّيّ وبنطال جينز أزرق، وألفّ رأسي ووجهي مُتلثّماً بكوفيّة حمراء (جمدانة)، لا تُظهر سوى عينَيّ. وما إنْ تنتهي المظاهرة، ويهرب المتظاهرون، ويتفرّقون، حتّى أُهرعَ إلى البيت، لأغيِّرَ ملابسي، وأعودَ سريعاً بملابسي اليوميّة التي أظهر بها في الحارة، لأتواجدَ في نقاط واضحة، تُثبتُ لاحقاً بأنّني وقت المظاهرة كنتُ متواجداً في الحارة. هكذا أحتال على الأمن الذين يُسرعون لاعتقال المتظاهرين).

يحدّثني عن الخوف، هذا الخوف الذي نصفه بكلمة واحدة، مثل الموت، بينما هو يحتلّ مساحةً كبيرةً من الزمان والمكان داخل الكائن المُصاب بهذا الشعور، أعني الخوف. الخوف الطويل، الخوف الذي يمنع أيّ شعور آخر من الظهور، الذي يشلّ العقل والتفكير، ويُسارع في دقّات القلب، كأنّ الموتَ قادمٌ في الطريق.

عن خوفه بعد التظاهرة يحدّثني، حيث تنقلب المعادلة، من فرحة التظاهر وبهجة التواجد في مكان جماعيّ، مع أشخاص، يحملون هدفاً واحداً، ويتّفقون على ترديد هتاف واحد، والشعور بالقوّة والإيجابيّة، ثمّ بعد التّفرّق، وحين تبرد الحناجر، ويرجع كلٌّ من المتظاهرين إلى مكانه وحيداً، تبدأ رعشات الخوف. يقول لي: أشعر بالخوف ساعات طويلة بعد انتهاء المظاهرة، يستقرّ الخوف وقتاً طويلاً، إلى أنْ أتأكّد من غياب خطر الاعتقال. كنتُ أتخيّل مشاهد اقتحام القوّات الأمنيّة لبيتِنا عشرات المرّات، وأنا مُختبئٌ ومرتعبٌ. كانوا يدخلون بطريقة، تُثير الذعر، يدخلون بأرتال مؤلّفة

من ثلاثين إلى أربعين عسكريّاً، يحملون أسلحتَهم، ويصرخون، ويُثيرون رعبَ الجميع. كنتُ أخاف على أمّي، من خوفها، ومن سوء معاملتِهم لها، وإهانتِها. وكنتُ أخاف على أختي الصغيرة والوحيدة الباقية في البيت، من إزعاجِها أو التّحرّش بها انتقاماً منّي.

يذكر لي حسام حادثةً، علقتْ في ذاكرته طويلاً عن الخوف الذي احتلّ روحَه، وراح يرتجف ساعات موقناً أنّهم سيعتقلُونه:

(حين استُشهد أحد شباب الحارة، اسمُهُ ثابت، قمْنا بتظاهرة لتشييعه رمزيّاً، إذ لم تصل جثّته، فقُتل في أثناء التعذيب. خَرَجَنا نهتف للشهيد. وجاء الأمن إلى الحارة بعد التظاهرة على الفور. أصدقائي ذهبوا إلى مقهى إنترنت، لتحميل شريط الفيديو على الإنترنت. وربّما كنّا مختَرَقين، أو ثمّة مَنْ وشى بنا من المتظاهرين الذين كانوا معنا، ولا أعرف كيف تأخّرتُ يومها عن مرافقة رفاقي لمقهى الإنترنت، ومساعدتهم في تحميل فيديو المظاهرة. المهمّ أنّ أمن الدولة اقتحمَ المقهى، كانوا أكثر من مئتَي عنصر أمن، مُدجّجين بالسلاح، واعتقلوا الجميع: يُسر، محمّد لطّوف (اسمُهُ الحركي أبو معتزّ، وقد انضمّ لاحقاً للفرقة ١٦ مع خالد الحيّاني، وكان قائد كتيبة)، حسام حمّاش (حاليّاً صار في تركيا).

كدتُ أموت من الخوف. تخيّلتُ لو أنّ أصحابي وشوا بي تحت التهديد، وأنا لن ألومَهم إنْ فعلُوا، إذ أعرفُ حجم التعذيب الذي يتعرّض له أحدُنا حين يقبضون عليه. هربتُ إلى بيت أخي في الحمدانيّة، دون أنْ يعرفَ أحدٌ من أهلي، ولا أخي بالتأكيد، أنّني ذَهَبْتُ أنام في بيته، فراراً من الاعتقال. أمضيتُ يومَيْن في بيت أخي، حتّى خَرَجَ أصدقائي من المعتقل، وتأكّدتُ منهم أنّ أحداً لم يأتِ بسيرتي، أو يذكر اسمي. قالوا: إنّهم سُئِلُوا عن شابّ يُدعى حسام، طويل وأسمر، لكنّهم أنكروني.

يتابع حسام سَرْدَه:

(كنّا نخرج في شهر رمضان، بعد الإفطار. خَرَجْتُ مرّة في رمضان ٢٠١٢، وفجأة وَصَلَ الأمن. رأيتُ سيّاراتهم تقترب، والمتظاهرون يركضون في الاتّجاهات كلّها، لم تكن المسافة بيني وبينهم كافية للهرب، كان أمامي أحد خيارَيْن، أنْ أركضَ، فيُهرعون خلفي، ويمسكون بي، أو أنْ أبقى مكاني، وأُسلِّم أمري لله. نزلُوا بطريقة وحشيّة من السّيّارات، ولا أعرف كيف حَصَلَ هذا، إذ بقيتُ واقفاً، أتفرّج عليهم بهدوء، ارتطموا بي، ولم يهتمّوا لأمري. كانوا يركضون خلف الراكضين دون أنْ ألفتَ نَظَرَهُم.

ومن المرّات التي أشعر بها ببعض الذنب، حين وبّختُ أحد شباب الحارة، واسمُهُ محمود كرديّة، هو أصغر منّي بقليل، قلتُ له: ألا تخجل من نفسِكَ، الأطفال يخرجون في المظاهرات وأنتَ جالسٌ في البيت؟ وتحمّس، ليخرجَ معنا. كانت التظاهرة قرب جامع الغفران، وكانت أوّل مرّة يخرج فيها محمود، فتدخّل الأمن أيضاً، وأطلق النار، فأُصيب محمود بساقِهِ. لم تدخل الرصاصة في ساقِهِ، لكنّها جرحتْه جرحاً، لا بأس به، وصارت ساقُهُ تنزفُ، فخاف من إظهار جرحِهِ، فيُكتَشَف أمر مشاركته في المظاهرة، سار على قَدَمِهِ الجريحة، ولجأ إلى بيت أقاربه، مُدّعياً أنّه دَعَسَ على زجاجة مكسورة، فجرحتْهُ، أسعفُوه، ولفَّ ساقَهُ بالشّاش والمُعقِّم، لامَني بعدَها: هل ترى ثمنَ النخوة؟ فقلتُ له: غيرنا يموتون، ماذا نفعل؟ نتركهم؟

وفي الفترة نفسها تقريباً، في آخر شهر رمضان، وفي ليلة العيد، جهَّزنا لمظاهرة ضخمة، ودَعَوْنا الناسَ للمشاركة، ولكنّ الأمن توزّع في الحارة، قرب نقطة التظاهر المُتّفق عليها، قرب جامع عمّار بن ياسر، وخاف الناسُ من الاقتراب، صار المتظاهرون يأتون من بعيد، وحين يرون الأمن، يتابعون

طريقهم بصمت، إلى أنْ يبتعدوا، وفجأة، وما إنْ ابتعد البعض عن الأمن، ومن باب التّحدّي، صاروا يهتفون. فطار صواب القوّات الأمنيّة، وراحوا يطلقون النار بطريقة عشوائيّة. أنا كنتُ نائماً، لأنّني سهرتُ حتّى الصباح أُوزّع المنشورات، وأُخطّط مع الأصدقاء، وأكتب على صفحة التنسيقيّة عبر الفيسبوك. وفجأة صحوتُ على صوت الرصاص، كان يوماً لا يُنسَى، الرصاصُ ينزل كالمطر، في الاتجاهات جميعها، على واجهات المحلات، على الجدران، رصاص من بواريد ورشّاشات ومسدّسات.

في مدرسة الطليعة، كان النازحون يختبئون، خَرَجَ شابٌ نازحٌ من سيف الدولة، يستطلعُ ما يحدث، وهو غريبٌ عن الحارة، ولا علاقةَ له بالتظاهر، ولا بالثورة، فأُصيبَ بطَلْق ناريٍّ، وقُتِلَ.

لم يعرف أحدٌ بموته، حتّى هدأ الرصاص، ورأيناه ممدّداً على وجهه على الأرض، وتحته بركةُ دمٍ كبيرة. الرصاصةُ اخترقتْ صدرَه، وخَرَجَتْ من ظهره. اعتقد الشباب بإمكانيّة إنقاذِه، ولم نتأكّدْ من موته بعد، هُرعت أمّه النازحة وأخوه الأكبر، ليجدوا الشّابّ غارقاً في دمائه، أمّه صارت تصرخ بصوت مرعب، وتطلب النجدة وهي تقول: نحن ما دَخَلْنَا بشي، نحن نازحون، قصفُوا بيوتنا في سيف الدولة، فجئْنا ننامُ هنا، أقرب مشفى إلينا هو مشفى الطّبّ الجراحي، وأمامه أكبر حاجز عسكريّ للنظام، خفْنا من الذهاب إلى المشفى، سيعرف الحاجز أنّ الشّابّ مصابٌ بسبب التظاهرة التي نفضتْ للتّوّ، أخذ أحد رجال الحارة جثّة الشّابّ، وذَهَبَ وحدَه إلى المشفى، محاولاً إسعافَهُ، وبعد أن استوقَفَهُ الأمن مُطوّلاً على الحاجز، كان الشّابّ ميتاً دون أنْ نعرف، هكذا علْمنا من المشفى.

أمّا الخوف الأكبر الذي تعرّضتُ له، حين أعلن يُسر قرارَهُ بالالتحاق بالعمل المُسلّح. وأنّه سيتركَ الحارة في الصباح. فقد كنّا معاً نُوزِّع

المنشوراتِ الحاضَّةَ على الإضراب. وبقيْنا معاً حتّى الصباح، إذ ترك هو الحارة، وذَهَبْتُ أنا للنوم. حين أفقتُ، وجدتُ الأمن يملأ الحارة، ويُجبر أصحابَ المحلات بقوّة السلاح والتهديد لفَتْح محالّهم. وكنّا قد كَتَبْنَا في المنشورات أنّ مَنْ لا يشاركُ في الإضراب يُعدّ عميلاً للنظام. وتذكّرتُ في لحظة كاميرات المراقبة أمام مطعم الدوحة. صبري، صاحب محلّ الدوحة، كان مُقرَّباً من الأمن، وكاميراته ترصد حركةَ الشارع، وأنا ويُسر نسيْنا هذا في زحمة انشغالنا. متُّ من الخوف، ماذا لو أنّ صبري رأى الأشرطة، وعَرَضَها على الأمن؟ في ذلك اليوم، غادرَ آخر أصحابي الذين عملوا معي في الحراك المَدَني، وشعرتُ بالوحشة والخوف معاً. كان يوماً كريهاً. كنتُ أتنقّل في الحارة مُظهِراً الغباءَ والطّيبة، كي لا ألفتَ النَّظَر، وقد رأيتُ في عينَي صبري الكثير من المعاني، أحسستُ أنّه رأى أشرطة التسجيل التي التقطتْها كاميرته، وظهرتُ فيها مع يُسر، نُلصقُ المنشوراتِ على أبواب المحلات، وأعتقدُ بأنّه لم يرغبْ بإزعاجي، فهو يكنُّ لي بعض الودّ، حسب قِيَم الحارة).

فرحُ التظاهرِ ومفاجآتٌ ممتعةٌ

من أجمل المظاهرات في حياتي، حين خَرَجْنا جميعاً في الليرمون. كنتُ سعيداً أنّنا كلّنا معاً. كأنّنا في عُرس، كانت المظاهرة الوحيدة التي لم يتغيَّب فيها أحدٌ منّا. بل كان ثمّة أصدقاء لي جاؤوا معي، وشاركوا للمرّة الأولى. كانت المظاهرة منقولة على قناة الجزيرة مباشر، في الساعة التاسعة ليلاً، حيث خَرَجْنا تحت شعار (نصرة حمص)، وبدأنا بالهتافات وأناشيد الثورة، وشَعَرَ أهل القرية بالخوف، وكان بعضُهم يتظاهر معنا، وأصرُّوا على ألا تظهر وجوهُهم في أثناء التصوير. وكان بعضهم يراقبُ مَفرق القرية، لإعلامنا في حال مجيء القوى الأمنيّة، لنهرب قبل وصولهم. وبغتة دخل علينا مجموعة من الشباب، حوالي ثلاثين شخصاً تقريباً، فأحسسْنا بالخوف، ولم نعرف كيف صاروا بيننا، وقرّرنا الهرب، إلا أنّهم صاروا يهتفون معنا. كانوا قادمين من جمعيّة الزهراء، للالتحاق بمظاهرتنا. وتوحّدت المجموعتان، وكأنّنا في عرسَيْن، يجتمعان معاً، فرُحنا نتبادلُ الهتافات، كأنّ كلّ مجموعة تُرحِّب بالأخرى، ولم نُصدِّق أنّ المظاهرة مرَّتْ على خير، وانفضَّتْ دون اعتقالات.

أغلب الاعتقالات كانت تحدثُ بسبب اختراق المظاهرة من قِبَل أحد ما، يدخل علينا بصفة معارض، ويتعرّف على هويّاتنا الحقيقيّة، ثمّ يُبلِّغ عنّا الأمنَ، فيأتون لاعتقالنا من بيوتنا.

تطوّرت المظاهرات لاحقاً، لندخل مرحلة الكَشف عن وجوهنا، لأنّ عدد

المتظاهرين صار كبيراً، وصار الاعتقال صعباً. لم تعد القوّات الأمنيّة تلحق على اعتقالنا، امتلأت السجون، وصار الاعتقال أمراً طبيعيّاً بالنسبة لنا، صاروا يعتقلون أحدَهم، ثمّ يُطلقون سراحَهُ على الأغلب، بسبب ضخامة عدد المعتقلين.

من المواقف الطريفة التي حَصَلَتْ معي، حين كنتُ مجتمعاً بأصدقائي في رُكن مُنزوٍ، والأمن يملأ الحارة. فجأة رأيتُ أحد المعارف، كان يركض صوبي، ويصيح: حسام، الجوّيّة، حسام، المخابرات الجوّيّة، حسام .. الجوّ .. يّة ..

كان يصيح لاهثاً، وكلامُهُ غير مفهوم. هَرَبَ الأصدقاء، ظَنَنّا أنّ المخابراتِ الجوّيّةَ قادمةٌ لاعتقالِنا. قلتُ له: وين الجوّيّة؟ فقال لي: اعتقَلُوا أبي، اعتقلَتْه المخابرات الجوّيّة.

أنا انهرتُ بالضحك، كان الموقف طريفاً، لأنّ والدَه لا علاقة له بالمظاهرة، وغالباً كان من المؤيّدين للنظام. ولكنّ القوّات الأمنيّة كانت تعتقلُ، في أثناء التظاهرات، أيّ شخص تجده في الشارع، وتعتقد بأنّه كان في المظاهرة.

كانت أمّهات الأصدقاء تتعاون معنا. ذات يوم، أرسَلَ لنا المجلس الثوريّ منشورات من كفر حمرا. ذَهَبَتْ أمّ صديقِنا، لتأتي بالمنشورات، وَضَعَتْ فوقهم فُوَطَ أطفال. فتّشها الحاجزُ على دوّار الليرمون، ورأوا الفُوَط، وتركوها تمرّ، ثمّ خبّأنا المنشورات في بيت أبي فيصل المهجور. ظلّت المنشورات في البيت ثلاثة أيّام، حتّى وزّعناها قبل المظاهرة الكبرى، يوم دخول المراقبين الأمميين ساحة سعد الله الجابري.

نَشَرْنا خبرَ التواجد، كي نصلَ للساحة من أربعة اتّجاهات. لكنّنا لم

نتمكّن من اختراق الأمن. كانت قوّات الشرطة والجيش متواجدة بعشرات الآلاف، وكانت الاعتقالات عشوائيّة، وكان القنّاصة منتشرين على الأسطح، وباعة الدخان في الساحة، وباعة البسطات أغلبهم متسلّحون ومتعاملون مع الأمن.

وَصَلَت سيّارات المراقبين الدوليين حتّى القصر البلديّ، وكنّا نهتف بالشعارات، ونكتب على سيّاراتهم، نطالبهم بدخول الساحة، كي نتمكّن من الاعتصام فيها، لكنّنا لم نتمكّن من الوصول إليهم، وشعرْنا بأنّ المراقبين إمّا أحسّوا بالخوف، أو كانوا متعاطفين مع النظام. كان أحد الشباب يضرب زجاج نافذة السّيّارة بقبضته، ويصرخ بالإنجليزيّة: سنايبر .. سنايبر! ويشير إلى سطح القصر البلدي، حيث القنّاص الشهير، وكان المراقبون يهزّون رؤوسهم من خلف الزجاج، ثمّ ذهبوا.

الكارثة وقعتْ بعد انصرافهم، انهالَ علينا وابل الرصاص كالمطر، وبدأت الاعتقالات والضرب، صار الأمن يشحطُ الناس في الشوارع، ويضربونهم بعنف. ملؤوا قرابة عشرة باصات بالمعتقلين. وجاؤوا بشبّيحتهم من مبنى الحزب، ووَضَعُوهم في وسط الساحة، وكانوا يحملون شعارات مؤيّدة للنظام مع صور الأسد، يرفعونها أمام الكاميرات، وكان النقل مباشراً، وقاموا بنَفْي الأخبار عن تواجد معارضين ضدّ النظام داخل المظاهرة.

هرموناتُ الحياةِ: الخروجُ إلى الضوءِ

لأنّ الخوف أغلبه تربية في بلادنا، يعتمد على حالة التخويف والترهيب، فإنّ الانخراط في أعمال جماعيّة يحمل أهدافاً سامية من قِبَلِ المؤمنين بها، والحالمين بتحقيقها، يُخرِجُ الطفل الخائف، والذاكرة الملتصقة بالخوف، ليعبّر بالفرد عبر متعرّجات ومحطّات متعدّدة، ليسيرَ في نفق الخوف، متدرّجاً صوب الضوء.

لم يكن أحدٌ يتخيّل خروج السوريين ضدّ النظام، لا منّا نحن السوريين، ولا من الآخرين .. كان العالم يعرف مدى بطش النظام الذي لا يماثلُه نظام في العنف، في العالم العربيّ على الأقلّ، إلا نظام صدّام حسين. لقد رأى العالم، ورأى السوريون، ماذا فَعَلَ صدّام بشعب العراق.

لكنّ متعة اختبار عبور الخوف لا تُضاهيها متعةٌ لدى السوريّ المحكوم بالخوف والخضوع. يخاف أحدهم قبل الخروج في المظاهرة، يخاف ويرتجف من الخوف، ولكنْ، حين يخرج، ومنذ أوّل نجاة من قوى الأمن، يتملّكُهُ شعور غامض بالانتصار، وباللّذّة التي لا يعرفها إلا أولئك الذين نَفَضُوا خوفهم، وتوجّهوا إلى ساحات التظاهر بأقدام مرتجفة، وقلوب مرتعدة، ومُخيّلة ترسم لهم أقبية التعذيب والجثث المنتشرة في السجون، لكنّهم يذهبون بقوّة الجماعة. هذه الطاقة التي ستكون بمثابة الحبل السّرّيّ، كما في حلقات الرقص، سواء كان الراقص خجولاً أو شجاعاً، يُتقن الرقص أو لا، ما إنْ يشبكُ أصابعه بأصابع شريكه، ويشبك التالي أصابعه بأصابع التالي،

وهكذا، فتسير الطاقة، وتسري كحَبْل سرّيّ، يغذّي الأرواح، ينتقل عبر شبكة الأيدي المتشابكة، هكذا تفرز الجماعة هرمون القوّة، حتّى صورة الموت تتحوّل إلى أسطورة، يعرف واحدهم أنّه إنْ مات تحت الرصاص، فسيتحوّل إلى أيقونة، وستخرج المظاهرات التالية لتشييعه.

هكذا، إذنْ، يبدأ المتظاهرون بتذوّق طَعْم الحُرّيّة التي تبدأ في لحظة الهتاف، وتتلخّص بكونها إحساساً عارماً بالقوّة، ضدّ الخوف. الحُرّيّة هي أوّلاً هذا التّحرّر من الخوف، لم تتجسّد بعد نظريّة الحُرّيّة أو معناها في إسقاط النظام، إنّها هذه اللحظة من تحقّق الذات: أنا هنا، موجود، لستُ بخائف.

من هنا سيخترع المتظاهرون هتافاتِهم، تلك التي تحفرُ في أعماقهم، لتنبشَ أوجاعَهُم، فيصرخون بصوت واحد:

ليش خايفين؟ أو بعد اليوم ما في خوف.

قد يختبئ الخوف خلف هذه الشعارات، وحين تخرج من حناجر جماعيّة، يتبخّر الخوف تدريجيّاً.

سيكتشف المتظاهرون، إذنْ، متعةَ الخروج الجماعيّ، متعةَ التشارك، متعةَ اقتسام أفكار متقاربة، وستتحقّق الأنا الفرديّة لكلّ منهم، داخل الجماعة، حين يشعر بإمكانيّة اعتماده على الشركاء، وأنّ كلاً منهم يُشكّل سدّاً منيعاً للآخرين، تماماً، كما في حلقات الدبكة، حين يشتدّ الرقص، وتكبر الدائرة، وتعلو الموسيقا، يصعب اختراق الحلقة.

يتدرّج الإحساس بالتّحقّق والتّخلّص من الخوف عبر مراحل، بعد التظاهرات، يحتاج الناشط غالباً إلى مساحة أكبر للإحساس بأنّه مفيد، بأنّه يفعل شيئاً ما، بأنّه يرسم حركة التاريخ، فتتعدّد الأداءات.

من هنا، سيكبر لدى حسام إحساسُهُ بأنّه مهمّ لغيره، وأنّه سيُقدّم المزيد لحماية غيره، وإيصال صوت الهامشيين في هذه الأحياء إلى العالم، فتبدأ الأفكار، ويبدأ الشباب بتأسيس تنسيقيّة للحارة، يسمّونها تنسيقيّة الخالديّة، كما لو أنّهم يكتبون سيناريو فيلم، كانوا يرونه على التلفزيون، يصبحون هم أبطال هذا الفيلم، فيبدؤون الحراك والحوارات والتخطيط لليوم التالي.

تأسيسُ تنسيقيّةِ الخالديّةِ

في منزل محمود سعيد، وفي غرفة يُسر، بدأ الشباب حراكَهُم المَدَنيّ. أسّسوا ما يُدعى بالتنسيقيّة، حيث يجتمعون قبل التظاهر، ويخطّطون للمظاهرة القادمة.

سعيد حسّون، حفيد سعيد الأخ الأكبر لمحمود، كان مسؤولاً عن الشّقّ الإعلاميّ، ولكنّه تسلّح فيما بعد، واستلم حسام المهمّة الإعلاميّة، حيث أسّس صفحة على الفيسبوك، سمّاها المكتب الإعلاميّ لتنسيقيّة الخالديّة، ولاقت الصفحة تفاعلاً جيّداً. كان ينشر فيها أخبار تظاهرات الحارة، واستعان بشابَّيْن معه: مهنّد عثمان، وهو ابن عمّة سعيد حسّون، ابن رقيّة، البنت الوسطى لسعيد الأخ الأكبر لمحمود، حيث كان لسعدى وسعيد ثلاث بنات، نادرة التي كانت صديقتي منذ الطفولة، ورقيّة التي هي من عُمر أختي التالية سُها، وزينب التي كانت بمثابة المُحرِّك الذي لا يتوقّف عن الدوران، وقد كنتُ أكنُّ لها الكثيرَ من الحُبّ. أمّا الشّابّ الآخر الذي راح يساعد حسام ومهنّد في العمل الإعلاميّ، فكان رامي السّيّد، أحد شباب الحارة.

كانوا يقومون بتوثيق أسماء المعتقلين والمفقودين، وينشرون صورهم عبر الصفحة، وتفاعل القُرّاء، حصلوا على أخبار العديد من المفقودين، وعرفوا أماكنَهُم ومصائرَهُم.

كما كانوا ينشرون أخبار الحارة: أماكنَ سقوط القذائف، أخبارَ الإصابات،

أسماءَ الجرحى، أسماءَ الشهداء، أخبارَ التيّار الكهربائيّ وانقطاعاته، أماكنَ الاشتباكات، أخبارَ الاعتقالات وانتشار الجيش النظاميّ، نقاطَ الحواجز العسكريّة وأخبارها اليوميّة ومستجدّاتها، وكان معروفاً باسمه الحَرَكيّ: أبو الحسن.

كان حسام مؤمناً بهذا العمل، ورَفَضَ الانخراط في العمل العسكريّ. أهمّ أسباب رَفْضِهِ لحَمْل السلاح كان الخوف على أمّه وأخته العازبة الوحيدة في البيت. كان يمكن للنظام ببساطة، كما فَعَلَ دائماً تهديد الناشط المطلوب، في حال فراره، بالانتقام من أهله: اعتقال أحد أفراد العائلة، وإذا اعتقلُوا النساء، فالأمر لن يتوقّف على التعذيب، بل سيشمل حتّى الاغتصاب أو التّحرّش في أفضل الحالات.

تِقْنِيَّةُ أمّي: شهرزادُ الحربِ

كما فعلتِ مع حسام، صار يحكي لكِ حكايتَهُ على دفعات، كلّما تذكّر أمراً، أرسلَ لكِ تسجيلاً صوتيّاً على الواتس، يقول لك: أنت المخرجة، ضعي القصّة حيث ترتئين، افعلي معي هكذا، أنا امرأة مُسنّة، وأمّيّة، وميتة، لا تنتظري من امرأة بهذه المواصفات الثلاث أنْ تتحدّث إليكِ بالتسلسل، ولا سيما أنّني مُتيقّنة أنّ موتي مُؤقّت، لهذا لا أحدِّثكِ على مرحلتَيْن منفصلَتَيْن: قبل موتي وبعده، فالحياة مستمرّة بالنسبة لي. أنا أرقد الآن بهدوء أكبر ممّا كنتُ أرقد في بيتي، لكنّني أشعر بالحرب. ما تزال كوابيس الخراب تطالُنا نحن الراقدات هنا، كلّما سمعْنا أصواتَ القصف، سَكَتْنا، وتوقّفْنا عن التّحرّك، وحتّى عن الهَمْس، لدينا خوفٌ يشبهُ خوفَ الأحياء، هم يخافون من الموت، ونحن نخاف من فقدان هناءة الموت، أعني نخافُ من فقدان هذه الحُفر الطويلة التي وضعونا فيها، أنا ملفوفةٌ بكَفَن أبيض نظيف، لم يتّسخ داخل التراب، لأنّ الحديقة أساساً ليست مُهيّأة لرقاد الموتى. إنّها مكان للاستجمام والتسلية. أنا مرتاحة هنا، حين لا يكون هناك قصفٌ، وحين نسمع القصفَ، نخافُ على أماكننا، نخافُ أنْ تنبشَ القذائفُ التربةَ، وتقلبَ قبورَنا صوبَ السطح، فتتعرّى أجسادَنا وأكفانَنا.

تسألينني: ما هذا الصوتُ؟ إنّها أصواتُ البنات، لديّ صداقات كثيرة، أسّستُها هنا. إنّهنّ يضحكنَ، لقد تابعتُ ما كنتُ أفعلُهُ هناك في الحارة، ما تُسمّينه أنت تِقْنِيَّة شهرزاد، أنا شهرزاد الحارة، والآن، شهرزاد البستان.

لقد اكتشفتُ الحكايةَ باكراً.

منذ كان أبوكِ يذهب إلى العمل، ويتركُني وحيدةً لدى الجارات.

بدأ الأمر مع أمّ رياض شيخو، حيث فقدتُ أوّل حملي.

كنتُ أصعدُ على السطح، وألعبُ هناك مع دنيا وأخواتها، لم أعِ آنذاك قصصَ الحمل والنساء، ولم أفهمْ أنّني أصبحتُ امرأةً.

كنتُ في الثانية عشرة حين أخذني ابن عمّي من بين أخواتي، ونزل بي إلى المدينة، لم أفهمْ ما يحصلُ لي، لم تشرحْ لي أمّي أيّ شيء، ولم يُفهِّمني أحدٌ القصّة.

ارتديتُ ثوبَ العروس الأبيض، وكنتُ سعيدة كأنّني ألعبُ، كنتُ أحبّ اللعبَ كثيراً مع ابن عمّي الذي يأتي إلينا، ونجلسُ معه نحن البنات السبع، يقصّ لنا حكايات الجان ومغامراته في الجيش، وكنتُ أضحكُ من قلبي.

حين ألبسوني ثوبَ الزفاف الأبيضَ، كنتُ فرحةً، وأنا أرقصُ وأغنّي، ولكنّني خفتُ كثيراً، حين أخذني ابن عمّي بعيداً، وشعرتُ بغصّة الفراق الأولى، ووَجَع الجسد.

ضَرَبَني، ثمّ حَصَلَ عليّ.

لم أفهمْ أنّ الزواجَ مُوجِعٌ، تُضرَبُ البنتُ بالعصا، ثمّ يخترقُها شيءٌ حادّ، يُسبّب الألمَ بين فخذَيْها، ثمّ ترى الدم.

خفتُ كثيراً من ابن عمّي، وصرتُ أكرهُهُ، لم تُعجبْني اللعبةُ، لكنّه أجبرَني على الاستمرار. صار يحبسُني في الغرفة، ليذهبَ إلى العمل، إلى أنْ تدخّلتْ أمّ رياض التي أسكنُ عندها، وأخذتْ على عاتقها أمرَ رعايتي في غياب ابن عمّي.

صرتُ أصعدُ على السطح، وأقفز بالحبل مثل دنيا وصباح وفلّة، وفجأةً، وقعتُ من السطح، وتدحرجتُ على الدرج.

صرخ بي أبوكِ:" أنتِ حامل، انتبهي على الجنين!"

ودخلتُ في لعبة أخرى، وأنا أرى بطني تنتفخُ، ثمّة دمية في جوفي.

هكذا وضعتُ سميرة، كما أسمَيتُها وهي في بطني، في الشهر السابع تقريباً، وخَرَجْتْ ميتة.

دَفَنُوها في حديقة الدار، قطعة لحم صغيرة، رحتُ في الليل، لأنكشَ التربةَ، وأُخرِجَ ابنتي، لم أصدِّقْ أنّها ميتة.

ذَهَبَ أبوكِ في اليوم التالي، وأخذ اللفَّةَ الصغيرةَ، ودَفَنَهَا في مكان بعيد.

صرتُ أحكي الحكايةَ للبنات، ورحنا نختلق حكاياتِ الإنجاب والأزواج.

تعلّمتُ من أمّي مهارةً جديدةً، كنتُ أغار منها حين تأتي لزيارتي، فتتجمَّع الجاراتُ في بيت شيخو، حيث أسكنُ في غرفة، استأجرها أبوكِ داخلَ البيت الكبير، وحيث تُعاملني الحجّة أمّ رياض شيخو مثل بناتِها الأخريات اللواتي عوَّضْنَني عن فقداني لأخواتي في جنديرس(*).

كانت أمّي تجذبُ نساءَ حارتي، وهي تقرأ لهنّ في الفنجان، وتعلّمتُ منها ذلك، بل وطوَّرتُهُ.

كان فنجاني يأخذ ساعاتٍ طويلةً، هل تذكرين تعلُّقَكِ الصباحيَّ بفنجاني سنوات طويلة ..؟

---

*) ناحية تتبع لمحافظة حلب، منطقة عفرين

في كلّ صباح تقلبين فنجانَ القهوة، وتطلبين منّي أنْ أقرأه لكِ.

كان ذلك يستغرقُ ساعات الصباح الأولى حتّى الظهيرة.

فناجين قهوة مقلوبة، في صينيّة، يسبح فيها البنّ السائل، قهوة الجارات، وبعضهنّ يأتينَ فقط بفناجين مقلوبة، شربنَ قهوتها في بيوتهنّ، أو يجلبنَ فناجين أزواجهنّ.

كبرت اللعبة، وصارت حياتي مسرحاً، صار استعراض القهوة الصباحيّ معادلاً لما تقوم به السّيّدات المترفات، وهنّ يشربنَ القهوة أمام التلفزيون، ويستمعنَ لأخبار الأبراج.

لم تبدأ أغلبُ نساء الحارة نهارهنّ دون المرور عليّ في الصباح، تحوّلت الدّكّة أمام البيت، نعم، المصطبة بالنَّحْوي إلى ما يشبهُ خشبةَ المسرح، في الصيف خاصّة، نجلسُ طيلة النهار، حيث يذهب الرجالُ إلى العمل، فتأتي الجارات للاجتماع أمام بيتي. نشربُ القهوة، وأقرأ لهنّ يوميّاتهنّ القادمة، وأتنبّأ بالأحداث، ونُحضِّر طبخاتِنا أمام الباب، على المصطبة، حيث تحملُ أمّ حسين أغراضَ الطبخ، وكذلك أمّ محمود الياقديّة، وأم وزالين، ويُسرا، وفاطمة، وعايشة، وفكريّة، وأم سمير البربور، كلهنّ يجلبنَ أغراض الطبخ لكلٍّ منهنّ، ونتساعد في حفر الكوسا وتقبيع الباميا وتقطيع الفاصولياء، ونحكي.

الحكي هو الذي خفّف عنّا آلامَ الحرب.

حين ذَهَبْتُم جميعاً، وفضي عليّ البيت، هذا البيت الذي كان يمتلئ بضجيجكم - أنتم أولادي السبعة - صار فارغاً، غادر حسام أيضاً، كان آخر مَنْ تركني، ورحتُ أواجه الوحدةَ والفراغَ والحربَ.

كنتُ أخاف أنْ أموتَ وحدي، وتتعفّنَ جثّتي، لهذا جئتُ بالعالم إلى بيتي، عبر الحكايات.

يا إلهي، القذائف تنهمرُ مثل مطر مجنون.

قطع: سقوط قذائف

العملُ في الإغاثةِ

بعد قصفُ الريف الحلبي، صرتُ أشتغلُ في العمل الإغاثي، كتأمين بيوت للنازحين، كنتُ أبحث بين الذين أعرفهم، إذا كان ثمّة مَنْ لديه مكانٌ شاغرٌ لإيواء النازحين. مثلاً كان عندي صديقة، اسمها فاطمة، حين دخل الجيش الحُرّ لحيّ صلاح الدِّين، اتّصلت بي، كان ذلك في شهر رمضان ٢٠١٢، وكانت تبحث عن مأوى لها ولعائلتها. أحضرتُها، هي وأبوها وأمّها وأختها طفلة، وأخوتها الذُّكُور الثلاثة، وعمّتها العازبة، وعمّها. تسعة أشخاص كانوا يحتاجون إلى سَكَنٍ. ولديها أخٌ عسكريٌّ مُنشقٌّ عن جيش النظام، اسمُهُ مصطفى. أخذتُهم إلى بيت "أمّ سمير بربور"، وكنتُ خائفاً عليهم.

أمّ سمير انبسطتْ عليهم. أعطتْها البيتَ بالمجان، ولم تطلبْ من فاطمة وأهلها المشاركة في مصاريف الطعام، أو أنْ تشتغلَ معها لقاءَ إيوائها. كانت العائلةُ نظيفةً ومحترمةً. وهذه تجربة جديدة في الحارة: إيواء أشخاص من حارات بعيدة، لأنّ حياتهم مُهدّدة في حاراتهم.

أقامتْ عائلة فاطمة حوالي سبعة شهور مجاناً، وعادة أمّ سمير تُؤجِّر الغرف الشاغرة لعائلات صغيرة قادمة غالباً من الريف، لتبحثَ عن عمل، وتستقرّ في المدينة. كان الأب والأمّ يحتاجان إلى الأدوية، فهما مُسنّان، وكنتُ أؤمّن الدواءَ لهما، عن طريق معرفتي بأشخاص لديهم المال.

كنتُ أشتري الحليبَ للأطفال، والأدويةَ والموادَّ الغذائيّةَ والخُبزَ،

من المال الذي أحصّله من أشخاص يتبرّعون لصالح النازحين. إلى أنْ صرتُ أتلقّى التحذيرات من الأهالي: (انتبه على حالكْ، صارت قصّتك مشهورة بأنّكَ تساعد النازحين، وهذه بالنسبة للنظام جريمة، تعادل جرائم الحرب ..).

كنتُ أتلقّى المساعداتِ من أهل الحارة الذين يعرفونني ويثقون بي، وأنا، على الأغلب، لم أكن أعطي المال لمحتاجيه، بل كنتُ أتجوّل بين النازحين، وأُدوِّن احتياجاتهم من الخبز والحليب والأدوية وأغطية النوم .. كان يرافقني مهنّد عثمان، وعمل معي فترة، ثمّ ذَهَبَ إلى الريف، حيث نزحتْ عائلته هرباً من الاعتقال.

راحت الحارة تفرغُ من أصدقائي، واستمررتُ وحدي في الإغاثة، بقيتُ برفقة بعض الشباب الصغار في السّنّ.

جميع أصحابي تقريباً التحقوا بالجيش الحُرّ. صراحة لم أكنْ مؤمناً بالسلاح، وفضّلتُ البقاءَ ضمن العمل الإنسانيّ، لأنّ العمل الإغاثيّ تقريباً اختفى من المنطقة التي أعيش فيها، والتي كانت تابعة للنظام، بسبب الخوف من النظام، وتشديد الرقابة الأمنيّة، وانتشار الحواجز العسكريّة حول الحارة.

في رمضان ٢٠١٣، صرتُ أحسّ بالاختناق والوحدة، كلّ أصحابي غادروا، واستحال عليّ الخروج في تظاهرات . الدوريّات الأمنيّة منتشرة في الحارة، والمُخبِرون المتعامِلُون مع النظام كثيرون. والحواجزُ كثيرة حول الحارة: حاجز الشيحان، وحاجز شارع النيل، وحاجز الطّبّ العربي، وحاجز جامع الغفران.

حاولتُ تقديمَ شيءٍ ما، بعد استحالة العمل الإغاثيّ والتظاهرات، وكثرة انتشار الأمن في شارع النيل، وحاجز جديد في الحارة، فرُحتُ أكتبُ

أخباراً لقناة حلب، لتزويدهم بالأخبار عن منطقتي.

بدأتُ أشعر بالخطر، في هذه الفترة، نمَتْ علاقتي بأبو المجد الذي أصبح صديقي الوحيد في الحارة. أبو المجد، كما ندعوه، والد مجد كرديّة، كان في السّتّين من عمره، وكان مريضاً، ويصعب عليه مغادرةُ الحارة. كما نجلس ساعاتٍ طويلةً في الظلمة، دون كهرباء، ونشعرُ بالبرد، بسبب الظروف المَعيشيّة الجديدة التي فرضتها الحرب، حيث غياب الكهرباء والمازوت.

جُرمُ الإغاثةِ

يَعُدُّ النظامُ السوريّ العملَ الإغاثيّ دَعْماً للإرهابيين. وقد شاعتْ في بداية الانتفاضة السوريّة قصّة بيان حليب الأطفال. حين وقّعتْ مجموعة من المثقّفين والفنّانين السوريين بياناً، يطالبون فيه الحكومةَ بفَكِّ الحصار الغذائيِّ عن أطفالِ درعا. واتّهم المُوقِّعون بالخيانة، وتمّتْ مقاطعتَهُم فنّيّاً من قِبَلِ شركات الإنتاج.

ثمّ بدأتْ حملاتُ الاعتقال ضدّ المشتغلين في الإغاثة، فصار مجرّد نَقْل أحد السوريين للدواء في سيّارته عُرضةً للاعتقال. حتّى إنّ صديقة قالتْ على الفيسبوك: لقد هرّبْتُ ابني خارج البلد، قالوا لي: (تقصد الأمن السوريّ): أتعتقدين أنّنا لم نرَ علبَ الحليب في سيّارته؟

ومن الصعب ذِكْر أسماء المعتقلين والمُغيَّبين بسبب أعمال الإغاثة، لأنّ هذا يحتاج إلى جهد مراكز التوثيق. ولكنّني أتوقّف دائماً لدى الصديق النَّحّات كمال أحمد الذي كان عمله في إغاثة النازحين في إحدى المدارس في حيّ الأشرفيّة في حلب سبباً لاختفائه منذ سنة ٢٠١٢ حتّى اليوم.

أمّا الصَّبيّة لارا حاصباني، والمحكومةُ بالإعدام، فإنّ الجرمَ المُوجّه لها هو مساعدة الإرهابيين، وكانت يارا قد أسعفتْ أحدَ عناصر الجيش الحُرّ الذين اقتحموا حيَّ الفرقان الذي تسكن فيه، ودخل عليها مُصاباً، وقامتْ بإسعافه من وجهة نَظَر إنسانيّة، بالنسبة لها. ثمّ اعتقالها لاحقاً، وتعذيبها، وما يزال مصيرها مجهولاً، تنتظر تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقّها. وهذا فعلاً غيضٌ من فيضٍ، كما يُقال.

بناتُ التمريضِ

بعد أنْ غادرتُم جميعاً، بقيتُ وحدي. البيت الذي كان يضجُّ بكم صار فارغاً. غادر حسام الذي كنتُ أفيقُ لأجد سبباً، فأوقظه، ونشرب القهوة، وقبله بشهر واحد، غادرتْ نائلة، شريكتي في السنوات الأخيرة. كنتُ أفيق وأشتغل في البيت قليلاً حتّى تنهضَ نائلة، وتساعدَني. كانت تستيقظ متأخّرة، فهؤلاء يسهرون حتّى وقت متأخّر أيضاً، تعرفين هذا الجيلَ، يقضي كلَّ الليل على الإنترنت.

صارت حياةُ نائلة على الإنترنت، اشترتْ كمبيوتراً، وصارت تمُضي معظمَ الوقت معه. لم تعدْ تخرجُ من البيت، بسبب المعارك، خَرَجَتْ قبل مغادرتها حلب بعدّة أسابيع، فاشتبك عناصرُ حاجز دوّار الصخرة مع الجيش الحُرّ، وَقَعَ الرصاصُ بين قَدَمَي نائلة، وعادتْ إلى البيت ممتقعةَ اللون، ترتجفُ من الخوف، ولا تُصدِّق أنّها نَجَتْ.

عانتْ نائلة كثيراً هنا، رأت القذائف تسقط على بيوت الجيران، رأتْ بيت أبي فيصل مُخترَقَاً من قذيفة، وجداره ينهار.

أيضاً قبل مغادرتِها بأسابيع، صعدتْ إلى السطح مع حسام، ولمَّت الشظايا، وهما يضحكان كأنّهما يلعبان.

غادرتْ نائلة التي كانت شريكةَ يوميّاتي، نُخطّط ماذا سنأكل، ونُنظّف البيتَ معاً، وتأتي صديقاتِها لزيارتنا، وأتسلّى معهنّ.

عرَّفَتْني على ميرفت، وفاطمة، وغيرهنّ، نائلة التي كانت تعمل في

محلات الماكياج، وتبيع الماركاتِ الغاليةَ من حمرة الشفاه والكريمات وأدوات الزينة، كان لديها الكثير من الصديقات والمعارف.

نعم، تركتُمُوني جميعاً، كان ماهر أوّلَ مَنْ يغادر، تَرَكَ أغراضَهُ أمانةً لديّ، وأجَّرَ بيتَهُ الذي كلَّفه سنوات من العمل، وبعد أنْ سدَّد القرضَ للمصرف وصار البيتُ له، تَرَكَهُ. أمّا عامر، فكان منذ سنوات يعمل في بيروت، راح ماهر، ثمّ راحتْ نائلة، ثمّ ذَهَبَ حسام.

أمّا سُها التي كنتُ أتنفّس الحياةَ منها حين تأتي لزيارتي، فلم تعدْ تجلبُ الأولاد معها. قالت: إنّ الحارة خَطِرَة، كانت تأتيني مَشياً من بيتها في المارتيني، وتمضي ساعات في الطريق، لأنّ أجرةَ السّيّارات صارتْ مرتفعةً جدّاً. بدل أنْ تدفعَ أجرةَ تكسي، كانت تشتري لأولادها الطعام بذلك المبلغ.

المسكينةُ تخرجُ من بيتها في الصباح الباكر، وتصلُ بعد أنْ تمضي مغامرات جديدة في كلّ مرّة، تقول لي: يا أمّي، الدبّابات تسير في حارتنا هناك كأنّني أعيش على الجبهة. المسكينةُ أيضاً كانت في الشارع منذ أيّام قبل سَفَرِهَا، حين سَقَطَت القذيفة قريباً منها، وجلستْ على الأرض تعتقد أنّها مُصابة.

الحمدُ لله، نجا كلُّ أولادي، لكنّهم غادروا بالتدريج، سُها أيضاً أخذت الأولادَ، وراحتْ، ذَهَبْتُ إليهم لتوديعهم، لم يجرؤوا على المجيء إلى الحارة، الاشتباكاتُ عنيفةٌ، والجيش الحُرّ يحاول اقتحام الحارة، والنظام ما يزال يسيطر عليها.

ذَهَبْتُ إليهم، وودَّعتُهم.

ودَّعتُ كثيراً، يا مها.

كانت سُها آخر مَنْ أُودِّع.

ودَّعتُ نائلة، وودَّعتُ حسام، وكنتُ أعرف أنّني لن أراه بعد ذلك اليوم.

ودَّعتُك أيضاً في تركيا، حين غادرت التكسي في غازي عنتاب، وتركتُكِ وحدَكِ، استدرتُ بعد أنْ مشت السّيّارة، ونظرتُ إليكِ، وأحسستُ أنّكِ صرتِ بعيدة جدّاً، وأنّها آخر مرّة أراكِ فيها.

غادرتُم جميعاً، وظلّتْ هذه الأرملةُ العجوزُ وحيدةً.

حتّى أخواتي، حتّى أولاد إخوتي.

البيتُ واسعٌ وفارغٌ، وأنا خائفةٌ من الموت والتّعفّن هنا، تعرفين كم أحبّ الآخرين، تعرفين أنّني أحبّ الكلام، أنّني لا أستطيع العيش دون أنْ أتحدّث لأحد.

التلفزيون يساعدُني، أدفعُ كثيراً من أجل الأمبير، نعم، المُولّدات التي نستأجرُها، حيث منذ وقت طويل، لم نعد نرى الكهرباءَ النظاميّة، أقصد كهرباء الدولة.

لا ماء ولا كهرباء ولا غاز ولا مازوت، لكنّني أعيش، أدفع قيمة الأمبير، وأتفرّج على المسلسلات التركيّة.

تذكرين ثوب فاطمة الذي اشتريتِ لي مثله في أورفا، نعم، أعادت المسلسلات لي الحياة.

ثمّ تنفسّتُ الأمل عبر بنات التمريض، فاطمة وزينب دَخَلَتَا حياتي، ومَنَحَتَاني الأمان.

أجّرتُ غرفتي حسام ونائلة في الطابق الفوقاني، نعم، غرفة حسام التي كانت لكِ، وغرفة نائلة التي كانت لماهر.

جاء عمّ زينب، وتفحّص المنزلَ، وقال لي: إنّهم من عائلة محافظة، وإنّه سيقبل أنْ تَسكنَ ابن أخيه عندي، لأنّني وحدي، وليس هناك رجالٌ في البيت. وأمّنني بابنة أخيه، وهكذا، صارت البنتان تساعدانني في المصروف، وفي عمل البيت، فقد هرمتُ، وضعفَ نظري، ولم أعدْ أستطيعُ التنظيفَ والطبخَ.

نعم، لا نطبخُ كثيراً، ولكنْ، أحياناً، نحصل على الغاز، ولكنّنا نستعملُهُ بحرص كبير، أنبوبة الغاز قَفَزَ ثمنُها إلى عشرة أضعاف قيمتِهَا، نار، يا بنتي، كلّ شيء نار، قرص البندورة صار تَرَفَاً، والبيضةُ صارت حلماً.

البنتان تكتبان الرسائلَ إليكم عبر الواتس آب، وتُعلّمانني كيف أسجّل لكم رسائلي الصوتيّة، تضغط فاطمة على زرّ، وتقول لي: احكِ! فأحكي.

أتسلّى معهما، لكنّني أغضبُ منهما أحياناً، إنّهما تُدخّنان بشراهة، وأنا أسعلُ، والبطّاريّة في قلبي تنخزُ صدري، نعم، قلبي ضعيف، أسنده بتلك المُحوّلة بداخله، تضحكين؟ ماذا أسمّي هذه المضخّة، إذنْ؟!

فاطمة وزينب تتشاجران كثيراً، أنا أتسلّى معهما، أصالحُهما، ثمّ تعدّان الطعامَ بسعادة، حين تتصالحان، طقس الطعام بعد الخصام يملأ البيت بالحيويّة، بل أحياناً، دعيني أقُلْ غالباً، أحبّ تقاسمَ هذا الطقس مع الجارات.

أمّ رامي تطبخ، وتأتي لي بوجبة من مطبخها، فأدعوها إلى الشاي والمكسّرات التي أدفع ثمنها غالياً ضمن هذا الحصار، تحتفي أمّ رامي معنا بالثرثرة، وتحكي قصصاً عن زوجها، وأستمتعُ أنا بالحكايات.

ولكنْ، كما تعرفينني، وكما كنتِ تحاولين توصيتي دائماً بأنْ أصمتَ، لا أستطيعُ كَبْحَ رغبتي في الكلام. نعم، أنا طيّبة، وما في قلبي على لساني، حين يأتي أبو رامي لتفقّدي وشراء حاجاتي، تخيّلي أنّه جَلَبَ لي البندورة

من معبر بستان القصر حين الحصار، إذ فرغت الحارة من قطعة بندورة أو خيار، وكانوا في بستان القصر يرمون الخضار على الأرض، ويرفضون إدخالها إلينا، في القسم الغربي، لأنّهم يقولون: إنّنا نعيش في أحياء الموالاة، هل أنا مُوالاة؟! أنا أريد فقط صحن بندورة مع المجدّرة التي أطبخُها، تنازلْنا عن اللحوم والألبان، نعيش على البرغل والعدس وبعض الخضار، ولكنْ، حتّى الخضار أرادوا مَنْعَهَا عنّا، لأنّنا نعيش في منطقة تابعة للنظام، المهمّ، يأتي أبو رامي لتفقّد أوضاعي، فنُثرثر، وأنسى نفسي، فأحكي له ما قالتْه لي أمّ رامي، وتدبّ الشجارات بينهما بسببي. ثمّ أذهبُ إلى أمّ رامي، وأرجوها، وأحاول مصالحَتَهَا عليّ وعلى زوجها، وهكذا، يعني بصراحة، نتسلّى ونمضي الوقت، حتّى لا نفكّر بما يحدث حولنا.

أمّ رامي صارت تفكّر بالطلاق، الحرب غيّرت الناسَ، أمّ رامي تحلم برجل يأخذها إلى تركيا، ويُنقذها من ويلات الحرب، وهو يرفض تَرْكَ البلد.

طيّب، ما ذنبي أنا، إنْ قلتُ رأيي بصراحة؟ تعرفينني، لا أجيدُ الكذب. كنتُ أشي بكم أنتم أولادي لأبيكم، وكم وشيتُ بسُها أمام زوجها، دون قَصْد! هكذا كنتُ أقول لأمّ رامي إنّ معها الحقّ في التفكير في النجاة، فهي شابّة، ومن حقّها أنْ تعيش في أمان، وأقول لأبي رامي إنّ معه الحقّ في البقاء، فأنا أفهمُهُ، وأفعلُ مثلهُ، وأرفضُ الخروج من بيتي. الخروج من البيت ذلّ ومهانة، والآخرون لن يحتملونا طويلاً، سيتقبّلوننا كضيوف مؤقّتين، ثمّ يبدؤون التّذمّر، وأنا كرامتي غالية عليّ، وأكيد أبو رامي مثلي، ولأنّني أقول رأيي بصراحة، رأيي الذي لا يُعجبُ الطَّرَفَيْن، يزعلون منّي. أبو رامي قلبُهُ طيّب ومتسامح، ولا يتركني، لكنّ أمّ رامي قاسية، قاطعتْني أيّاماً، لأنّني دافعتُ عن زوجها، وقلتُ لها ما أقوله الآن: البيت كرامة!

ستصالحني أمّ رامي، كلّها أيّام، وتعود إليّ، سيضربها أبو رامي، وتأتيني باكيةً شاكيةً، تفكّر في الطلاق، وتخاف من أهلها، وتعترف لي - وهي مقهورة

- بأنّها ستقبلُ عرضاً بالزواج من رجل تعرفه أختها، وهو قريبٌ لزوج أختها، ستُطلّق أبا رامي، وتذهب سرّاً إلى تركيا، دون إعلام أهلها، ثمّ ستندمُ أنّها أخبرتْني، وتتوسّل إليّ ألا أُخبِرَ زوجها، وأعِدُها قائلة: معقول! ليش أنا مجنونة!! والله، أبو رامي بيدبحكْ إذا سمع هالكلام! ثمّ يأتي أبو رامي، ونشرب القهوة، ويفتح لي قلبه، فأتعاطف معه، وأنساق، وأنسى وعدي لأمّ رامي، فأنصحه: دير بالكْ على مرتكْ، أختها ممكن تزوّجها لحدا من طرف زوجها، وبليلة ما فيها ضو قمر، يمكن تتركك وتروح..

ويغضب أبو رامي، ويذهب إلى بيته، ليتشاجر مع زوجته، وتُقسمُ له أنّ هذه مجرّد تهيّؤات منّي، ويجلبها إليّ، لنتواجه، وتنظر أمّ رامي في عينيّ بخوف، وترفع لي حاجبَيْها ألا أقول أيّ شيء ممّا حكتْهُ لي، وأنا أُصلح بينهما، وأقول له: مرتكْ ما في متلها، منيح متحمّلتكْ، أنت متل الدب!

لماذا أقولُ هذا؟ تعاطفتُ مع نظرات أمّ رامي، فوصفتُ أبا رامي بالدّبّ، لأُرضيها، لكنّه زعل منّي، وخَرَجَ غاضباً، وراحتْ أمّ رامي تُعاتبني: أمّ ماهر، ما بتعرفي تمسكي لسانكْ، كفرتْ وحكيتلّكْ؟

وهكذا، أمّ رامي وأبو رامي يتشاجران ويتصالحان، وأستمتع أنا بمسلسلهما، كما أستمتع بقصص ميرفت وفاطمة، ونقيمُ الدعوات، تبّولة دون بندورة أو بقدونس، تبّولة بالبصل المقلي والزيت والنعنع اليابس والكَمُّون والفليفلة، وإبريق عيران أدفع ثمن اللبن غالياً، لأدعو جاراتي، ونتقاسم الكلفة أنا وميرفت وفاطمة، حتّى يمتلئ البيت بالحياة، أموت إنْ بقيتُ وحدي، أحتاج إلى هؤلاء الناس معي، كي لا أرى نفسي ميتة وحيدة. أخاف أنْ أموت وحدي.

قطع: تحليق طيران حربيّ، يقال إنّه طيران روسيّ.

رويتُ لأعيشّ

هنا أرقدُ وأحكي

دفنوني هنا، في حلب الجديدة، أنا الوحيدةُ من كلّ العائلة المدفونة في حلب، بينما الجميعُ، الجميعُ على الإطلاق: أبي - أمّي - جدّتي - أبوكِ - عمّاك - أعمامي وزوجاتهم وأولادهم - جدّتك حليمة - بناتها الخمس - كلّهم هناك، أنا وحدي أرقد هنا.

إنّهن يرقدنَ جواري، ابتسام، زينب، الأخريات، هنا كشف السّرّ: منذ بداية الكتاب وأنا أروي لكِ من قبري، وهن يسمعنَني، ويعرفنَ كتابَكِ، ويُقرئنَكِ السلامَ.

مختارةُ الحارةِ

يوم الثلاثاء الأوّل من ديسمبر ٢٠١٥

كلّما سمعتُ أصوات القصف، وتلاها صياح الجيران، أدركتُ أنّ بيتاً قريباً منّي قد أُصيبَ، أو أنّ أحدَهم قُتل تحت القصف، نعم، القصف أعني الطيران، وأعني سقوط القذائف أو جرار الغاز التي ترميها المعارضة.

في كلّ مرّة، أسحب جسدي الهَرِمَ بصعوبة، لأمدَّ رأسي من الباب، أو أخطو عدّة خطوات مُستفسرة عن الأضرار.

في العام الفائت، سَقَطَت ريم من فوق السطح، لا تعرفين ريم؟ نعم، هي شابّة، استأجرتْ في بيت أمّ حسين بعد نزوح العائلة، صعدتْ تنشر الغسيلَ مع ابنها، وحين سَقَطَت حمم الطائرة، أُصيبتْ ريم، وهوتْ من فوق، من السطح، إلى الساحة، هنا أمام البيت.

كنتِ تتحدّثين معي على الهاتف، تذكرين؟ حين قلتُ لكِ: أغلقي الخط الآن، هناك ولاويل في الحارة .. أعدتِ الاتّصال بعد يومَيْن، وأنت تلومينَني، لأنّني تركتُكِ قلقة يومَيْن، فالشبكة الهاتفيّة عاطلة على الأغلب، وبالمصادفة تلتقطين صوتي.

تُحدّثينَني كيف تضغطين على زرّ الذاكرة في جهاز الهاتف، لإعادة آخر رَقْم طلبتِه، وهو رَقْمنا، تضعين أرقام النداء الدوليّة، الصفرَيْن، ثمّ ٩٦٣ ، ثمّ مفتاح حلب ٠٢١ ، ثمّ رَقْم البيت، وتنتظرين أنْ تسمعي الرنين، تقولين:

أسمع صوتاً غريباً، صوت لهاث يأتيني من الخطّ، كأنّ أحدهم يحتضر داخل خطّ الهاتف، ثمّ ينقطع الخطّ، وأخيراً تتمكّنين من سماع صوتي، ولكنّني أصرخ ألو .. ألو، ولا أسمع، فأشتم، أظنّ أنّ أحداً يلعب معي، أنا لا أسمع الطرفَ الآخرَ، تتّصلين، وتحاولين الصراخ: أمّي، أنا مها، وينفرجُ قلبي فرحاً، فأضحك: أنت هون؟ وأحدّثك عن ريم، كما حدّثتُكِ عن أمّ حسين أيضاً، قلتُ لكِ: مها، سكّري الآن، في صريخ في بيت الجيران، قلتِ لي: لأ.. خلّيني على الخطّ، شوفي شو صاير وخبريني. غبتُ عنكِ لحظات، حيث أجلس في الصالون، وأضعُ الهاتف هنا، فتحتُ الباب، وسمعتُ صراخ بنات أمّ حسين، وقالتْ أمّ محمود مهرولة أمامي صوب بيت أمّ حسين: لكْ ماتتْ سعدى! عدتُ إليكِ عبر الهاتف، أخبرتُكِ بسرعة، وتركتُكِ تتدبّرين أمركِ في الحزن والبكاء، إذ كان عليّ اللحاق بأمّ حسين، أودّعها قبل أنْ يأخذوها، ويدفنوها.

المهمّ أنّني في كلّ مرّة أسمع هذه الأصوات، أكتشف أنّ بيتَنا لم يُصَبْ. بتُّ متيقّنة أنّ لله حكمته في حماية هذا البيت. قالت لي إحدى الجارات، نسيتُ مَنْ قالت هذا، ربّما جمال أمّ المجد، أو أمّ شحود، نسيتُ فعلاً، قالتْ لي: بيتك قويّ مثل القلعة، أساساته متينة، ولا يسقط! وقالت أمّ رامي، وشاركتْها راضية الرأي، راضية أخت خالد، خالد الذي كنتِ تذهبين إلى بيته في الميريديان، كيف أعرف؟ راضية قالت إنّها تعرفكِ، إنّكِ صديقة عائلة أخيها، على فكرة زوجة خالد تطلّقتْ، نعم، أنا مثلكِ، نسيتُ اسمها، تقولين إنّ هذه الأمور قديمة، مضى عليها أكثر من عشرين سنة، كانت بنتا خالد (سوسو ولولو) طفلتَيْن، وهما اليوم شابّتان، وأنتِ نسيتِ كلّ تلك الأيّام، ونسيتِ أنّ خالد تزوّج من قريبة مروان التي تركتْ زوجها بعد قصّة حبّ مع خالد،لا يهمّكِ الأمر؟ نعم، إلى موضوعنا، أيّ موضوع؟ هل تظنّين أنّني أقصّ عليك هذه الحكايات من أجل هدفٍ ما؟

أو يهمّني أنْ يكون ثمّة موضوع واضح؟ أبداً، أنتِ بالنسبة لي مثل جاراتي، أتحدّث من أجل الحديث فقط، كي أتشبّث ببقائكِ معي، هكذا كنتُ أفعل مع الجارات، أنت تسمّين هذا (تِقْنِيَّة أمّي). سَمِّها ما شئتِ. أنا أقصّ لأُبقي الأخريات معي. عبر الحكايات يجلسنَ، وأُطيل بقائهنّ. أنا أخاف الوحدة، أنا لم أعتدِ الوحدةَ، يا مها، نعم، على عكسكِ، أنت وماهر. هههههه.. أنا أضحك متذكّرة كيف كان صبري يقول عن ماهر: جالس في السقيفة. كان ماهر يحبّ العزلة، ولكنْ، انتبهي، كان ماهر أيضاً لا يحتمل البقاء بعيداً عنّي. هل تذكرين خبثكُم، أنت وأخوتكِ؟ تتآمرون مع أبيكِ على ماهر. كان يأخذ الكرسيّ الصغير، ويلحق بي إلى المطبخ، ويغمزني أبوكِ، لأتحرّك، فأغادر المطبخ صوب المغسلة في الصالون، ليقوم ماهر، دون أنْ يعرف أنّكم تراقبون تحرّكاته البريئة، فيحمل الكرسيّ، ويرافقني، متابعاً حديثي، لم يبقَ سوى المرحاض، لم يلحقْني إليه ماهر. لهذا فأنا لا أظنّ أنّه يحبّ العزلة، لكنّه لم يجدْ مَنْ يفهمه. وأنتِ، أيضاً، كنتُ أحتار بفَهْمكِ، من ناحية، تجلسين ساعات طويلة في غرفتكِ، تقرئين وتسمعين الموسيقا، ومن ناحية، تجلسين بين الجارات والأقارب حين يأتون لزيارتنا، وتتصدّرين القعدةَ، مثل أبيكِ، تمارسين دورَ المختار.

تركتُ لكما المَخْتَرَةَ، أنتِ وأبيك، أنا وماهر، أبطال الهامش كما تتحدّثون في النَّحْوي. ربّما لهذا قامت الحرب بينكما، أنت وماهر، وما تزال. إنّه لا يكرهُكِ أنتِ، بل يكرهُ أباكِ داخلَكِ. يشعر أنّكِ تملكين سلطة مثل سلطة أبيكِ. المهمّ، هذا حديث طويل، أتركُكِ تقرّرين فَتْحَهُ ذات يومٍ، معي أو مع ماهر.

كنتُ أقول إنّني أكرهُ الوحدة، وأخافُها، وكنتُ أقول إنّني في كلّ مرّة سمعتُ أصواتَ القذائف، خَرَجتُ بعدها لتفقُّد الأضرار، لأكتشفَ دائماً

أنّ بيتَنا لم يصبْ بأذى كبير، زجاجٌ محطَّمٌ، أو رصاصةٌ اخترقت الحائط، وكنتُ أخبركِ عن رأي راضية بأنّ البيت مُصان من السماء، لحكمةٍ إلهيّةٍ، أنا أعرف هذه الحكمة. إنّ الله يحمي هذا البيت، ليس فقط لأنّني طيّبة ومسكينة ومؤمنة، بل من أجل الآخرين.

ألم تكتبي أنّ بيتي صار مثل الخان؟ يا ستّي، لو أنّكِ طلبتِ منّي أنْ أسردَ لكِ أسماءَ الأشخاص الذين آويتُهم في بيتي في أثناء هذه الحرب، لنسيتُ أكثرَهم. أقسمُ لكِ أنّني لا أعرف أسماءَ أغلبهم، كان بيتي مفتوحاً، ولا سيما للنساء، نعم، مثل تلك الصّبيّة القادمة من عفرين مع عمّتها، جاءتْ إلى بيت أمّ رامي، ولم تتمكّن من الذهاب إلى بيتها في الأشرفيّة. قالوا إنّ داعش دخلت الحارة هناك، عند السَّكَن الشبابيّ. والمسكينةُ قالتْ إنّها تبحث عن فندق لليلة فقط، حتّى تذهبَ إلى امتحان الجامعة، نعم، كتبتِ قصّتها من قبلُ، فقط أذكِّركِ.

أمّا في هذا اليوم، اليوم الأسود، اليوم التالي لعيد ميلادكِ، فقد انقلبت الحياةُ، وتخلّى الله عنّي، وسَقَطَ البيت.

أوّلُ العنقودِ

اليوم عيد ميلادكِ، الثامن من ديسمبر. لا تثقين بأنّ والدكِ سجَّلَكِ باليوم الفعْلي لولادتكِ، أنا لا أفهمُ في هذه الأمور، أعرف أنّه كان منتصف رمضان تقريباً، وكان هناك ثلجٌ كثيفٌ في حلب.

تتّصلين بي مازحةً، لتقولي: الحمدُ الله على قيامكِ بالسلامة، في مثل هذا اليوم، وَضَعْتِني في الحياة.

تبدو علاقتنا غير مفهومة، لا تشعرين بأنّني أمّك، لأنّكِ أعقلُ منّي، كما لو أنّكِ أمّي. أنتِ اخترتِ باكراً الالتحاقَ بمعسكر أبيكِ التربويّ، وانتميتِ له ولأهله، نعم، كنتُ أغضب منكِ، فأناديكِ (حفو)، كما كنّا ننادي حنيفة. بل كنتِ تُشبهين جدّتكِ حليمة، ولكنّني كنتُ أخافُ أنْ أستفزّ أباك، إنّ دعوتُكِ باسم أمّه.

غيَّرتْكِ الكتابةُ. نحن الأمّهات، نقول حين تصبح بناتُنا أمّهاتٍ، تعرفنَ معنى الأمومة، وتُقدّرنَ قيمة الأمّ. أمّا أنتِ، فقد خضتِ مغامرةَ الكتابة التي كانت حقلاً مُنصفاً لي ولكِ، عبر الكتابة رحتِ تُفكِّكين انتماءاتِكِ، وتُحلِّلينَها، وتقتربين منّي خطوة إثر خطوة.

أمّا المنفى، والمسافاتُ الطويلة، واستحالةُ اللقاء الذي تحوّل إلى حلم لديكِ خاصّة أكثر منّي، فقد نقّى ذلك مشاعركِ أكثرَ، وجاء موتُ أبيكِ، ليقصمَ ظهرَ المسافةِ العاطفيّةِ، لتنظري إليّ كامرأةٍ أرملةٍ، تعيشُ ألمَ الفقدان.

الكتابةُ صَنَعَتْ منكِ كائناً عاقلاً، وكائناً عادلاً في الوقت نفسه، فأجريتِ مراجعاتٍ لنفسكِ، واكتشفتِ خطأ ميولكِ لمعسكرِ أبيكِ، وانحيازكِ إليه طيلة تلك السنوات، كنتِ تبحثين عن الأمان في اعترافِهِ بكِ.

واليوم أراكِ تصلين إلى نقطة مهمّة، لكنّها برأيي فقط منتصف الطريق، وعليكِ المتابعة. اليوم تجدين في مراجعاتكِ، ومَيْلكِ لمعسكري الأحمق التلقائيّ بذورَكِ الإبداعيّة. نعم، أنتِ وليدةُ هذا الخليط المتناقض، لهذا ما تزالين تحملين بعض التناقضات التي تَدْعِيْنَهَا بالثراء لامتلاك مزايا الطرفَيْنْ: العقل المتشائم من أبيكِ وجدّتكِ وعمّتكِ، والروح الحُرّة التلقائيّة، بل والفجّة، كما تصفينها منّي.

أقول منّي، ولا أضيفُ، فأنا وحيدةٌ في معسكري، لا أشبهُ أبي المتسلّط، القويّ، الصارم، ولا أمّي الكسول، المغناج، اللامبالية، وأحمدُ الله أنّكِ وقعتِ في معسكر أبيكِ باكراً، لتتملّكي قدراتِكِ النقديّةَ التي تساعدكِ في الانتفاضة على ذلك المعسكر، وفَهْمه، والاقتراب من جوهري التلقائيّ الذي يُقرِّبكِ من جوهركِ الإبداعيّ.

أستمتعُ بالكلام معكِ، يا مها، مع أنّني لا أفهم كلامَكِ النَّحْويّ، ومصطلحاتِكِ، ولكنّني أشعرُ أنّكِ تقولين أشياءَ لها قيمة. وأعترف لكِ، أجل، تعرفين أنّني أحسُّ بالأمان لوجودكِ. فأنتَ تحمينني بطريقةٍ ما، أعرف أنّكِ تتحمّلين المسؤوليّةَ، وهذا ما أخذتِهِ من أبيكِ، ولن تتخلّي عنّي، حتّى بعد الموت.

كلّ عامٍ وأنتِ بخير، يا بنتي، يا أوّل العنقود، بعد موت جنيني الأوّل، أنتِ الناجية، لتحملي عبئي وأعباء الباقين.

أمّا عن برودي صوبكِ، وكأنّني لستُ أمّكِ، فلأنّني كما تعرفين لا أُطرِّز

مشاعري. أنا كالقطّة، تحبّ أولادها، وتعضّهم إنْ غضبتْ منهم، وتعاقبهم وتطردهم، ثمّ تحنّ إليهم، أنا هذا الكائن البدائيّ الذي يُعلن مشاعرَهُ دون خضوع لتكنولوجيا العصر، ومفاهيم الأمومة الرصينة.

اليومُ التالي، التاسعُ من كانون الأوّل:
ليلةَ سقوطِ البيتِ

لساني مربوطٌ، يا نبي، لا أعرف ماذا أقول لكَ؟ أضع صورتَكَ أمامي وأبكي، لم أبكِ في حياتي كما الليلة، ستغضبُ منّي إنْ قلتُ لكَ: إنّني حزينة الآن أكثر من حزني على وفاتكَ، كلا، لا تغضبْ منّي، أقسم لكَ أنّني لم أحزنْ على موت أبي كما أنا حزينة الآن، خرب بيتي يا نبي، ماذا أفعل، وأين أذهب بنفسي؟!

أريد أنْ أحكي لكَ، ولا أعرف ماذا أقول؟ بكائي يمنعُني من الكلام، أنا أختنقُ، يا ليتَني أموتُ وأخلُصُ من هذا العذاب.

خمس وأربعون سنة ذَهَبَتْ خلال لحظة، ضاعَ كلّ شيء، يا نبي، كلّ شيء. ضاع تعبُكَ، وضاعتْ ذكرياتُنا، وضاعت الأمانةُ، ولكنّه ليس ذنبي، ماذا كان عليّ أنْ أفعل أكثر ممّا فعلت؟! احتملتُ القصفَ والجوعَ والعطشَ والبهدلةَ والوحدةَ، ولم أترك البيتَ، من أجلِكَ، ومن أجل الأولاد، كنتُ أخاف أنْ تعاتِبَني ذات يوم: فرّطتِ بالبيت، يا أمينة؟ تركتِه للغرباء، وهربتِ؟ كنتُ أخاف من هذه المواجهة ذات يوم، حين أموتُ وألحق بكَ، ولا تتركني أهنأ بموتي، وأنت تلومني، طيّب، أنت تلومني الآن أيضاً؟ ما ذنبي؟ .. هل رأيتَ حالي؟ بقيتُ وحدي في البيت، تقريباً غادر كلّ أهل الحارة، لم تبقَ سوى فطّوم الياقديّة ممّنْ تعرفهم من قبل، ماتتْ أمّ حسين، ونزحتْ بناتُها وكنّاتُها، وبيت أمّ نبيلة وبيت أبي حسام، جميعهم غادروا منذ بداية الأحداث، بيت أبي سمير نصفُهم ذهبوا، وبقي بعضهم، أمّ سمير

ذَهَبَت إلى مخيّم كلّس، وكنّتُها ظلّتْ فقط، وسَكَنَ الغرباءُ الحارةَ، غرباء مثلنا، جاؤوا من بيوت مهدّمة، لم تعد صالحة للسَّكَن، وسَكَنُوا في الحارة.

خمس وأربعون سنة، يا نبي، صارتْ تحت الأنقاض، نعم، أنا أشهقُ كالأطفال، وأنا أبكي. لم أُصَبْ يوماً بهذه الخسارة، تعرف حين يدعو أحدٌ على أحدٍ بغضبٍ، يقولُ له: الله يخرب بيتك. لقد خرب بيتي، يا نبي، وصار أنقاضاً.

حين سمعتُ صوت الدويّ العنيف، وارتجّ البيتُ، كنتُ أتوضّأ في الحمّام، لا تسخر منّي، أتوضّأ دائماً، لأستعدّ إنْ ذَهَبَتْ روحي، أكونُ طاهرةً، أحبّ الوضوءَ والطهارةَ، رغم أنّني أرتجفُ وأنا أسيرُ، وأتخيّل الطريقَ من الغرفة إلى الحمّام، كأنّه ساعاتٍ، كما كنتُ أقطعُ الطريقَ من المدينة إلى القرية في شبابي، نعم، الطريق طويلة جدّاً على امرأة مثلي، أنا هرمتُ كثيراً في غيابكَ، كنتُ قويّةً حين كنتَ على قيد الحياة. بدأتُ أهرمُ بسرعة حين بدأت الحرب. أنت لم ترَ أيّ شيء، متَّ قبل الحرب بأسابيع، في الأوّل من آذار سنة ٢٠١١. حينها كانت الأمور عاديّة، أنا هرمتُ كثيراً، وتبهدلتُ كثيراً. تَرَكَني أولادكَ جميعاً، مها من زمان في فرنسا، سافر ماهر إلى هولندا، ثمّ سافرتْ نائلة إلى تركيا، وبعدها خَرَجَ حسام، ثمّ سُها، وكان عامر في لبنان، وهو الآن في فنلندا، أمّا لؤيّ، فالله يقصف عمره، أنت تعرف كم يُزعجني هو وزوجته. جاءت زوجته، ورَمَتْ كلماتِها في حضني مثل الرصاص، يا نبي. لقد شمتتْ بي، قالت لي: بقى هيك، وقع البيت، وما ضَل عندك محلّ تروحي له، تعي لعندنا إذا بدّك. قالتْها بلُؤم وإذلال، أين أذهبُ بنفسي، يا نبي؟

أعرفُ أنّكَ تشعر بي، أرى صورتَكَ تتحرّكُ بيدي، أعرف أنّكَ حزين من أجل البيت، لا من أجلي، فأنتَ لا يهمّكَ أمري، ماذا أفعل؟ أخوتي

الذُّكُور غادروا جميعاً، فريد في بلجيكا، وفؤاد وجهاد في ألمانيا، وأخواتي أيضاً صرنَ جميعهنّ في ألمانيا، عدا صبيحة وحدها في الأشرفيّة، أنا الآن في بيت ابنتها اعتماد.

جاء زوجها، هو جارنا ابن البرم، عبد الرحمن، جاء وأخرجني من بين الأنقاض.

حين سمعتُ ذلك الدّويّ، واهتزت الأرضُ، كنتُ في الحمّام، لم أتخيّل أنّ الخراب صار عندي، فتحتُ باب الحمّام، أنوي التّوجّه صوب باب الدار، أفتحه، وأتفقّد الحارة، فلم أُبصر أمامي أرضَ الدار، لمحتُ الباب واقعاً، والحجارة متراكمة حوله، كما تراكمتْ أمام باب الحمّام.

بدلاً من أنْ أفتح باب الحمّام، لأرى أرض الدار، والعمود، حيث ركّبتَ عليه المغسلة والمرآة، رأيتُ الناس، التصق البيت بالحارة، وصارت الحارة داخل البيت.

دخل الناس من كلّ صوب وحدب، وجوه غريبة، وجوه متعاطفة، وجوه ضاحكة، صرتْ فرجة، يا نبي. وقفتُ متسمّرة أمام باب الحمّام، أنظر في الوجوه الكثيرة التي نبعتْ قبالتي، كأنّني في كابوس، بدأتُ أسمع الأصواتِ التي كانت تصدر، ولا أسمعها: يا لطيف، اللهُ أكبر، المرّة عايشة، هاتوا نقّالة، نطالعها، أمّ ماهر، لا تخافي، هلّق منطالعِكْ، لا تتحرّكي، الحيطان عم تنهرّ بيجوز تُوقَع فوقكْ..

تسمّرتُ مكاني كأنّني أقفُ فوق لغم، أخشى أنْ ينفجر بي، قالوا لي ألا أتحرّك، لأنّ حجارة السقف تتابعُ السقوط، وخافوا أنْ ينهار السقف فوقي، إذ وقع السقفُ من جهة غرفة حسام، وانكشفت الغرفةُ للعالم، كأنّها دون حيطان.

أخْرَجُوني من بين الأنقاض كأنّني قطّة، كنتُ خائفة ومذهولة، ولم أكنْ أشعر بالحزن بعد، لم أكنْ استوعبتُ القصّة، حين صرتُ خارج البيت، ونظرتُ إليه من الطرف الآخر، لم أجد البيت، كان هناك الدرج فقط، وبقايا غرفة حسام، وكثير من الحجارة، والباب كان مستلقياً بين الحجارة.

خمس وأربعون سنة، يا نبي ..

دخلتُ البيت، أسحبُ مها بيد، وأحمل ماهر في حضني، ولم يكن قد تجاوز العام. كان ذلك في سنة ١٩٧٠ إذا لم تخنِّي الذاكرة. أكيد كان هذا بين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ على أكثر حدّ، لأنّ سُها وُلِدَتْ هنا. كانت سُها أوّل أولادي الذين أضعُهُم في بيت تمليك.

لم يكن البيت ملكنا، لكنّه تقريباً كذلك، لا فرقَ بينكَ وبين أمّكَ، أمّكَ رحمة الله عليها اشترت البيتَ لكَ ولمنّان، تزوّجَ منّان هنا، وجاء بفادية، ثمّ أنجبتْ خمسة أولاد هنا، ولأنّ الحياة صارت ضيّقة علينا، بأولادي السبعة وأولادها الخمسة، تركتَ أنتَ العملَ في شركة الغزل والنسيج، وحصلتَ على مكافأة نهاية الخدمة. ثمانية عشر ألف ليرة، كما أذكر، دفعتَهَا لأخيكَ، مقابل حصّته في البيت، وأصبحَ البيت لنا، لكنّ الورق كان دائماً باسم والدتكَ ..

خمسة وأربعون عاماً وأنا أزقّ في هذا البيت مثل العصافير، أتشاجر معكَ كلّما اشتريتُ صحناً أو ملعقة، أدَّخرُ المال من هنا وهناك، وأشترك في الجمعيّات، لأقبضَ قيمتها، فأشتري كنبة أو ثلاجة، وتقوم قيامتكَ، أنت لا تهتمّ بالفرش والأغراض، وأنا أحلم بغسّالة أتوماتيك وفرن غاز وستائر أنيقة ..

صحن تلو صحن، وملعقة تلو ملعقة، وطناجر بالتقسيط، ومفارش طاولات، وطقوم فناجين قهوة وكاسات شراب، ملأتُ بيتي عبر خمسة

وأربعين عاماً، وحقّقتُ حلمي بشراء غسّالة أتوماتيك. كانت هديةً من مها، اشترتْها بالتقسيط من راتبها، وأنتَ سَكَتَّ، كنتَ تخجل من معارضة رغباتِ مها في شراء أغراضٍ للبيت، أمّا البرّاد، فقد جاء به أبي، دفعتُ له أوّل قسط، وكدتَ تُطلّقني يومها ..

خمس وأربعون سنة، يا نبي، ضاعتْ كلّها تحت الأنقاض، الغسّالة الأتوماتيك، البرّاد، ماكينة الخياطة السينجر التي أحضرتُها مع جهازي، كنتَ أنتَ مَنْ تخيطُ عليها، أنتَ فصّلتَ وخطتَ ديارة مها كلّها: الأثواب والقنداق، كلّ شيء صار تحت الأنقاض: التلفزيون - ملابس الأولاد - شهاداتهم وجلاءاتهم التي أحتفظ بها - قطرميزات دبس البندورة والزيتون والبرغل والعدس والأرز، حتّى برميل المازوت. احترق قلبي على برميل المازوت، الناس تدوّر على نقطة مازوت، وأنا اشتريتُهُ بسعر الذَّهَب، بل ربمّا أكثر، لأراهُ يسيلُ على الأرض، وقعت القذيفة على البرميل، وسَقَطَ كلّ شيء. يقولون إنّه صاروخ، وإنّهم رأوا بقاياه، معقول ضربوا بيتنا بالصاروخ، يا نبي؟ لماذا يضربون بيت امرأة وحيدة، لا يوجد هنا عسكر، ولا مقاتلون، ضربونا، يا نبي، حطّموا قلبي، أحرقوا روحي، لن أكفّ عن البكاء حتّى أموتَ، الموتُ أرحم لي من هذا العذاب.

أنا أتعذّب كثيراً، انحرقَ قلبي على البيت، وعقلي مشغول أيضاً بسؤال: أين أذهب؟ هل عليّ أنْ أتشرّد بعد كلّ هذا العمر، كنتُ مُعزَّزة مُكرَّمة في بيتي رغم الحرب، فأذهب إلى الصهر التركيّ؟ سُها في تركيا، لكنّها تنتظر إقامة رشاد، وإذا حَصَلَ على الإقامة، فستلحق به، ولن تستطيع أخذي معها، أبقى في وجه نائلة زوجها الغريب؟ الموتُ أرحم لي من هذا العذاب، ولماذا أبقى بعد البيت؟ هل أنا أغلى من البيت؟ نعم، البيت أغلى من روحي، فلأمتْ بعده.

هذا البيتُ كان كلَّ شيء بالنسبة لي، كان أماني ووجودي، ضعتُ، يا نبي، خائفة الآن، أين أنام؟ أين أستحمّ؟ أين أذهب إلى المرحاض؟

سأجلس في بيوت العالم حتّى أنتظرَ لقمتي؟ لا والله، الموتُ أرحمُ، لماذا قصفُوا بيتي، يا إلهي؟ أيّ حرب هذه التي تقصفُ بيوت الفقراء والنساء الوحيدات؟.

لم يبقَ لي سوى هذا البيت، بعد رحيل كلّ عائلتي وأولادي وأهلي، أخوتكَ جميعاً ماتوا. البنات الخمس والصبيان، لا بيوتَ أمامي، سوى بيت صهري في تركيا، وأنا أريد أنْ أُدفنَ هنا، يا نبي، في بلدي. لا أريد أنْ أُدفنَ عند الأغراب.

سَقَطَ البيت، يا نبي، نعم، أعرف أنّ الوقت تأخّر، وأنّ ضوء الصباح بدأ يظهر رغم الشتاء، وأنّني لم أغمضْ عينيّ لحظة، وأنّني أتحدّث إلى صورتكَ منذ المساء، وأنّني كرّرتُ الكلام كثيراً، أفعل هذا كي أموتَ، أريد أنْ أموتَ، سأتوضّأ بعد قليل، وأصلّي وأدعو الله أنْ يأخذ أمانتي، خَلَصْ، لم يعدْ لي شيءٌ، أعيش من أجله، ولا مكان يأويني.

سَقَطَ البيتُ، يا نبي، البيت الذي كان هاجسي سنوات طويلة، منذ مغادرة منّان في سنة ١٩٨٠، أنْ تنقل ملكيّته باسمكَ، بعد أنْ دفعتَ لمنّان حصّته، وقالتْ أمّكَ: إنّ هذا البيت هو ملككُما، بعد أنْ تركتْ لحسين الزيتون، وهكذا قسمتْ الإرث في حياتها: البيت للصبيَّيْن، والزيتون للثالث، الكبير. أخذ منّان حصّته نقداً، والزيتون عند أبي صبري، كنتُ أخاف أنْ تموتَ أمّكَ، فيطلب أخوتُكَ وأخواتُكَ وأحفادُ أمّكَ حصصهم في البيت، ويرمونني بعد موتكَ ..

كنتَ تُقسمُ لي: والله، يا أمينة، أهلي لن يرموكِ في الشارع بعد موتي. كنتُ أخاف، أقول لكَ اعتبرها نهاية خدمتي لكَ، سَجِّل البيت باسمي أنا.

الله يرحمكَ، أنا راضية عليكَ، أعطيتَ الأوراق لابتسام، وبدأتُم معاملة نَقْل الملْكيّة، يا إلهي! كلّ الأوراق لديّ، حَصَلْنا على تثبيت ملْكِيّة البيت باسمكَ بحُكم محكمة، بعد إبراز عقد البيع بينكَ وبين أمّكَ. ولكنّ كلّ هذا ذَهَبَ إلى الفراغ، أوراق كثيرة، وتنازلات من أولاد أخواتكَ المتوفّيات، سافرتَ إلى قرى نائية، تجمعُ التنازلات عن حصصهم في إرث أمّهاتهم، أولاد زكيّة وأولاد فريدة وأولاد مريم، وكانت حنيفة وفيدانه قد وقّعتا على التنازل، كلّ هذه الأوراق لا قيمةَ لها الآن، بقيت الأوراقُ، وصار البيت ملْكاً لكَ، ولكنّه لم يعد موجوداً الآن.

لا بيتَ يأويني الآن، يا نبي، ليتني متُّ مع أغراضي، وعلقتُ تحت الأنقاض، لماذا أبقاني الله؛ ليقهرني، ويذلّني؟ أنا ناهضة الآن للوضوء والصلاة، الآن تستيقظ اعتماد، هي أيضاً تفيق للصلاة، سأُصلّي وأطلب من الله أنْ يأخذ روحي، لأنتهي من هذا العذاب.

اليومُ التالي لسقوطِ البيتِ

نعم، لم أنمْ، انتظرتُ ضوء الصباح، وكأنّني أنتظر خلاصاً ما من عذابي. أمضيتُ اليوم كلّه في تلقّي الاتّصالات، الأولادُ يريدونني أنْ أتركَ البلاد، نعم، سأفعلُ، لم يعدْ لديّ مأوى هنا. مُجبَرَةٌ أنا على الرحيل، كما سافر حسام مُرغَماً، خوفاً من الاعتقال أو القتل، سأغادر أنا، بحثاً عن جدران تأويني، بعد سقوط جدران بيتي.

اعتماد لطيفة، لكنّني أخجل منها. أنتظر كالقطّة المسكينة أنْ تأتي اعتماد بالطعام، فأغصّ في كلّ لقمة. آكل من شدّة الإحساس بالجوع، والجوع أمرٌ إنسانيّ، وأنا مليئة بالأمراض: السّكّر والضغط، وقلبي الذي يعمل بمضخّة إلكترونيّة، يجب أنْ أتناول الطعام، لأتمكّن من أخذ دوائي. ولكنّني أشعر أنّني عبءٌ على اعتماد وزوجها. أستعجلُكِ، يا بنتي، بإجراءات السَّفَر. يقولون هنا: إنّني لا أستطيع السَّفَر بجواز سَفَري السابق، لأنّه يحمل خَتْمَ الجيش الحُرّ، حيث سافرتُ قبل عامين لأراكِ في تركيا، ومررتُ عبر حواجز الجيش الحُرّ، النظام سيعاقبُني، وأنا امرأةٌ عجوز، لأنّني عبرتُ عبر الجيش الحُرّ، أجمع الأصحابُ هنا على ضرورة استخراج جواز سَفَر جديد، لأغادر عبر الحدود الرسميّة إلى بيروت، لأنّ المعابر التركيّة مغلقة، هذا يعني السَّفَر عن طريق النظام، وخَتْم رسميّ لجواز جديد، لا يحمل أختام الجيش الحُرّ، سأكذبُ، يا بنتي، وأنا العاجزة عن الكذب، سأقول: إنّ جواز سَفَري ضاع، واختفى تحت أنقاض البيت. في الحقيقة،

ذَهَبَ عبد الرحمن هذا الصباح، وتسلّل إلى البيت، بين ركام الحجارة، وتمكّن من فتح الخزانة المحاطة بالحجارة، وكان قلبه يرتجف من الخوف، أيّة حركة قد تجعل الحجارة تنهار فوقه، لكنّه تحمّل المخاطرة، لإنقاذ أوراقي التي ستُساعدني على السَّفَر، وإنقاذ بعض الوثائق من أجلِكُم ذات يوم: دفتر العائلة، أوراق ملْكيّة البيت، وهويّتي الشخصيّة، جاء عبد الرحمن ظافراً بكيس، أضعُ فيه هذه الأوراق، وأعرفها رغم أنّني لا أجيد القراءة، كما أعرف التمييز بين دواء الضغط ودواء السّكّر ودواء القلب، وجدتُ جواز سَفَري داخل الكيس، لكنّني سأكذب، لأستخرجَ جواز سَفَر جديداً، قالوا لي ألا أتحدّث، لأنّني لا أعرف كيف أكذب، وسأقول كلاماً معاكساً حين أقف أمام موظّف الجوازات: جوازي عليه ختم الجيش الحُرّ، وهذه ليست مشكلتي، أنا امرأةٌ طاعنةٌ في السّنّ، ولا علاقة لي بالجيش الحُرّ، ولا جيش النظام، وربمّا أصرخ في وجهه، وأشتمه، وأشتم رئيسه، فأنا المجنونة التي لا تخاف سوى من الله وحافظ الأسد!

أمضينا النهارَ بالاتّصالات، اتّصلتِ بي عشرات المرّات، وأنتِ تُطمئنينني وتُحَلّين العالم في عينَيّ: غداً تأتين إلى تركيا، وأنزل من فرنسا، لأجلس معكِ، هناك لا تنقطعُ الكهرباءُ، ويوجد ماء وحمّام وتواليت، تَستحِمّين وتتوضَّئين، وسآخذكِ إلى طبيب جديد في تركيا، ثمّ سأسعى إلى جَلبكِ إلى فرنسا، كنتِ تُزيِّنين لي العالمَ، وأنا أبكي وأشهقُ كطفلة يتيمة، فَقَدَتْ أباها للتّوّ، كنتُ يتيمةً بشدّة، ووحيدة.

أرسلتْ نائلة بعضَ المال، وباع عبد الرحمن بعضَ الأغراض التي أنقذَها من بين الأنقاض، وصرنا جاهزين لإجراءات استخراج البسبور.

كنتِ أنتِ وسُها تحاولان الاتّصال بمكتب الطيران في مدينة مرسين، لحَجْز طائرة تأتي بي من بيروت، ورحنا نُناقش إمكانيّة أنْ تنزلي إلى بيروت

لتأخذيني، كنتُ خائفة، أخاف من الطيران، ورحتِ تؤكّدين لي أنَكِ ستدفعين المزيد من المال، للاتّفاق مع شركة الطيران، لتأمين مضيفة تُرافقني من مطار بيروت حتّى مطار أضنة، لتأتي سُها، وتأخذني بالباص إلى مرسين.

كثيرٌ من الكلام والتفاصيل، وقلبي مُتعلّق بحلب، أُجبر نفسي على قبول هذه الحقيقة: عليّ تَرْكُ حلب، ليس لديّ مكانٌ هنا!

بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ:

لا جديدَ في الأيّام السابقة سوى الكلام والكلام، وإجراءات السَّفَر. اليوم شعرتُ بتحسُّن في صحّتي، استيقظتُ باكراً، أعني نهضتُ، فأنا، تقريباً، لا أنام، وتوجّهتُ إلى بيتنا.

تذكّرتُ أنّني تركتُ المفتاحَ على الباب، أحسستُ بغصّة في قلبي. وقفتُ أمام الباب الممدَّد على ظهره على الأرض، محاطاً بالحجارة، وعرفتُ أنّه من المستحيل أنْ أستطيعَ قَلْبَهُ، واستخراجَ المفتاح.

يا إلهي، لقد سرقوا كلّ شيء، ثلاثة أيّام فقط، واختفت الأغراض: غسّالة الكهرباء - الخزانة - فرن الغاز - ماكينة الخياطة - التلفزيون - الأريكة في الصالون، كلّ شيء ..

كانت تظهر الأغراضُ من بين الحجارة، رأيتُها وأنا أغادرُ الحارة، لكنْ، الآن لم يبقَ شيء، حتّى حنفيّات البيت، فَكّوها، وسرقوها!

لم يبقَ سوى الحجارة وأسياخ الحديد تمدّ أجسامها كأفاعٍ عالقة في البيتون، سرقوا كلّ شيء، انفجرتُ بالبكاء من جديد.

استندتُ على الجدران، جدران بيت أمّ حسين، ومشيتُ ببطء، حتّى بيت فطّوم الياقديّة. قلتُ لها: إنّني أريد الاستحمام. كان قلبي يُحدِّثني أنّه آخر حمّام لي، وأنا على قيد الحياة.

خجلتُ من الاستحمام في بيت اعتماد، ربّما لا تعرفين أنّ اعتماد لا تعيش وحدها، لديها غرفة هي وزوجها في الطابق السفلي، حيث استضافتْني، ولكنّ طابق المعيشة في الأعلى، مشترك مع حماتها وبنات حميها وسلائفها ..

كانت المسكينة تأتيني بالطعام من فوق، لأنّني لا أستطيع صعود الدرج، كما أنّكِ لا تعرفين أنّه لا وجود للتدفئة في غرفة اعتماد، هناك مدفأة واحدة في البيت كلّه، في الطابق الأعلى، تجتمع حولها العائلة، كانت اعتماد تنام في الغرفة الباردة من أجلي. وصارت تأتيني بمدفأة كهربائيّة، رغم غلاء الأمبير.

استحممتُ في بيت فطّوم، وأمضيتُ يوميَ قرب البيت، أؤجِّل عودتي إلى بيت اعتماد، حتّى أرى البيت مجدّداً، نعم، أقصد بيتَنا، أو ما كان بيتَنا، بعد أنْ صار كومةَ حجارة.

السادسَ عشرَ من ديسمبرَ:

أنا ثقيلةٌ عليهم، أريد أنْ أذهبَ من هنا بكرامتي، لم أعدْ أعرف أين أحفظُ كرامتي أكثر: في تَرْك حلب، والذهاب إلى تركيا، والتّشرّد في بلاد، لا أعرفها، وأنا امرأةٌ طعنتْ في السّنّ، ولا تحتمل المغادرة، أو مغادرة بيت اعتماد المسكينة التي صرتُ عبئاً عليها، وليست مُجبرة على تحمّلي.

حملي ثقيل، ولكنْ، عليّ أنْ أخفّف عن اعتماد، لا أعرف موقفها أمام أهل زوجها، ربّما أُحرجُها بوجودي، مضى أسبوع على إقامتي في بيتها، وهي تعرف أنّ هذا الأمر مؤقّت، وتنتظر أنْ أستخرجَ وثائقَ السَّفَر، لأذهبَ إلى بناتي.

كنتُ أتمنّى لو أنّني متُّ تحت أنقاض البيت المنهار، حتّى لا أتعرّض لهذه المواقف: أنْ أُجبَر على تَرْك حلب، قلبي يكاد يخرج من صدري، كلّما تخيّلتُ أنّني سأغادر دون رجعة، وسأموت في بلاد العالم الغريب.

أنا خائفةٌ من السَّفَر، خائفةٌ أنْ أموتَ في الطريق، ويدفنوني في أرض بعيدة.

لكنّني مُجبرَة، أين أبقى هنا؟ لم يبقَ لديّ بيت ولا مأوى ولا أهل، كلّ أقاربي سافروا، حتّى سِلْفَتي، زوجة عمّك التي تعيش في حلب نزحت مع كامل بناتها وأبنائها وأحفادها إلى ديار بَكْر، فَقَدَت المسكينة ابنَها في الجيش، قَتَلُوه، ولم ترَ جثّته، ولم يُخبرها أحدٌ أنّه مات، لكنّه تبخّر منذ ثلاث سنوات، وهو يخدم الجيش إلزامياً.

هي لديها صبيان وبنات وأصهار ذهبوا معها، أنا وحدي. كيف أضع همّي في بيت ابنتي التي تزوّجتْ رغماً عنها، لتجدَ مأوى هناك؟ أعرف أنّ نائلة لم تكنْ ستختار إسماعيل، لولا الحرب، إسماعيل التقليديّ، القديم، كأبيها، وهي التي كانت تستعملُ أرقى ماركات الماكياج والعطور، وتخرج من الحارة كأميرة، وكأنّها من بنات الذوات. نائلة التي أمضتْ سنوات في العمل كخبيرة ماكياج وموضة، تضعُ حجاباً بخس الثمن، وترتدي الأثواب الطويلة كالقرويّات اللواتي كانت تنظر إليهنّ باستعلاء، وقد رمتْ كلّ زينتها وعطورها، وأذعنتْ لزواج يأويها، كي لا تتشرّدَ في شوارع غازي عنتاب، وينهشَها الرجال.

كيف أذهب إليها، وهي المنكسرة التي فَقَدَتْ أحلامَها في زواجٍ عاطفيٍّ رومانسيٍّ أنيقٍ من أحد أصدقائها الكُثُر الذين كانت تخرج برفقتِهم في المطاعم الفاخرة، وتركب السّيّارات الفخمة، الآن تعيش يوماً بيوم، من أجل البقاء في الحياة، لا أكثر.

والأخرى سُها، تنتظر حصول زوجها على الإقامة في السويد، لن تستطيعَ استقبالي أكثر من شهور قليلة، إذ ستلحقُ بزوجها، وأنتِ في فرنسا، وقد عجزتِ عن تأمين فيزا لي، لأحضرَ إليكِ. أراكِ تخبطين يداً بيد، وتمُسكين بالفراغ، أين أذهبُ بنفسي، وحسام ما يزال متشرّداً بين البلاد، ولم يحصلْ على إقامتِه، لألحقَ به؟.

أخواتي العاقّات، رتّبنَ أمورهنّ بينهنّ، وصرنَ جميعهنّ في ألمانيا، وتخلّينَ عنّي. أختي التي كانت منذ سنوات طويلة هناك، استجلبتُ نصف العائلة: أخويها، نعم، أخويّ، وأخواتها، وأولاد الأخوات، ثمّ قالتْ لي: لقد تأخّرتِ، يا أمينة، لم يعدْ يحقّ لي طَلَب أيّ فرد جديد من عائلتي.

الأفكار تدور في رأسي، وتُطوِّح بي، كأنّني في أرجوحة، تهتزّ بسرعة،

ذَهَبْتُ أحمل مرضي وشيخوختي إلى مبنى الجوازات، صعدتُ السلالم، وأنا أسير على روحي من الألم، أنا عاجزة عن الذهاب إلى التواليت من شدّة المرض والإرهاق، أجبروني على صعود الطوابق الكثيرة، لأوقِّعَ طلَبَ جواز السَّفَر.

أشهقُ في كلّ درجة، أصعدها، كأنّ روحي ستخرج من صدري، عدتُ من إدارة الجوازات ألهثُ، وقد انقطعتْ أنفاسي.

كنتُ أشعر بالألم في صدري، والإحساس بالغثيان، وألم شديد في معدتي. لم أصدِّقْ أنّني وَصَلْتُ إلى بيت اعتماد، كنتُ أرتجفُ من الألم والتعب، لم أتناولْ لقمةَ طعامٍ، طلبتُ من اعتماد أنْ تغلي لي بعض الكَمُّون، ليهدأ ألمُ أمعائي، جاءتْني اعتماد بكوب الكَمُّون المغلي، وضعتُهُ إلى جواري، ودخلتُ المرحاضَ، لتعودَ وتجدَ كوبَ الكَمُّون على حاله، ما يزال ساخناً، لكنّني فارقتُ الحياة.

متُّ وحدي غريبةً في بيت الجيران. ولم أرَ أحداً من أولادي أو أهلي، متُّ غريبةً، ليدفنَني الأغرابُ.

ربّما يكون موتي هذا رحمةً من الله، حتّى لا أتشرَّدَ، أو ربّما عاقبتُ نفسي بأنْ تمنَّيتُ موتي حتّى تَحقَّقَ، لأنّني لم أحافظْ على الأمانة التي تَرَكَهَا أبوكم: البيت الذي ضاع منّي.

السابع عشر من ديسمبر: حمامُ الموتى

تركوني وحدي طيلة الليل، كان جسدي بارداً بشدّة، لا لأنّ الغرفةَ باردةٌ، بل لأنّ دمي تجمّدَ أيضاً. وكانت الكدماتُ الزرقاءُ تحيطُ بجبيني، أتراها جلطة دماغيّة، أنهتْ حياتي؟ لا أعرف، لكنّني، وبحمد الله، لم أتألّم، بل أحسستُ براحة عميقة، وأنا أموتُ هنا، تخيّلي لو أنّني متُّ في الباص الذي سينقلني من حلب إلى بيروت؟ أين كانوا سيدفنونني؟ أو لو متُّ في مطار بيروت؟ أو في الطائرة إلى أضنة؟ أو في الباص من أضنة إلى مرسين؟ أو في الطائرة إلى غازي عنتاب؟ أو في سيّارة إسماعيل منذ غازي عنتاب إلى أورفا؟

ليس الموتُ أمراً مقبولاً بجميع الأحوال، لكنّه حَلٌّ أحياناً، لقد متُّ هنا، وهذا أمر جيّد، أي أنّني في نهاية حياتي سأُدفَنُ هنا في حلب.

كأنّني مختارة الحارة، كان عَيباً عليّ أنْ أموتَ خارج الحارة، بل لقد سمعتُ اعتماد تتحدّثُ إليكِ على الهاتف، ناقلةً نبأ موتي: أين ندفنُها؟ من الصعب نَقْلها إلى مقبرة القرية، الظروف الأمنيّة لا تسمح، هل تقبلين بدَفْنها في حلب؟ كانت تسألكِ لأنّكِ البكْر، وأنتْ تُقرّرين، ولأنّ ماهر لم يهتمّ، ولم يتّصل، وقد أدار ظهرَهُ تماماً لكلّ شيء، منذ غادر إلى هولندا، حتّى إنّه أحرق قلبي دون أنْ يمنحني متعةَ سماعِ صوته مرّة واحدة، قبل أنْ أموتَ.

قلتِ لهم أنْ يدفنوني في حلب، وقلتِ إنّ ما يهمّكِ هو تأمين قبرٍ

لائقٍ بي، سيدفنونني في الصباح، أنا أرتجفُ من البرد، وروحي تُرفرفُ فوقَ جثّتي الملفوفة بأغطية اعتماد، أنتظر دفء القبر في الصباح.

جاؤوا لأخذي في الصباح، الماء دافئ، أشعر بارتياح يغمرني.

أستلقي على المُغتسل، أرى أختي صبيحة وابنتَيْها منى واعتماد، ومعهنّ عزيزة بنت فطّوم، يقفنَ خلف المرأة الغريبة التي تُغسّلني، يُناولْنَهَا الصابون والليفة وأكياس التفريك، تُقلّبني المرأة على بطني، لتغسِّلَني من ظهري، تغطّي نصف جسدي بشرشف أبيض، من صدري حتّى ركبتيّ، تُعيد قلبي بمعونة البنات الثلاث، وتدعكُ شَعْري مُطوّلاً بالصابون، ثمّ تناولُ البناتُ المرأةَ مناشف بيضاء، تُنشِّفُ جسمي وشَعْري، وتُجفِّف حتّى المغتسل، ثمّ تلفّني في قماش أبيض، وتتركُ وجهي مكشوفاً، لتودّعني الصديقات والقريبات ..

صمتٌ كبير، لا أصوات سوى صوت الماء، والمرأة.

أتذكّر تغسيل عمّتك حنيفة ..

كان طقساً ساحراً، تمنّيتُ أنْ تُغسِّلَني إحداكنّ، أنتنّ بناتي الثلاث البعيدات.

حين ماتتْ حنيفة، طردتْ عمّتُكِ فريدة النساءَ المجتمعات في غرفة الغسل، وبقيتْ وحدها، وتركتْني فقط أتفرّج عليها، كانت تدخِّنُ وتُغسِّلُ أختَها برفقٍ، تغنّي لها ،وهي تدلقُ طاساتِ الماء على جِلْدِهَا الأبيضِ الورديِّ، وكأنّها ليست ميتةً.

أنا: كفنٌ أو تابوتٌ؟ اغترابات متتاليةٌ: كرةُ الغربةِ الثلجيّةُ

أحسد أمّي، لأنّها ماتتْ في بلدها. قبل أنْ تقوم هذه الحرب، كنتُ أكتب نصّاً طويلاً عن المكان الذي أريد أنْ أُدفَنَ فيه. رغم خياري الفكريّ لأوروبا، حيث حُرّيّة الكتابة والتعبير، لكنّني دوماً أشعر أنّني أعيش غريبةً، هذه الغربة التي دخلتْ في الكثير من رواياتي، وأحسّ بأنّني أنوس بين المكانَيْن، حيث العقل في أوروبا، والروح في تلك البيوت.

حين كنتُ في سورية، كنتُ أقولُ لأمّي أنْ يدفنوني تحت شجرة التوت، قبالة بيت عمّي المختار، في التّلّة، حيث يظهر بيتُهُ، ما إنْ نصل من الشارع العامّ، الشارع الإسفلتيّ، فنقطع الطريقَ الترابيّة صاعدين صوب التّلّة. كنتُ أريد أنْ أُدفَن في مكان مرتفع، تطلّ فيه روحي على العالم، ثمّ غيَّرتُ طَلَبي، وقلتُ لأمّي أنْ يدفنوني جوار جدّتي حليمة، إذ تسير بعض عاداتنا في دَفْن أولاد العائلة في القبر نفسه، إذا فات على الميت السابق وقتٌ طويلٌ، حيث دفنوا عمّتي حنيفة قرب أمّها، ودفنوا بعدها أبي هناك.

أحسد أمّي أنّها مدفونة في بلدها، حتّى إنْ أشرفتُ على غسلها وتحضير كَفَنها امرأة مأجورة لهذا العمل، ولكنّها، أيضاً، لم تُحرَم من بعض معارفها الباقيات هناك: أختها وبناتها وجاراتها ..

أمّا أنا، فأحتار دوماً، أين أريد أنْ أموتَ؟. وقد حسمتُ رغبتي في نهاية حَيْرتي بأنْ أُدفَن حيث أموتُ، ولأنّني كثيرة الترحال، بسبب مهنتي، فإنّني قد أموتُ في أيّ بلد، أكون فيه: بلد عربيّ، أو غربيّ.

ولكنّ الحَيْرة الأكبر أمامي هي كيف سيدفنونني؟ هل يضعونني في كَفَنٍ كأمّي وأبي وكل أفراد عائلتي، وفق الطقوس الإسلاميّة؟ وأنا أعيش مع رجل، تختلف ثقافته عن هذا العالم، حيث ثقافة التابوت، لم أرَ أحد أقاربي ميتاً يوماً، ولم أحضرْ دَفْن أحد، الجنازة الوحيدة التي حضرتُها كانت في فرنسا، حين ماتتْ ساندرين، وصَدَمَني شكل الموت.

زيّنوا ساندرين، وألبسوها ثوباً جميلاً، واستلقتْ في التابوت، كأنّها نائمةٌ، وجهها مكشوف، ويداها، وما تزال آثار الطلاء على أظافرها.

هل سأُدفَن هكذا؟ هل سيدفنُني فيليب، كما يعرف، ويضعُني في تابوت؟

في نصِّي الطويلِ ذاته، كَتَبْتُ كيف أنّني أستلقي في مقبرة فرنسيّة، وأسمعُ الثرثرات بهذه اللغة حولي، وأنا المغرمةُ باللغة العربيّة، سأمارسُ اغترابي بعد موتي من جديد، حيث يشهقُ قلبي فرحاً وأنا أتحدّث باللغة العربيّة، وأسمعُها في الشوارع ووسائل المواصلات، في البلاد العربيّة التي مَنَحَتْني الكتابةُ فرصةَ الذهاب إليها.

صحيحٌ أنّ أمّي ماتت وحيدة، لكنّها مُحاطة بصديقاتها ومعارفها. أتأمّل شواهد القبور المحيطة بها، سيّدات لا بد أنّهنّ التقينَ بأمّي ذات يوم، قريبات منها، من عالمها.

أيّ عالم يشبهُني أنا؟ حيث غرَّبَتْني الكتابةُ، ووَضَعَتْ حاجزاً مبكراً بيني وبين الناس هناك في بلدي، ثمّ وجدتُ حواجزَ أخرى بيني وبين الناس هنا، في البلد الجديد.

في فرنسا يرونني شرقيّة مسلمة، وفي سورية، كان أغلب معارفي يرونني كرديّة مغايرة عنهم، ولدى الأكراد أنا مستعربة، أكتب بالعربيّة، وكأنّني مُنشقّةٌ أو خائنةٌ قوميّتي.

أنا التي في كلّ لقاء أو مؤتمر ثقافيّ أتحدّث عن هويّتي ككَاتبة، وأتحدّث عن تناقضات الانتماءات، واختياري لانتماء واحد، هو الرواية.

أين يُدفَنُ الروائيّ، إذنْ؟ وكيف؟

صباحُ الخيرِ، أيّها السلاحُ

سِحْرُ الجيشِ الحُرّ

كما في مسلسل تشويقيّ، حيث يعشق المُشاهدُ ذلك البطلَ القادمَ لإحقاق الحقّ، البطل الذي لا بدّ له من السلاح، لاكتمال مشهد البطولة، حتّى الدونكيشوت المُصاب بأمراض المخيّلة كان يحمل سلاحاً صَدِئاً وخوذةً من الكرتون، ويركب حصاناً هزيلاً، لكنّ تلك الأدوات تبقى مُكمِّلة لمشهد الفارس: السلاح - الخوذة - الحصان، وكأنّها إكسسوارات، لا بدّ منها لرَسْم البطولة.

هكذا لعبت البطولة دورَها في نفوس الشباب المتحمّسين لنصرة الحقّ، كان أغلبُهم دونكيشوتيين، فرساناً نبلاءَ، يبحثون عن (دولسينيّة)(*).

في بداية تشكيل الجيش الحُرّ، كان الأهالي متحمّسين له، ومتشبّثين باسمه، وكأنّه رمز للخلاص، كان الأطفال يتخيّلون الجيش الحُرّ وكأنّه شيء مختلف عن العالم. كما يتخيّلون مثلاً بابا نويل الذي يتسلّل عبر المدخنة لجَلْب الهدايا، هكذا رَبطَ الصغارُ مفهومَ الجيش الحُرّ بالخرافة إلى حدّ ما، وتعلّق الكبارُ به، وكأنّه المُعادِل لأحلام العدالة والإنقاذ من بَطْش النظام.

حين خَرَجْتُ مرّة في تظاهرة في الحارة، تسلّل أصحابي من الجيش الحُرّ، وهمسوا لنا، نحن المنظّمين، لإنهاء التظاهرة، حيث لديهم معلومات باقتحام الأمن لنا واعتقالنا، فتفرّقْنا على الفور، واختفى عناصر الجيش الحُرّ، وقد جاؤوا إلينا بملابس مَدَنيّة.

---

*) الاسم الذي أطلَقَهُ دونكيشوت على حبيبتِهِ التي راح يبحثُ عنها

في الطريق، سألني الأولاد: ولكنْ، أين الجيش الحُرّ؟ لماذا لا يأتون إلينا؟ فقلتُ لهم: بلى، كان أفراد الجيش الحُرّ معنا في التظاهرة اليوم، فالتمعتْ عيون الأولاد بالفرح والدهشة، وراحوا يُحلِّفونَني، إذ اعتقدوا أنّني أخدعُهم: أُقسمُ أنّهم كانوا هنا، طيّب، لماذا لم تُخبرنا؟ لماذا لم نرَهُم؟ كيف كان شكلُهم؟ ماذا كانوا يلبسُون؟؟ يا إلهي، لماذا لم تُخبرْنا؟ كنّا نريد أنْ نُسلّم عليهم، ونتحدّث معهم.

انهالتْ عليّ الأسئلة من الصغار، وكانوا يحلمون برؤية الجيش الحُرّ ولَمْس أفراده، وكأنّهم يحلمون بالقدّيسين والأنبياء.

كان الجيش الحُرّ يملك مهابة وقيمة لدى الناس، وكانوا يؤمنون به كشكل من أشكال الخلاص.

حافظ الأسد أيضاً

لستُ حمقاء كما تظنّونني، أنا أذكى منكم جميعاً، نعم، أحبّ قول الحقيقة في وجه الإنسان. نائلة قَرَصَتْني من فخذي خلسةً، حين قلتُ للحاجّ محمود: إنّني أحبُّ الجيشَ. قلتُ له: هؤلاء مثل أولادي، لهم أمّهات أيضاً، يَخفنَ عليهم. وأخبرتُ الحاجّ محمود الذي حملقَ بي غاضباً، ثمّ أتى بحَرَكَةٍ بيده، كأنّه يُقلِّدُ أباكِ حين يقول مُحرَجاً: أمينة مجنونة. قلتُ للحاجّ محمود: البارحة محمود، نعم، اسمه محمود، عسكريّ من إدلب، يحمل اسمَكَ، قال لي وأنا أناولُهُ زجاجة الماء: يا خالة، نحن عساكر مأمورون، مو طالع بإيدنا شيء. والله، يا خالة، أتمنّى أنْ أعود إلى بيتي، وأنْ تتوقّف الحرب. نعم، يا حجّ محمود، نظرتُ في عينِه، ورأيتُ أمّه المنكسرة الحزينة. ليس كلّ الناس لديهم شجاعة حمل السلاح ضدّ النظام. هذا شابّ فقير، جنّدَه النظام رغماً عنه، وسيضعُ رصاصةً في رأسه، إنْ رفض، وأنا أعرف أنّكم ستقتلونه، أنتم المعارضين. وأنا أقولها في وجهكَ، وتعرفني، أنا لا أخاف من الحقيقة، أنا مجنونةٌ، إنْ رغبتَ، لكنّني مُستعدّة لحماية هذا الشّابّ منكم. إذا جاء أحد صحبكَ لقتله أمامي، فسأحميه، كما أحمي يُسر ابنكَ، إنْ لمسَ أحدٌ شعرةً من رأسه، أنا لا أفهمُ في قصّة المعارضة والنظام، كلّهم بالنسبة لي مثل ابني حسام، كلّهم مثل يُسر، أضعُهُم في قلبي، وأحزنُ، إنْ جُرحَتْ إصبع أحدهم.

وبّختْني نائلة في البيت، قالتْ لي: إنّها لن تذهبَ معي إلى أيّ مكان

بعد الآن. قالت: إنّني لا أُحسنُ التّصرّف، وإنّني أُعرِّض نفسي للخطر، وأُعرِّضها معي للخطر: كيف تقولين أمام محمود إنّكَ تحبّين الجيشَ؟ وراحتْ نائلة تبكي، وتشرح لي: عليكِ أنْ تفعلي العكس، يا أمّي. كيف تقولين للعسكريّ على الحاجز: والله، لا يكسر عينكم سوى الجيش الحُرّ؟! أنتِ فقدتِ عقلَكِ، يا أمّي.

قلتُ لها جملتي التي التقطتُها ذات يوم، لا أذكر كيف، حين سمعتُ كلَّ مَنْ حولي ولا سيما والدكِ وأصحابه يتحدّثون عن شيء مخيف جدّاً، يُدعى حافظ الأسد، قلتُ لها: يعني مين الحجّ محمود، حافظ الأسد؟

أنتِ شرحتِ لي طويلاً ذات يوم: حافظ الأسد اسمٌ، وليس شيئاً أو مهنة أو حيواناً، هذا اسمٌ لرجل، لكنّه رجلٌ مخيفٌ، يستطيع أنْ يفعل كلّ شيء. سألتُكِ: يعني مثل الأسد؟ يستطيع أكْلَ الحيوانات والبشر؟ هززتِ برأسكِ، وأريتِني صورتَهُ على دفتركِ: انظري، هذا حافظ الأسد! نظرتُ إليه مستغربة، كان رجلاً عاديّاً مثل بقيّة الرجال، مثل أبي وأبيك وكل الرجال، له عينان وأنف وفم، لم يكن غولاً، كما كنتُ أتخيّله، أو يحمل رأس حيوان، أو أفعى، نعم، هذا يهمّكِ من أجل كتابكِ، صِفي هذا: كنتُ أعتقد أنّ (حافظ الأسد) كائنٌ غيرُ بشريّ، حيوان ضخم مثل التّنّين، له عدّة رؤوس، وله قرنان، وثمّة أفاع، تخرج من جسده، وتلدغ البشر، وكنتُ أقول لنفسي: لن أخافَ إذا ظهر لي حافظ الأسد. كان حافظ الأسد هو أقصى أشكال الخوف الممكنة التي أتخيّلها. تعرفين أنّ أباكِ أخافني كثيراً، كان أبوكِ يستمتعُ بتخويف الآخرين، كان يضحكُ وهو يدبّر المقالبَ والمؤامراتِ ضدّنا في العائلة، وكنتِ تكرهين مباغتَتَهُ لكِ، وأنت تسترخين أمام التلفزيون، تمدّين ساقَيْكِ أمامكِ، حين فجأةً يضرب بالعصا على قَدَمِكِ، وأنتِ غارقةٌ في التلفزيون، فتقفزين خائفةً ملدوغةً، لا تفهمين ما حَصَلَ، فيغرق هو في الضحك.

أعتقد أنّه حدّثني طويلاً عن (حافظ الأسد)، أنّه هدّدني به: سأجعل حافظ الأسد يأكلُكِ دون ملْح، ويفصلُ لحمَكِ عن عظمِكِ، لقد أذابَ حافظ الأسد أحدَ أصدقائنا بالأسيد، وكنتُ أتخيّل كيف ذاب الرجل كأنّه مصنوع من ملْح، وتحوّل جسده كلُّه إلى سائل حارق ..

لهذا لم أكنْ أخاف من قول كلمتي، طالما أنّ كلَّ مَنْ أمامي، ليس بعد (حافظ الأسد)، فإنّني أستطيع مواجهة الآخرين.

نعم، قلتُ للعسكريّ الوقح هذا، أنا في عمر أمّه، بل ربّما في عمر جدّته، راح يسخر منّي، ويحاول إخافتي بالرشّاش الذي يحمله. لقَّمَ سلاحَهُ، وصوَّبَهُ نحوي، وأنا أخاف من السلاح، خفتُ فعلاً، وتذكّرتُ مزحَ والدِكِ الثقيلَ، كان يمزح معي هكذا، يُلقِّم السلاح صوبي. أنا لم أنسَ ما حَصَلَ حين كنتِ رضيعةً في حضني، لم يكن لدينا غيركِ، كان والدكِ يُنظِّف المسدّسَ، وكان جالساً قرب المدفأة قبالتي، وأنا أضعكِ في حضني على الأريكة، وأرضِّعكِ، حين رحتُ أصرخ به: ضع هذا الخراء جانباً، أو اخرجْ، ونظِّفْهُ في أرض الدار، وراح يضحك، إلى أن انطلقتْ رصاصة، استقرّتْ في المخدّة، تحت رأسكِ. تجمّدتُ من الخوف، بينما لم تشعري أنتِ، بأيّ شيء. بل تابعتُ الضغط على ثديي. وأحسستُ بالحياة تتدفّق من ثديي إلى جوفكِ، نظرتُ إلى أبيكِ، وقد امتقعَ لونه، ولأوّل مرّة سمعتُهُ يتحدّث بجدّيّة: لو أنّ الرصاصة اخترقتْ جسد مها، أو جسدكِ، لانتحرتُ!

ولكنّه لم يتوقّف عن العَبَث بالمسدّس فيما بعد، وكأنّه لعبةٌ. كان يستعرض رجولته بمسدّسه هذا، ويحسّ معه بالقوّة. تذكرين حين صوَّبَهُ على رأس عليّ زوج عمّتكِ؟ أنتِ بكيتِ من الخوف، أعرفُ أنّكِ لم تخافي من المسدّس، حكيتِ لي لاحقاً، أنّك خفتِ من خوفي. الصوت الذي أطلقتُهُ مناديو على عمِّك: منّان .. كادت صرختي تهزّ البيت. قفز عمّكِ

من السطح، ولم ينتظرْ نزول الدرج، ونطّ قرب أبيكِ، ليُبعدَ المسدّس عن رأس عليّ عبدو. أنتِ مثلي تكرهين المسدّس، وتقولين إنّ لديكِ رواية تسمّينها (مسدّس أبي)، انشريها، حتّى يفهمَ العالم كيف يُخرِّبُنا الخوفُ من السلاح.

حين لقَّمَ العسكريُّ على الحاجز السلاحَ، ووجّهه عليّ مازحاً، ليحصلَ على إعجاب نائلة. الله يقصف عمرها، كانت تصفّف شعرها، وتتمكيجُ، وكأنّنا في عرس، ولسنا في حرب. والعرصة أراد لَفْتَ انتباهها، عابثاً بالسلاح، فقلتُ له غاضبة، وتعرفينني لا أستطيع إمساكَ نفسي عن الكلام: والله، لا يكسر عينكم سوى الجيش الحُرّ، وهدّدتُهُ: أصلاً أصدقاء ابني كلّهم من الجيش الحُرّ، سأخبرُهم عنكَ، وسينكحونَكَ. ما هذه اللفظة، يا مها؟ لماذا تكتبين، تُحوِّرين كلامي؟ هل أنا أقول: "ينكحونكَ"؟ اكتبِيها كما قلتُها. أف، تخجلين، طبعاً، فأنتِ خرّيجة أوروبا، ولست ابنةَ هذا الحيّ الفقير، ولم تَرضعي من ثَديَي هذَيْن، أنا المرأةُ التي تقولون عنها مجنونة، حين تشعرون بالحرج!

على فكرة، أنا أفهم أكثرَ منكم جميعاً، أنا لم أذهبْ إلى المدرسة ولم أتعلّم النفاقَ والطَّبْطَبَةَ، ولا أفهمُ في السياسة، وأتحدّى أنْ يفعل أحدُكم مثلي: أنْ يشتمَ الجيش الحُرّ في وجهه، ويشتمَ جيشَ النظام في وجهه. أنتم تفعلون العكسَ، كما طلبتْ منّي نائلة: يجب أنْ أقول للحجّ محمود: إنّني مع الجيش الحُرّ، وجيش النظام، إنّني مع بشّار الأسد، لن أقول هذا، حتّى لو علّقوا مشنقتي، ولكنْ، فقط ليُبعدوا هذا المسدّس عن وجهي!

هؤلاء هم الجيش، يا مها، شباب مساكين، والله، يمزحون معي، ويضحكون حين أشتمُهُم، ماذا فَعَلَ العسكريّ على الحاجز؟ لم تُخبركَ نائلة، نعم، العسكريّ عَلَوِيّ، وأنا لا تهمّني هذه الأشياء، عَلَوِيّ ودرزيّ

وشيوعيّ، ماذا؟ شِيْعيّ؟ نعم، اكتبي أنتِ اللفظَ الأصحّ، أنتِ كاتبةٌ، ولستُ أنا. المهمّ، ضحك الشّابّ حين قلتُ له: خلّلي رفقات ابني من الجيش الحُرّ ينيكوا أختك! برافو، هكذا لفظتُها، اكتبيها بوضوح، يا بنتي. ضحك الشّابّ حتّى ضرطَ، لم يقتْلني، ربّما عَدَّني مجنونة، لا أعرفُ، لكنّه ضحكَ، وقال: والله، يا خالة، أنت مثل أمّي، ولم يرفع العَرْص عينَهُ عن نائلة.

أمينةُ النيئةُ

من أناشيد الطفولة العالقة في ذهني، ولا أعرف كيف كنّا نخترع تلك المتطابقات اللغويّة، أذكر ورود اسم أمّي في بعضها، مثلاً: أمينه، دقّي الكبّة وطَعْمِيْنا.

كانت أمّي مُغرَمَة بالكبّة بالمصادفة، وكان البرغل من أهمّ المواد التي يجب أنْ تكون في وجباتها، وربّما كان الغرام بالبرغل تقليديّاً في عائلتي، فعمّي الكبير حسين، مختار القرية، كان يفيق، ليسخّنَ صحناً من البرغل، يأكلُهُ كطبق فطور، وحين كان يزورُنا، وتحضّر أمّي فطور الصباح الدارج: الجبنة والزيتون والمكدوس، كان ينظر إلى المائدة خائباً، ويقول لأمّي: أمينة، هذه الأشياء لا تملأ بطني، أريد برغلاً، إلى أنْ صارت أمّي تنفّذ رغباته لاحقاً دون نقاش، فتأتي بصحن المجدّرة البائت أو البرغل بالشعيريّة أو حتّى الكبّة، ليتناول فطوره منتشياً، ويشعر أنّ بطنه امتلأ.

غرام عمّي بالبرغل كان أعلى من غرام أمّي التي كانت تسمّي عمّي بأبي البراغل. وتجمع لفظة البرغل هكذا، إلى أنْ ساد لقبه بيننا نحن الأطفال كذلك، وكان يضحك كلّما طالبَ بالطعام، فيقول مازحاً: أبو البراغل بد هياكل برغل ..

لكنّ هذا لا يُقلّل من علاقة أمّي بالبرغل، حيث أكلْتُ البرغل قبل مخاضِها بحسام بساعات قليلة، حين فاجَأهَا المخاضُ وهي تحضّر الطعام لإبراهيم وأبي، وكانت قد أكلتْ من قبل، إلا أنّ أبي الذي اعتاد آلامَ بطنها

بعد الإفراط في أكل البرغل شكّكَ بأنّها على وشك الولادة، وأنبّها على أكْل الكثير من البرغل.

أمّا الكبّة، فهي طبقٌ شبهُ دائم في بيتنا، أبي كان مُعلّماً في تحضير الكبّة النيئة في رمضان، على الأخصّ، وأمّي كانت سيّدة الكبّة المَقليّة: كبّة بدراويش كما نسمّيها.

لهذا كنتُ أعتقد أنّ تلك الأنشودة التي كان يردّدها أولاد الحارة، حين يقفون أمام بيتنا: أمينة، دقّي الكبة وطَعْمِيْنَا، كانت مخصّصة ومؤلّفة لأمّي حصريّاً، سيّدة الكبّة.

ولهذا أيضاً، استعاضتْ أمّي عن نَذْرِها بتوزيع الخبز حين يصل حسام إلى أوربا، بالكبّة النيئة. لأنّها تحبّها من جهة، ولعدم توفّر الخبز، واللحمة والزيت والغاز، لتأمين حشوة الكبّة بالدراويش، وقَلْيها في الزيت الحارّ، فقد عثرتْ على ملاذِهَا في الكبّة النيئة.

أمّي ذاتها امرأة نيئة، وفق نظريّة شتراوس في النّيء والمطبوخ، أمّي ظلّت امرأة نيئة طيلة حياتها، فجّة، تقول ما تفكّر به، دون أيّة ضوابط أو مخاوف، وكان أبي الناقد اللاذع، ليس فقط مطبوخاً بشدّة، بل كان بمثابة النار التي تحاول طبخ أمّي، وهو ينتقدها ويحاول تصليح مسارها اللغوي خاصّة، والتخفيف من فجاجتها الجارحة، حين تقول للأعور: أعور في عينه، وحين تُعبّر عن مشاعرها دون كَبْت، أو ترتيب، إنْ أحبّتْ أظهرتْ، وإن امتعضَتْ أبانتْ، وإن كرهَتْ أعلنَتْ، وكانتْ تتّكئ دائماً على أبيها، ولا أعرف لماذا تعدّه سَنَدَهَا وفخرها، حين تتعرّض لموقف انتقاديّ لاذع: أنا بنتُ الحاج منّان، لا يهمّني أحد، وتضيف طبعاً: حتّى لو كان حافظ الأسد، أنا لا أخافُ إلا من الله.

أمّي النيئة، الفجّة، الشتراوسيّة(*) القادمة من الغابة، المتوحّشة الجميلة التي لا تلفّ ولا تدور، ولا تُنمِّقُ، ولم تتخلَّ عن طفولتها حين تقول: الملك عارٍ، أمّي هذه الكائن الأسطوريّ الذي تعلّمتُ منه الكتابة، وأنا أراقبُها كَكَائن ضخم، وأنا قزمةٌ أمامها.

نسيتُ أنْ أعرض نقطة حجمها، فهي امرأةٌ طويلةٌ، وأبي قصيرٌ قليلاً، لهذا كان أولاد الحارة يظنّونها أمّه، ويقولون عنها: أمّ النبي، لأنّ أبي الكرديّ يُدعى نبي، هذا الاسم الذي جَلَبَ لنا، نحن أولاده، الكثيرَ من الحَرَج في المدارس والدوائر الرسميّة، حيث يُسجّلون اسمَهُ خطأً غالباً، ليكون: نبيه، أو بنّي، حتّى إنّ إحدى المعلّمات، حين لفظتْ اسم أبي، رفضتْ تصديقي، وقالتْ مستنكرة: أنتِ، لا تفهمين، لا يمكن أنْ يُدعى والدُكَ هكذا! ثمّ كَتَبَتْ اسمَه، كما ارتأتْ: بنّي. وبدا لي الأمر أكثرَ غرابة، أنْ يكون اسم أبي هو أحد الألوان!

أمّي الضخمة، إذنْ، العملاقة في العائلة، أكبر الكائنات حجماً بين عمّاتي وخالاتي وعمّي الاثنَيْن وأخوالي الثلاثة، كانت تبدو كائناً فانتازيّاً، يساعدني على تضخيم مخيّلتي، وحين قرأتُ في صباي ماركيز، ورأيتُ بطلاته يطرنَ مع شراشف الغسيل التي ينشرنَها، عرفتُ أنّ هذه الكائنات موجودة حقّاً، وأنّه يتحدّث عن نساء مثل أمّي. وفي روايتي "تراتيل العَدَم"، كنتُ أكتب عن نساء مُشتقّات من أمّي، أمّي التي كلّما أمسكتْ بفنجان القهوة، لتقرأ مستقبل صاحبة الفنجان تثاءبتْ مؤمنةً بأنّ الجنّ يحضرون ويحاولون تنويمها، كي لا تُكملَ رؤية القادم.

كانت أمّي تُقنعني بأنّها مسكونة، وبأنّها مبروكة إلى حدّ ما، ولكنّها في الوقت نفسه، لم تكنْ ساذجة كما نرى في المسلسلات عن الكائنات

*) وفق عنوان كتاب كلود ليفي شتروس : النّيء والمطبوخ

المبروكة، بل تستطيع في لحظة أنْ تتحوّل إلى غولة شرّيرة، تضربُنا، وتمسح بنا الأرض، وتقلب عاليها واطيها.

أمّي العملاقة، الشتراوسيّة، النيئة، الماركيزيّة، المسكونة، خلقتْ عالمي السَّرْدِيّ، حيث تقاسمتْ هذا الخَلْق مع جدّتي، تلك المرأة المناقضة تماماً لأمّي، جدّتي لأبي، الرصينة، الحكيمة، حلالة المصائب، كأنّها قاضٍ، تلجأ إليها القرى والعشائر، وإنْ جلستْ في مجلس وقالتْ كلمة، تحوّلتْ كلمتُها إلى حُكْم، لا يمكن دَحْضُه. جدّتي كانت النموذج المناقض لأمّي. هي ملأتْ عقلي بالمنطق والرصانة والحكمة، وحرّرتْ أمّي مخيّلتي بالجنون والجنّ والرؤيا واستشراف البعيد.

كانت أمّي معلّمتي في السَّرْد، إذنْ، كما أهديتُها روايتي(مترو حلب)، لا تكفّ عن الكلام. كانت تتحدّث إلى أيّ شخص تقابله، وتروي له حياتها كاملة.

ولأنّها تحبّ القَصَّ وفَتْحَ السِّيَرِ مع الآخرين، غرباء ومعروفين، فإنّها إنْ لم تجدْ حولها مَنْ تتحدّث إليه، تتحدّث إلى نفسها.

رغبة أمّي في الكلام تكاد تكون أكبرَ رغبة لديها، ولهذا فإنّ كلامَها يأتي حُرّاً متداعياً، دون ضوابط: تتحدّث إلى الآخر، كأنّها تتحدّث إلى نفسها.

أمّي، الكائن النّيء، غير المطبوخ، وغير المنتمي للتِّقْنيّات الاجتماعيّة والبروتوكولات، تحظى بشعبيّة في وسطها، للسبب ذاته: تلقائيّتها وصِدْقها.

كانت تطاردُ أبي بالقصص، يدخلُ إلى التواليت، فتقفُ في المطبخ، قريباً من باب التواليت، حيث المجلى، وموقدُ الغاز لتجهيز الطعام أو المشروبات الساخنة، بينما هو يقضي حاجتَهُ، تمارس هي تحضيرَ القهوة، أو أيّ شيء آخر، وتقصّ عليه.

يدخلُ الحمّام، فتُتابع سَرْدَهَا بصوتٍ مسموع عبر نافذة المطبخ المُطلّة على ممرّ الجيران، ليسمعَ الجيرانُ الحكاياتِ التي غالباً لا يسمعُها أبي.

لا أعرف بماذا ينشغلُ ذهنُ أبي، إلا أنّنا نُخبرُه بأمر ما، وبعد أنْ يهزّ رأسه مراراً، ينتبهُ في آخر الحكاية، ليُعلِنَ موقفاً مخالفاً لعمليّة هَزِّ الرأس التي بدت موافقاتٍ متتاليةً.

كان أبي يفتحُ الماء في الحمّام، ولا يسمعُ بسبب ضجيج الماء، وهو، من الأساس، لا يصغي حتّى لو كان جالساً إلى جوارها، لكنّها لا تُبالي، تتابعُ سَرْدَهَا، مُغرمةً بالحَكيْ، حتّى لو كان لنفسِها فقط.

اكتشفتُ أنّني مثلها، أتحدَّث إلى نفسي كتابةً حين أكتبُ، كما أفعلُ في هذه اللحظة، فإنّني أكتبُ بصوتٍ مسموعٍ، كأنّني أكتبُ لي قبلاً.

ومن هنا، اكتشفتُ صحَّة نظريّة أمّي حول الجينات المُورّثة. الجينات الذهنيّة الأولى، قبل النضج، نأخذها من أمّهاتنا. لهذا يقول الفرنسيّون مثلاً عن اللغة الأولى التي نتقدّم بها في سِيَرِنَا الرَّسْميّة لطلَبات العمل: اللغة الأمّ، لأنّ الأمَّ هي الناقلُ المعرفيّ الأوّل، للُّغة والمعرفة والعادات، تقول أمّي في نظريّتها التي ترد في مكان آخر من هذا الكتاب: أنا هكذا، لأنّ أمّي عربيّة. أنا امرأة حُرّة، لأنّ ثقافتي مختلفة (لا تقول ثقافتي، أتصرَّف أنا بمفرداتها)، أنا أجهر متباهيةً بالقول: أنا بنتُ حجّ منّان، لأنّني أحتمي باسم أبي، أشعر بالقوّة وأنا أقول: إنّني ابنتُه، لأنّ المجتمع ذُكُوري، يحطّ من قيمة المرأة، لكنّني في العُمق ابنة أمّي.

أمّي مثلي امرأة حُرّة، لهذا أعتقد أنّها قَمَعَتْ حماقاتِ أبي، كان أبي رجلاً مِزْوَاجاً، ينتقل من امرأة لغيرها دون شَبَع، ولأنّ أمّي كانت امرأة حُرّة الروح، كانت تُعامله ببرود، ولا مبالاة، فتعلّق بها. نحن بنات أمّهاتنا أوّلاً، وربّما أبناؤهنّ أيضاً.

تتابع أمّي: أنتم كلّكم تحملون جيناتي أكثر من جينات أبيكم، أنت مثلي، من الخارج، تشبهين أبيكِ: صارمة - جادّة - حريصة على الظهور كامرأة قويّة وناضجة ومميّزة، لكنّكِ في العمق مثلي، لهذا تكتبين. أنت كاتبةٌ، لأنّكِ ابنتي أنا، وليس لأنّكِ ابنةُ أبيكِ.

أظنّ أنّني ابنة هذه التربية المزدوَجَة، عقل أبي الصارم الكرديّ، النقديّ، المتشكّك في كلّ شيء. أبي المتهكّم، الساخر منّا نحن أبناءه، ولّد فيّ عقلاً نقديّاً، ولولا أمّي، لكنتُ أظنّ أنّني سأتّجه صوب الفلسفة والأبحاث الذهنيّة الصارمة، إلا أنّ أمّي خصّبتْ مخيّلتي، لهذا صرتُ روائيّة.

وصرتُ هذه الروائيّة، الخليط من أب منتقد صارم، وأمّ عفويّة عشوائيّة الكلام، حُرّة الروح، لأنّني ابنتهما. وأذكر دائماً الكلام الذي تولّعتُ به لجاك دريدا الذي قال بما معناه: إنّ حلمه كان أنْ يكتب الرواية. لهذا أهديتُ رواية مترو حلب لأمّي، لأنّني بسببها، صرتُ روائيّة.

كنتُ أظنّ طيلة حياتي أنّني ورثتُ عن أبي وعن جدّتي المؤثّرة في كتابتي، الرصينة، الحكيمة الروح الكرديّة التي تتسلّل في كتابتي بالعربيّة، وتُغذّيها. إلى أنْ اكتشفتُ، وأنا أسردُ هذا الكتابَ أنّ حليمةَ رتّبتْ عقلي، واشتغلتْ على المنطق لديّ، أي أنّني أخذتُ العقل عن الكرد، والروح من الجذر العربيّ القادم من جدّتي لأمّي، أي من أمّي، نصف العربيّة.

أمّي نصف العربيّة، لا تتحدّث إلا اللغة العربيّة، تتحدّث بالكرديّة حين تُجبَر في وسط كرديّ، أو حين تقول أمراً خاصّاً لأبي، أمامنا، أو أمام العرب، أمّا لغتُها التلقائيّة، العفويّة، فهي العربيّة، لغة أمّها البحتة، أمّها العربيّة مئة في المئة.

أمّا أنا، فإنّ ربعي عربيّ، ربعي الذي أخذتُهُ عن نصف أمّي، وثلاثة

أرباعي كرديّة. دمي الذي يُغذّي رأسي كرديّ، ولكنّني لا أعترف بقرابة الدم، بل بقرابة الروح، لهذا يكاد ربعي هذا يماثل ثلاثة أرباعي الباقية، فتمتزج الأرباع، لتصنع كينونتي و كتاباتي.

بداياتُ الخيبةِ

لكنّ الجيش الحُرّ راح يفقدُ حاضنَتَهُ الشعبيّة، وفَقَدَ رمزيّته كجيش باحث عن إحقاق الحقّ وتطبيق العدالة وحماية الناس، ليتحوّل إلى مجموعات متفرّقة من (الزعران) الذين يبحثون عن تحقيق سلطتهم، واستعباد الناس، وتخويفهم.

صار عناصر الجيش الحُرّ لاحقاً يُرهبون الناس، ويتعاملون بتكسير الرؤوس والتشبيح والتخويف، وصاروا يستخدمون سلاحَهم لتصفية حسابات شخصيّة قديمة مع المختلفين معهم لأسباب شخصيّة، لا تخصّ الثورة.

مثال بسيط، عبد الخالق الحيّاني، وهو أخو خالد، كانت لديه خطيبة في قرية كفر حمرا، حين يأتي ليزورَها، تستنفرُ القرية، تماماً كما كان يحدث حين يصل رجلٌ مُهمّ من النظام، كان يأتي بموكب من المرافقين والسّيّارات والدوشكايات، ويتوزّع الحُرّاس على الأسطحة، ويُثيرون الهَلَعَ بين المواطنين الذين يختبئون من الخوف. كانت القرية كلّها تعرف بوصوله، وكان الرجل يتصرّف وكأنّه بشّار الأسد، هؤلاء لم يصلوا إلى السلطة بعد، وراحوا يتصرّفون كأنّهم السلطة، السلطة التي تُسيطر على الناس بالمال والسلاح.

تعدّدت انقسامات الفصائل، وصار لكلّ قرية فصيلُها العسكريّ، بل ثمّة رؤوس تتصارع فيما بينها في كلّ قرية أو حارة، للاستيلاء على الزعامة، وكسر الآخر. وكبرت الخلافات وتصفية الحسابات بين المتصارعين من الفصائل المتوزّعة المتناحرة بين القرى وبين المدينة.

معسكرُ الأصدقاءِ

اختار أغلب أصدقائي الانضمام إلى السلاح، فقدتُ يُسر بدايةً، وكان ذلك صعباً عليّ، كان بمثابة توأمي، وكنّا معاً دائماً، إلى أنْ فَرّقَنا السلاح: هو أسّس كتيبةً عسكريّة، وأنا آثرتُ العمل السِّلْميّ، لكنّ هذا لم يُوقِفْ صداقتَنا بالتأكيد.

تحوّلتْ حارتُنا ببطء إلى جبهة عسكريّة، تنهال علينا القذائف من حيّ بني زيد، ويقوم القنّاص هناك بقَتْل الناس في الحارة، حيث امتلأت الحارة بالحواجز العسكريّة التابعة لجيش النظام.

لم تعد الحارة كما هي، بل بدا الأمر شديد التناقض، أولاد الحارة تسلّحوا وانضمّوا إلى الكتائب المقاتلة خارج الحارة، في الريف وفي بني زيد، بينما غزت الحارة وجوه المقاتلين الشّبّان القادمين من أحياء أخرى، بل ومن خارج مدينة حلب.

لكنّني لم أتوقّف عن زيارة أصدقائي الذين كنتُ أفتقدُهم، قمتُ بثلاث زيارات في الريف، حيث تواجُدُ أصدقائي المقاتلين.

صَدَمَني التّحوّل الذي حَصَلَ لهم، كان الجوّ لديهم إسلاميّاً بحتاً، وهذا لم يكنْ بيننا من قبلُ، بل كان أبو حسّان يحذِّرنا من الانجراف وراء الدِّين، ويطالبنا بفَصْل الدِّين عن الثورة. هو نفسه صار لا يتحدّث إلا في المرجعيّات الدِّينيّة، وصار يعمل في الهيئة الشرعيّة لمحاكمة جيش النظام، وفق قواعد الشريعة الإسلاميّة.

كانت صَدْمَتي كبيرةً، تغيّر العالمُ حولي، لم أعثرْ على مفاهيمِنا التي ثرْنا من أجلها. في داخلي، كانت الثورة أيقونةً للعمل المنظّم والإنسانيّ، وكنتُ أنخرط فيها، لأصبح شخصاً أفضل، شخصاً يشبهُ أبا المجد، والرجال المثقّفين الذين يتكلّمون بطريقة راقية، أحلم أنْ أكون مثلهم.

فوجئتُ بالذين التقيتُهم هناك مع أصدقائي: متشدّدون ومتطرّفون إسلاميّون، لحىً طويلة، أسماء إسلاميّة قديمة غير دارجة.

أحسستُ بانخفاضٍ في معنويّاتي، ورغبة في مغادرة البلد. لا سيما بعد تعرّضي للاعتقال من قِبَلِ الجيش الحُرّ الذين عاملوني ككُرديّ خائن. حين قلتُ لهم: إنّني خَرَجَتُ في التظاهرات، وإنّها ثورتي، قالوا لي: إنّه لم يكنْ عليّ المشاركة، لأنّنا نحنُ الأكراد كفّار.

انصدمتُ بفقدان الثورة، هذه الثورة التي خرجتُ فيها، واشتغلتُ بإنسانيّة ومبادئ راقية، فقدتُها.

ضدّ السلاحِ

ستبدأ بذور الانفصال عن الهويّة الآمنة التي حقّقتْ دائماً لحسام الحصانةَ العاطفيّةَ: هويّة الحارة، بل هويّة أصدقاء الحارة، بل وبشكل أدقّ: هويّة الصداقة.

هذا النوع من الصداقات لا يعرفه الذين لم يُولَدوا ويكبروا داخل مساحة جغرافيّة موحّدة، تُدعى الحارة. لثقافة الحارة مفردات مختلفة، تكاد تكون مجتمعاً صغيراً داخل المجتمع الكبير، له تقاليده ومفرداته، وله حصانته، ومَنْ يدخل هذا المجتمع يحظَ بحمايته. أمّا الصداقة التي تُولَد هنا، فهي عقد اجتماعيّ متكامل، يختلف عن العقد المذعن مع المجتمع الأوسع، أو مع السلطة. في الحارة، لا تملك الدولة السلطة، بل يملكها أهل الحارة وكبارهم.

هنا الانتماء يُولَد مع الطفولة، يكبر الأصحاب، ويتقاسمون الخبرات، وتتوسّع مضامين الحارة، لتتجاوز العائلة.

أذكر أنّ جارتنا أمّ محمود كانت تستعملُ قَسماً خاصّاً بها: أُقسمُ برأس مها وأمينة. أمينة هي ابنتها البكْر، كانت توردُ اسمي مع اسم ابنتها، وكأنّني ابنتها.

حين كنتُ أدرس في الثانويّة العامّة، وأشتكي من الضجيج في البيت، أصرَّتْ أمّ محمود أنْ تُخصّص لي غرفة في بيتها، دَعَتْني لأدرسَ هناك

بهدوء، وقدّمتْ لي المُغريات الكثيرة: لا أحد يدخل عليكِ، ولا حتّى أنا، فقط أجلبُ لكِ الشاي بهدوء، وأنسحب، تعالي، ادرسي هنا، يجب أنْ تحصلي على الشهادة.

فعلتْ معي هذا، في الوقت الذي لم تُكمِّل فيه بناتُها تعليمهنّ، ما أزال مَدينة لشهامة نساء الحارة معي، فقط هذا مثال على ثقافة النخوة في الحارة، رغم سلبيّات التدخّل والحشريّة وفرض الرأي، لكنّ هذه النخوة أسرتْ حسام، وكان أولاد الحارة أصدقاء حسام جديرين بحَمْل مفهوم النخوة.

خان أمّي

تحوّل بيتي إلى ما يشبهُ الخان، فرضتْ ظروف الحرب فوضى في التّنقّلات، وصعوبة المواصلات وخطرها، جعل الناس ينامون خارج بيوتهم، تماماً يشبهُ الأمر حالة الطوارئ التي تقلب الحياة العاديّة، وتختلط فيها الأمكنة والبشر.

بدأ الأمر بصديقات ابنتي الصغرى نائلة، ميرفت وأختها رؤى، تسكنان في حيّ السّكّريّ الذي سيطر عليه الجيش الحُرّ، ولم تعد الفتاتان قادرتَيْن على دخول الحارة، راحتا تنامان في محلّ الأزياء الذي تشتغلان فيه مع نائلة. صاحب المحلّ يغلقُ عليهما البوّابة المعدنيّة، كأنّهما من أثاث المحلّ، وكانتا تأتيان إلى بيتي للاستحمام، ثمّ اقترحتُ عليهما المبيت عندنا، إلى أن استأجرت البنتان غرفةً في حيّ سيف الدولة، رغم خطورة الحيّ أيضاً، ولكنّ أسعار الأجارات انخفضت بشدّة، بسبب إحجام الناس عن السَّكَن هناك، قريباً من المناطق التي يسيطر عليها الجيش الحُرّ، والتي تتحوّل إلى جبهات عسكريّة حامية الوطيس.

المسكينتان يتيمتا الأمّ، وأبوهما متزوّج من امرأة أخرى، ولا يعبأ بأمرهما.

ثمّ جاءت أمّ رامي ذات يوم، مصطحبةً معها سيّدة كرديّة مع صبيّة، تدرسُ الأدب الإنكليزيّ في كُلّيّة الآداب في حلب.

قالتْ أمّ رامي: إنّها التقت بالسّيّدة الكرديّة التي لا أذكر اسمها الآن، في سوق الخضار، وثرثرتا معاً، إذ أعلمتْها الأولى بأنّها قادمة من عفرين، بصحبة ابنة أخيها نسرين، أتذكّر اسم نسرين، لأنّنا أمضينا ليلة صعبة بسببها، وأنّ لديهما منزلاً في حيّ الأشرفيّة، ولكنْ، فجأة وقعت الاشتباكات هناك. قالت السّيّدة: إنّها لم تكن تعلم بتلك الاشتباكات حين غادرتْ عفرين، وإنّها اتّصلتْ بجيرانها هاتفيّاً، وقالوا لها أنْ تأتي، وأنّ الحيّ هادئ، لكنّ الاشتباكات بين الجيش النظاميّ والجيش الحُرّ وقعتْ وهما في الطريق الذي استغرق طيلة النهار، بسبب الحواجز، وتغيير المسارات، تجنّباً للقصف. اقترحتْ أمّ رامي على السّيّدة الحائرة بأمرها أنْ تأتينا إليّ قائلة: أمّ ماهر ستّ كرديّة، تعيش وحدها!

كانت نسرين تبكي، وتشعر بالذّلّ والخجل، أنّها تنام في بيت ناس، لا تعرفهم.

كان لديها امتحانٌ في اليوم التالي، حاولتُ تهدئتها والترحيب بها، حتّى تتخفّف من شعورها بالحَرَج، وأنّها مثل بناتي، ورحتُ أحدّثها عنكِ: ابنتي كانت تدرس في الجامعة، وهي الآن تعيشُ في فرنسا، غداً تتخرّجين مثلها، وتسافرين وتصبحين أستاذة، أو تشتغلين في مهنة تليق بكِ، نحن لم نتعلّم، انظري إلى عمّتكِ الأمّيّة مثلي، لقد قطعت الطريق من عفرين إلى هنا، لأنّها مؤمنةٌ بكِ.

كانت أمّ رامي تعتقد، أنّه بمجرد أنّني كرديّة، فمن الطبيعي أنْ أستقبل تلك السّيّدتَيْن اللتَيْن لا أعرف عنهما شيئاً، وهذا ما فعلتُهُ.

البنت لم تنمْ طيلة الليل وهي تبكي، كانت في الحيض، تعاني من آلام البطن، وفوقها مصدومة من اضطرارها للمبيت لديّ.

في الصباح، حضّرتُ لهما فطوراً حسب إمكانيّتي، لم يكن الحصارُ قويّاً آنذاك، وكانت هناك بعض الموادّ، فحضّرت لهما سلطة الخضار الصباحيّة التي تحبّبنها، بندورة وخيار بالزيت والنعنع والليمون، مع مكدوس وإبريق شاي ..

الجيشُ الذي أفسدَ أخي

كان بمثابة أخي، من أقاربي المقرّبين جدّاً إليّ، كان شابّاً خجولاً ومُنطوياً، بل وكان يخشى الكلام أمام الآخرين، فيتلعثم ويتأتّئ، وكانت المُقرّبات في العائلة تدعوه: تعتوء .. أي مُتأتِئ. وحين تسخر واحدة من سذاجة أحدٍ ما، تدعوه باسم هذا الشّابّ الذي كان رمزاً للبراءة والطيبة والانزواء.

لكنّه انقلب كُلّيّاً، حين ذَهَبَ لأداء الخدمة الإلزاميّة، ومنذ أوّل إجازة له، بدا شخصاً آخر. صار يتحدّث بعدوانيّة، واستفزاز، ويُهدِّد مَنْ حوله.

اشتبكتُ مرّة في حوار معه، فقال لي: أعفسكِ كما تعفس الدبّابة أيّ جنديّ وضيع، وراح يستيفض شارحاً: لقد رأيتُ القتلَ، وأعرف كيف يقتل أحدُهم شخصاً دون أنْ يُعاقَب، لقد تعلّمتُ أنْ أقتلَ.

صَدَمَني (التعتوء)، وهو يرغي ويزبد كلّما اختلف مع أحد، وهدّده بالقتل.

لم أتخيّل أنْ تختفي كلّ هذه العدوانيّة والعنف خلف شخص بريء وطيّب مثله، منذ ذلك اليوم، وأنا شابّة أُقبل على الحياة بكثير من الأفكار الطوباويّة والأحلام المثاليّة، حقدتُ على الجيش، وازدادتْ مخاوفي، حيث كنتُ أرتجف كلّما مرَّ جواري رجلٌ يرتدي بزّة عسكريّة.

كنتُ أخاف العسكرَ، لكنّني، وأنا أرى الإفساد الذي فعلُوه بهذا الشّابّ، صرتُ لا أخاف فقط منهم، بل أكرههم.

حُبٌّ خطيرٌ

الله يستر على حريمنا، يا بنتي، لا يجب أنْ نتحدّث على أعراض الناس.

سأحكي لكِ هذه القصّة، لكنْ، لا تحكيها لأحد.

حين اتّصل بي عبد الرحمن، قال: اقتحمُوا بيتَكُم، والبابُ مفتوحٌ على مصراعَيْه، والبنت التي تركتِها في البيت هَرَبَتْ، أخذتْ أغراضَها، وانهزمتْ.

كنتُ قد تركتُ البيت في أمانة زينب، نعم، طالبة التمريض التي جاءني بها خالها، وتركها أمانةً لديّ.

سمعتُ الحكاية من عدّة أطراف من أصحاب الحارة، ولم أفهمْ حتّى الآن ما حَصَلَ. لكنّ ما اتّفق عليه الجيران الذين رووا لي ما حَدَثَ في غيابي، أنّهم سمعوا أصوات العسكريّ القادم من هناك، يعني من بلد الرئيس، بلَكْنَتِهِ الساحليّة، وهو يخبط بقوّة على باب بيتنا الحديديّ كما تعرفين، بعد منتصف الليل، صارخاً: افتحي، افتحي، أو أكسر الباب!

وكما تعرفين النخوة في الحارة، حيث يهبّ الجميعُ لنجدة الجيران، كما أنّ هناك، كما تعرفين أيضاً، وقد تربّيتِ هنا، فكرة الفضول لدى الجيران أنفسهم، فقد فُتِحَت النوافذ والأبواب، وخَرَجَ بعض الشباب يستفسرون عمّا يحدث، ليجدوا ذلك العسكريّ الذي يرابط على الحاجز في مدخل الحارة، وهو سَكْران، ويحمل كيساً من الفاكهة، ويصرخ أمام بيتنا الذي تمكّن من خَلْع بابه، وتعطيل القفل. حين اقتربَ منه الشباب، وتلاسنوا

معه، أشهرَ مسدّسه، وهدّد بالتصويب على مَنْ يقترب: بقْتلكم وبقُول إرهابيين، وما بيسأل فيكم! قال ذلك بلهجته التي تُضاعِفُ الخوفَ. لكنّ أحد أبناء الجيران، سامي كما أظنّ، والمعروف بهدوئه، والموالي بالتأكيد، وإلاّ ما كان ظلّ في الحارة، اقتربَ منه بهدوء:

- أخي، ماذا يحدث؟ هذا البيت لأرملة مسافرة في القرية، ولا يوجد هنا سوى طالبة نازحة وحيدة، هي في أمانتنا جميعاً نحن أهل الحارة!

- هذه البنتُ قحبةٌ، أعطتْني موعداً لآتيها بعد منتصف الليل، حين تهدأ الحركة في الحارة، وحين وَصَلْتُ، رفضتْ أنْ تستقبلَني.

خَرَجَتْ زينبُ بوجهٍ ممتقعٍ، هكذا وصفت الجارات، وقالت: إنّه يكذب، وإنّه يحاول الاعتداء عليها، لأنّها وحيدةٌ في البيت.

عَلَت الأصواتُ، وتشاجر الشباب بحميّة الدفاع عن شرف البنت، وكاد العسكريّ السّكران يقتل أحدَهم برصاصه الطائش، إلى أنْ تمكّن رجال الحارة الذين تجمّعوا عليه من إبعاده.

البنتُ لمَّتْ أغراضَها، وهَرَبَتْ في الصباح، تاركةً الباب دون إغلاق، حيث انكسر القفل، وصار يحتاج إلى قفل جديد.

عدتُ إلى البيت ملهوفةً وخائفةً، وأنا أتخيّل باب بيتي مشرعاً للصوص والحيوانات المتشرّدة وعابري الطريق.

السلامُ العنيدُ

لم يكن سهلاً، إذنْ، اتّخاذ قرار مختلف عن الجماعة.

حين رَفَضَ حسام الالتحاق بالسلاح، ورأى مبكراً بذور الانقلاب الديني لدى صحبه، وتغيير الخطاب الهادئ، حيث يحدِّثني أنّ محمود نفسه، والد يُسر الذي كان يدعو الشباب لإبعاد الخطاب الدِّيني عن الثورة، صار قاضياً في محكمة شرعيّة، وصار يدعو للحُكْم بشرع الله، وذَهَبَ أحد أولاده لاحقاً للانضمام إلى داعش، والمطالبة بتطبيق الخلافة الإسلاميّة.

لم يكن سهلاً على حسام أنْ يتّخذ موقفاً فرديّاً، وهو الوحيد بينهم، الرافض للسلاح والتعصّب الدِّيني.

في هذه الأوقات، تأزّم الوضع الصّحّي لعبد الكريم، الشيوعي الأخير في الحارة، ونُقِلَ للمعالجة في غازي عنتاب.

شَعَرَ حسام بالوحدة، كان اللحاق بالسلاح سيمنحُهُ الأمانَ الجَمْعيَّ الذي تُحقِّقه هكذا تجمُّعات، لكنّه رَفَضَ.

أعتقد أنّ البيت الذي تربّينا فيه هو الذي حمى حسام من الذهاب إلى أفكار الشريعة، وتطبيق شرع الله، وانزياح الثورة عن كونها انتفاضة حالمة بالعدالة لكلّ السوريين، إلى حلم تطبيق شرع الله للمسلمين فقط، وبصيغ غير عادلة بين المسلمين أنفسهم.

كان نُضْجُ حسام مبكراً في رَفْض السلاح، لأنّه كائنٌ خياليٌّ، مثلي ومثل أبي، أُعجب بمفاهيم الثورة، ولكنْ، حين جاء صوت القتل، خاف وابتعد.

معسكراتُ الأصدقاءِ

كنتُ في زيارة إلى مقرّ عسكريّ: تجمُّع كتائب أحفاد عمر، في الريف الشماليّ. في الليل، اضطرّ عناصر الجيش الحُرّ في ذلك التّجمّع إلى إرسال عربة مصفّحة لإحدى الكتائب في الجبهات، وذَكَرَ لهم صديقي مهنّد أنّني سائق دبّابة، فطلبوا منّي القيام بالمهمّة، لإيصال (الدبّابة) وعرضوا إغراءاتٍ ماليّةً، لكنّني رفضتُ مكرّراً أمامهم: نحن جماعة السِّلْمِيّة. فقال لي أحد القياديين: الله يلعن السِّلْمِيّة! ما بقي سِلْمِيّة. وسألني من أين أنا؟ فأجبتُهُ: من الخالديّة. قال: هذه الدبّابة متّجهة إلى حارتكَ، وأنت تعرف الحارة أكتر من غيركَ، ثمّ قال: إمّا تقود الدبّابة حتّى هناك، أو أمامكَ السجن. هدّدني باعتقالي لديهم. مَدَدْتُ يديّ صوبه، ليربطَ معصمي، كما يفعلون مع الأسرى، وقلتُ له: إذنْ، السجن!

كان يُدعى بالعرّاب، وهو قائد في الفرقة ١٦، أي من جماعة خالد الحيّاني، لم يعتقلني، لأنّ أصدقائي معه، إلا أنّه، ولأسباب أمنيّة كما قال، مَنَعَني من مغادرة المقرّ، حتّى اليوم التالي.

كنتُ في وسطٍ عُسكر تماماً. بقيتُ وحدي متمسّكاً بالسِّلْمِيّة، وكنتُ خائفاً من التّورّط في القتل والإرهاب، وبدأتُ أراقب تحوُّلات أصحابي ومعارفي الذين انخرطوا في السلاح، ويزداد استغرابي وإحساسي بالغربة: منهم مَن اتّجه للسرقات، ومنهم للثأر الشخصيّ، يقتلون باسم الثورة، ومنهم مَنْ دخل في جماعات مُتشدّدة كداعش وجبهة النصرة.

كان هدفي واضحاً في رأسي: إسقاط النظام والتّخلّص من الخوف والظّلم، لكنّني، ومنذ طفولتي، أكرهُ العنفَ والتشبيحَ والمشاكلَ، وكنتُ أنسحب من بين الأصدقاء الذين يميلون للشجار والقتال، رغم أنّ معظم أصحابي، وكلّهم من أبناء الحارة، لا يكفّون عن المشاغبات والمشاحنات والشجار والعراك الجسديّ العنيف.

من أهمّ أصدقائي، وهو توأمي تقريباً يُسر أخي وصديقي، كبرنا معاً، وعشنا معاً، ولكنّه تدرّج في عدّة مهامّ في الجيش الحُرّ، كان أحدها، وربّما أوّلها مهمّة القنص، حتّى صرتُ أدعوه مازحاً بيُسر القنّاص.

بعد فترة انقطاع حوالي أربعة أشهر، لم نلتقِ خلالها أنا ويُسر، بعد التحاقه بالسلاح خارج الحارة. اتّصل بي على الهاتف، وقال لي: اخرجْ حتّى مدخل الحارة، مشيتُ حتّى المستوصف، فقال لي: خَلَصْ، تمام، شفْتَكْ، فسألتُهُ مدهوشاً: كيف شِفتْني؟ قال لي:أنا في زيارة لدى الأصدقاء في بني زيد، وأراكَ عبر منظار القنّاص، قال لي: بده يسلّم عليك محمّد لطّوف إلى جانبي، فخفتُ، قلتُ له: هذا لا يعرف المزحَ، قد يُطلقُ عليّ مازحاً، فيصيبني، اختبأتُ، وتابعتُ حديثي مع يُسر عبر الهاتف.

في المرّة التالية، اتّصل بي محمّد لطّوف نفسه، من حريتان، اتّصل بي وقال: أرغب بفول ساخن من الدوحة وخبز من الفرن، كانت الطُّرُقات سهلةً، أخذتُ لهم الفول حتّى حريتان، لأنّ يُسر كان مطلوباً، ويصعب عليه النزول إلى الحارة.

الخوفُ من القنّاصِ

فاجأتْني أمّي وهي تحدِّثني عن القنّاص، المفاجأة بالنسبة لي كانت ورود تلك اللفظة على لسان أمّي التي تشرح لي كيف يمارس الأولاد تِقْنيَّات التّملّص من القنّاص، وهي الكبيرة، المُسنّة، لا تستطيع أنْ تفعل مثلهم.

(يتسرّبون مثل الزئبق، يسيرون مُلتصقين بالجدار، ظهورهم في الجدار، ووجوههم تترقّب الفتحاتِ بين المباني والبيوت التي قد تتسرّب منها طلقة القنّاص، تسألينني لماذا نخاف من القنّاص؟ نعم، هو يُطلقُ الرصاص دون هدف، قد يقتلُ طفلاً أو امرأة، لا يهمّه، بل قد يلعب مع أصحابه، ويُحدِّد هدفاً ما، يصيبه، دون أنْ يسأل عن الشخص الذي يقتل، لهذا أخاف الخروج من الحارة. فقط أخرج من البيت إلى البيوت المجاورة، المتلاصقة، حيث لا فجوات بين الجدران، ولا فتحات تتسرّب منها طلقات القنّاص، لا أخاف من الموت، يا بنتي، لكنّني أخاف من التّشوّه، العجز، مَنْ سيعتني بي إذا شلَّتْني طلقة القناص، وأقعدتْني؟ لقد أُصيبَتْ صبيّة في الحارة بطلقة في ساقِها، وراحت تعرج، وأصابَ ابن الحرام (القنّاص) كنّة أمّ حمدان، دخلت الرصاصة في رأسها، ولم تقتلْها، لكنّها شلَّتْها، وهي الآن مُقعَدَة، لا تستطيعُ الذهاب إلى المرحاض وقضاء حاجتها ..).

كما أنّ أختي سُها تروي لي عن قنّاص بني زيد، حين كانت جالسةً في بيت جيراننا، لدى أمّ المجد، زوجة عبد الكريم كرديّة، وكانت مع أمّي، حين بدأ رصاص القنّاص ينهمر في الخارج، ويخترق الغرفة، قالت سُها:

إنّه بعد القنّاص على الفور، يبدأ الطيران المروحي، وتبدأ الاشتباكات، فغادرتا بسرعة بيت أمّ المجد، وراحت سُها تشرح لأمّي طريقة الركض من الممرّ الفاصل بين بيت أمّ المجد، والشارع المقابل، وهي تقول لها: تركضين مثل الصاروخ، كي تتجنّبي طلقات القنّاص.

بدايةُ الفراغِ حولَ حسامٍ

راحت الحارة تفرغُ من سكّانها، ولا سيما المشتغلين بالعمل الثوريّ، غادر الآخرون بسبب الخوف، حيث يكفي أنْ يعتقل الأمنُ أحدَ أفراد العائلة، حتّى يذهبَ الباقي بجُرمه، مثلاً، حين انكشف عمل سعيد عثمان، أخو يُسر، في العمل المسلّح، وجاء الأمن إلى بيت أهله، تعرّض جميع سكّان البناية من أبناء عمومته إلى خطر الاعتقال، حتّى النساء. لهذا فرّ أولاد عمومته، وبناتهم، يحيى، محمّد، زينب، جميعم هربوا. وبعضهم ترك الحارة، بسبب كثرة المداهمات وحملات التفتيش والاعتقالات، مثل بيت سلطان، تركوا الحارة، ليُريحوا رأسهم.

لكنّ أغلبَ حالات النزوح على الإطلاق، كانت الخوف من الموت. أذكر حين كنتُ أقف في ساحة الخضرة، وكانت الساحةُ مزدحمةً بالناس، كانت تقفُ إلى جواري سيّدة مُتحجّبة، لا أعرفها، ومعها طفلتها، وفجأة رأيتُها تسقط قربي، ظننتُ أنّه أُغمي عليها، إذ لم يكن ثمّة إطلاق رصاص، ولا تواجد أمنيّ، كان هناك اشتباكاتٌ، تأتينا أصواتها من بعيد، ولكنْ، في الحارة، كان الجوُّ آمناً. التمَّ الناس عليها، ووجدناها مُصابةً بطَلْق ناريّ. على الأغلب، كانت رصاصة قنّاص، أو رصاصة عشوائيّة، لم نعرف مصدرها. وَصَلَ الخبر إلى أهلها، وهي من كنّات بيت حمدان (أنا أعرف الحارة إلى حدّ كبير)، أسعفُوها، وأخفوا إصابَتَهَا بالرصاص من شدّة الخوف من الأمن، قالوا: إنّها وقعتْ على رأسها. الرصاصة دخلت في العمود

الفقري، وأُصيبتْ المرأةُ بالشَّلَل، دون أيّ ذنب. كانوا يحاولون تخويف الناس، وكَسْر عيونهم، ويُطلقون الرصاص دون أيّ حساب.

وممّا زاد في تهجير أهل الحارة، وإسراعهم في الهرب، كثرة القذائف التي راحتْ تنهال على الحارة، بوصفِها تابعةً لمنطقة النظام، حيث كان الجيش الحُرّ الذي يتمترس في حيّ بني زيد يُلقي بالقذائف على الحارة، ففرَّ أغلب السكّان، وبقيتُ أنا وأمّي. (أمّي ماتتْ لاحقاً تحت هذه القذائف).

أحسستُ أنّني الوحيد المتبقّي من الناشطين، أغلب مَنْ ظلّوا هم المتعاونون مع النظام، أو المتعاطفون معه، أو الذين ليسوا ضدّه، وليسوا ضدّ أنْ يعتقل أيّ شخص مشارك في الثورة.

مَعَ حكاياتِ أمّي

فِضْيتْ الحارة، يا مها ..

ماتتْ أمّ حسين، حرقتْ قلبي عليها، بكيتُ كثيراً، كأنّني فقدتُ أمّي، وماتتْ كنّة أمّ عبد الله، وماتَ ابن عدلة، سلَّمُوا أهله جثّته، مات تحت التعذيب، مات زوج أمّ عيون الزرق، وماتتْ ابنة السوّاس، أمّ رامي طلبت الطلاق، حردتْ إلى بيت أهلها، أبو رامي عندي الآن، مسكينٌ حزينٌ، هل تتحدّثين إليه؟ افعلي، بالله عليكِ، حرام، ترفعين معنويّاته قليلاً. نعم؟ لماذا تغضبين منّي؟ نعم، أفهمكِ، تقولين إنّكَ تتّصلين بي للاطمئنان عنّي، فأحدّثكِ عن أشخاص، لا تعرفينهم.

"وَطِّيْ صُوتَكْ أبو رامي، بنتي عم تحكي من فرنسا.."، نعم، هذا أبو رامي إلى جواري. جَلَبَ لي الخبزَ اليوم، كانت أمّ رامي تسكب لي حين تطبخ، أنا وأبو رامي انحرمنا من الطبخ، ولكنّ أمّ محمّد أيضاً تعتني بي. مَنْ أمّ محمّد؟ نعم، أنتِ لا تعرفينها، هي كنّة بيت عرب، جاءت تسكن قبالتي في بيت أمّ حسين، بعد نزوح أولاد أمّ حسين ومحمود، بيت أمّ محمّد انقصف، أبو محمّد عنده سيّارة، نعم، هو الذي أوْصَلَني إلى غازي عنتاب حين التقيْنا.

"تعا طلال، احكي مع بنتي، هي مها عايشة في فرنسا"، لقد وَصَلَ طلال، أرسلتُهُ يشتري لي ظَرْف شوربة ماجي، تعرفين أنّه لديّ السّكّر، وأسناني بدأتْ تتساقط، لا أستطيع تناوُلَ الطعام، نعم، هذا مضحك، أنا

أضحك، لأنّه أصلاً لا يوجد طعام، أنبوبة الغاز نفدتْ منذ شهر، والكهرباء مقطوعةٌ دائماً، والغلاء لم يترك لنا خيارات. غالباً آكل الخبز مع المرتديلا، نعم، علبة المرتديلا غالية جدّاً، أفتحُها، آكلُ منها القليل، وأُخبِّئ الباقي، العلبة التي كنّا نفتحُها على العشاء مع أطباق عديدة، من زيتون ومكدوس وجبنة وسلطة صارتْ وجبتي التي يجب أنْ تكفيني لنهار واحد، على الأقلّ، بَعْرِفْ أنتِ لا تُقصِّرين. وقد توقّفتْ خدمة الويستر يونيون، وآخر مرّة ذَهَبَ أبو محمّد لاستلام المبلغ، سَرَقُوا منه خمسة آلاف ليرة على الحاجز، شلَّحُوه تشليح. تقولين إنّه يكذب! إنّ الحاجز لا يأخذ أموال الناس! بلى، هدّدوه، قالوا له: قَريبتك في فرنسا، يعني معارضة؟ أبو محمّد خاف، وأعطاهم المال، كنتُ بكل الأحوالّ، سأشتري فَرّوْجة مِشْوِيّة، وأكافئُه بها، على كلّ، الله بيِبْعَتْ، سِعْري بْسِعْر الجيران.

ماذا قال لكِ طلال على الهاتف؟ هو سعيدٌ جدّاً، طَلَبَ منّي رؤيةُ صورِك، صُورتُكِ على الواتس أعجبَتْه، نَسَخَهَا، وأخذها على هاتف أبيه. سألتُه ماذا قالتْ لك ابنتي؟ فأجابَني متباهياً: هذه أسرار، نعم، شكراً أنّكِ تعتنين بجيراني، هؤلاء كنزي، يا مها. أجل، هذا صحيح، المال الذي تتمكّنين من إرساله، أتقاسمُهُ معهم. ماذا أفعل بالطعام؟ لا أستطيع أنْ آكل وحدي. حين تُرسلين لي المال، أشتري الطعام، وأعزمُهُم. طيّب أنا لا أطبخ، أمّ رامي تطبخ لنا، وأبو رامي يشتري الموادّ. أنا لا أذهبُ إلى الدكّان، هناك قنّاص أخافُهُ، منذ أيّام ماتتْ كنّة أمّ حمدان برصاص القنّاص. أبو رامي يعرف كيف يتجنّب القنّاص، أنا لا أعرف.

حسناً، أهل الحارة تسمعُ قصصنا، لا أسرارَ هنا، لا تغضبي، هؤلاء ربُّوكِ وربُّو أخواتك. نعم، الهاتفُ مفتوحٌ، كلُّ ما نقولُهُ يسمعُهُ الجيرانُ، نعم، حتّى العساكر الذين يأتون لطَلَب الماء.

منذ أيّام، تشاجرتْ معي زينب، لأنّني أعطيتُ الماءَ لأحد عناصر الجيش، قالت: إنّني شبّيحة. لكنّها جاءتْ، ونظّفتْ معي البيت، حين تكسّر زجاجُ النافذة. زينب طيّبة مثل ابنتي سُها، لا أزعل منها.

نعم، حين تتّصلين في المرّة القادمة، إذا كانت هنا أناديها، لأنّها نزحتْ مع أهلها، لكنّها تأتي أحياناً، وتزور الحارة.

نسيتُ أنْ أخبرَكِ، أيضاً، أنّ ابتسام سألتْ عنكِ، جاءتْ في الأسبوع الماضي، وشربَتْ عندي القهوة. عندي موقدُ كاز صغير، شربْنا القهوة، وفتحتُ لها الفال، ثمّ ذَهَبْتُ إلى العمل. ظلّتْ وحدها بعد سَفَر أهلها إلى القاهرة.

ابتسام صديقتي الآن، مثل جاراتي، تمرّ عليّ من وقتٍ لآخر. سُها لم تعد تأتي منذ شهور، تقول حارتنا خَطِرَة، والقذائف لا تتوقّف. هربتُ منذ يومَيْن، ذَهَبْتُ إلى الحمدانيّة، لعند أقارب فاطمة، ثمّ سَقَطَت القذائفُ هناك أيضاً، فعُدتُ مع فاطمة، لا تعرفين فاطمة؟ طالبة التمريض التي تسكن معي، نعم، تغيّرت الكثير من الأشياء، سأُحدِّثكِ عن فاطمة فيما بعد، أسمع تحليق الطيران، ستبدأ الاشتباكات، كلّما حلّق الطيران، أطلق الجيش الحُرّ عليه، وهكذا تبدأ المعارك، سأسكتُ الآن، الله يستر. سَقَطَ جدار أبي فيصل في آخر مرّة، الله يحمي بيتنا ..

معنى الكتابةِ والحكايةِ

كلُّ هذه الأوراق من أجل حكاية حسام؟ وماذا إذا قرّرت الكتابةَ عن بقيّة إخوتكِ؟ عن قصّة كلٍّ منهم، وكيف صار في بلاد الله الواسعة، كم سيلزمُكِ من ورق؟

أتأمّلُكِ وأنْتِ تقصّين الورقَ، وتنسخينَ، ثمّ تحذفين، ثمّ تُعيدينَ الكتابةَ. منذ ثلاث سنوات وأنتِ تشتغلين على هذا الكتاب، صحيحٌ أنّني لا أقرأ، لكنّني انحولتُ، وأنا أحفظ طريقة رَسْم اسم حسام بالعربي وبالفرنسي. لديكِ عشرات الملفّات في حاسوبكِ باسم حسام، أعدتِ تأليف هذا الكتاب ثلاث مرّات، إلى أن استنجدتِ بي، كنتِ تريدين تخصيص كتابٍ لي وحدي، لكنّكِ استعنتِ بي، لأساعدكِ في هذا الكتاب أيضاً، يا إلهي! لم أتخيّل يوماً أنّ الكتابةَ مهنةٌ صعبةٌ إلى هذا الحدّ، بل لم أتخيّل أنّ الكتابة مهنة.

ألفُ صفحةٍ على الأقلّ من أجل حكاية حسام، كم ستحتاجين من ورقٍ، من أجل باقي حكاياتنا؟ أرجوكِ، لا تستسلمي، اكتبي الباقي، أيضاً، يا مها، اكتبي عن أمّي وجدّتي، هذا مهمّ جدّاً، أنت تُعيدين لنا الحياة، ولكنْ، فعلاً، الأمر يحتاج إلى الكثير من الورق، حقائب ورق، كراتين ورق، سيّارات محمّلة بالورق ..

لم أعرف أهمّيّة الكتابة إلا اليوم ..

دعيني أعتذرُ لكِ عمّا سببتُهُ لكِ من ألمٍ ذات يوم، حين مزّقتُ أوراقكِ ودفاتركِ، وصرختُ بكِ وأنتِ تدخلين البيتَ حاملةً كرتونة كبيرة من الكُتُب، إذ تُنفقين كلّ قرش تحصلين عليه على شراء الكُتُب. صرختُ بك مستنكرةً: حين سأزفُّكِ، هل أملأ حقائبَ جهازِكِ بهذه الأوراق؟!

كنتُ أسخر منكِ، ولا أعرف أهمّيّة الكُتُب، كنتُ أحلمُ، مثل باقي الأمّهات أنْ أملأ حقائبَ جهازكِ بالأثواب والمناشف وقمصان النوم المُطرّزة والمزركشة، والداخليّات المُلوّنة الشّفّافة، وبأغراض المطبخ ..

تذكرين حقائبَ جهاز بناتِ عمّاتكِ فيدانة؟ حقيبة لكل بنت، مليئة بالقمصان والبيجامات الحريريّة، كانت البنات فقيرات، يشتغلنَ في ورشات الخياطة، وفي عيادات الأطبّاء، ليدَّخرنَ بعض المال، لتجهيز حقائب المستقبل ..

كنتِ تسخرين من أحلامي ..

أنتِ على حقّ، لم أتخيّل أنّ الكُتُب، حين تقرئينها، تبقى في رأسكِ، وأنّ الورقَ ينتقل مضمونُهُ إلى الذاكرة.

الكُتُبُ هي الأصلُ، هي أهمُّ من حقائب الملابس وأغراض المطبخ والحمّام ..

الكتابةُ تحفظ الذاكرة، الملابسُ تذهبُ، تلتهمُ الحروبُ الملابسَ والذَّهبَ والبيوتَ، لكنّها لا تلتهمُ الكتابةَ، لأنّ الكتابةَ تبقى في الرأس.

اكتشفتُ هذا مؤخّراً، اكتشفتُهُ أكثرَ وقت الحرب، واكتشفتُهُ أيضاً، وبشكل فاقع هنا، بعد الموت.

الحكاياتُ التي أسردها، وتُدوِّنينها، هي خلاصي من هذا الانتظار المُملّ في موت طويل وبارد، لا يكتمل ..

الحكاياتُ التي أرويها لجاراتي الراقدات معي تساعدُنا على احتمال وطأة الموت..

اكتبيني، يا مها، وأوصي البنات ألا يلحقنَ بحقائب الملابس والأحذية والسوتيانات والكيلوتات، أوصيهنّ أنْ يلحقنَ بملء حقائب الرأس والروح، فهي تسندُنا، حين تُداهمنا الحروب.

معسكرُ الاعتقالِ

حينَ يعتقلُكَ الأصدقاءُ: سجونٌ صديقةٌ

قرّرتُ مغادرة البلد، إذنْ، اعتُقِلَ أصحابي في الحارة، وجاء الأمن للبحث عنّي، غادرتُ البيت صباح التاسع من أيلول.

قطعتُ عدّة حواجز عسكريّة في المدينة، وكنتُ خائفاً من أنْ يتمّ اعتقالي على أحد الحواجز، بتهمة ناشط في الثورة، أو بتهمة العمل الإغاثيّ، أو بتهمة التظاهر، أو حتّى مجرّد أنْ يربطوا بيني وبين أحد أصدقائي الذين انخرطوا بالسلاح، فيتمّ اعتقالي.

عبرتُ جميع الحواجز، خمسة حواجز للنظام، حتّى وَصَلْتُ إلى منطقة المحرّر، ولكنّ ما لم أحسبْ حسابَهُ أنْ يتمّ اعتقالي من قِبَلِ الجيش الحُرّ.

في معبر بستان القصر(معبر كاراج الحجز)، حيث المنطقة الفاصلة بين النظام والمعارضة، كانت كتيبة جند الرحمن بقيادة أبو عرب تُسيطر على المعبر، سألني أحد عناصر الجيش عن هويّتي، وعندما قرأ (عفرين)، ابتسم ظافراً، ووَضَعَني في سيّارة داخلها مجموعة شبّان أكراد، دون أنْ يعطيني أيّ فرصة للاعتراض أو الشرح أو معرفة التهمة المنسوبة إليّ، والتي بسببها تمّ مَنْعي من مغادرة المعبر، وزَجّي داخل السّيّارة، ومصادرة هاتفي وبطاقتي الشخصيّة، ومن ثمّ، ساقونا جميعاً إلى بناية على خطّ الجبهة الفاصل بين حيّ المشارقة وبستان القصر (كدروع بَشَريّة في منطقة فاصلة بين النظام والمحرّر) جانب حاجز(البستان)، واستقبلُونا بالتّكبير كأنّنا أعداءٌ، سيذبحوننا.

عندما دخلْنا إلى المعتقل، تفاجأتُ بوجود أشخاص عرب مسجّل على هويتهم(قيدهم) عفرين - قرية المزرعة، مريمين، وكذلك أشخاص مقاتلون في صفوف الجيش الحُرّ(لواء صقور الشام، لواء التوحيد ..) وعندما أطلّ علينا أحد القادة الميدانيين، سألتُه عن سبب وجودنا هنا، قال: مشكلتُكم، مكتوب ع هويتكم عفرين!

وَعَدُونا بإطلاق سراحنا بعد ساعة، وبالانتظار من ساعة لأخرى، مضى الوقت ونحن محتجزون حتّى اليوم التالي، أمضَينا الليلة في غرفة ٢ أمتار، بـ٣، قرابة السبعين شخصاً، تتراوح أعمارنا من ١٧ إلى ٦٠ سنة، جميعنا للسّبب نفسه، لم يكنْ هناك نافذة أو مصدر للتهوية في الغرفة التي حَبَسُونا فيها، وكان المرحاضُ بداخلها.

كان معنا في المعتقل عرب، غير أكراد، لكنّهم من مواليد عفرين. أذكر شابّاً من لواء صقور الشام، وهو عربيّ، ويقاتل مع الثّوّار، ولكنّ بطاقته الشخصيّة تحمل اسم عفرين. انتظرْنا المسؤولَ (أبو عرب) معاً. وجاءَنا بعد يومَيْن، وقد أجرى صفقةً مع خالد الحيّاني لمبادلتنا. بَاعَنَا لخالد الحياني كعبيد، وقال مُهدِّداً: (أنتم دواؤكم خالد الحيّاني، هو يعرف التّصرّف بكم).

وفي اليوم التالي، تمّ ترحيلنا إلى سجن لواء شهداء بدر في منطقة بني زيد(خالد الحيّاني) بعد دَمجنا مع عدّة شبّان أكراد، تمّ اعتقالهم من قِبَل مجموعة الشهيد النقيب نمر(أحمد شمّا)، وأُطلق علينا اسم (ركّاب السّوريّة)، وفي طريقنا إلى خالد، بدأت الرواياتُ من عناصر الجيش الحُرّ المرافقين لنا، بين أنّ خالد سيقومُ بتصفيتنا، أو (جاهزين عالبلانكو)، وهي رافعة يدويّة ..

وضعُونا في باص نقل كبير، ووضعوا معنا حرّاساً مسلّحين طبعاً، وهبط

الليل ونحن في الطريق، كان الباص يسير في مناطق معزولة ومظلمة، وراحوا يتحدّثون إلى بعضهم أمامنا، ويتشاورون في أنْ يُنزلونا من الباص، ويُصفُّونا هناك: (ننزلهم ونرشهم هون). لكنّهم تركونا، ونحن نموت خوفاً من القتل في أيّة لحظة، ثمّ سلّمونا إلى خالد.

تمّ استقبالُنا من قِبَلِ لواء شهداء بدر، وتمّ تقييد أيدينا نحو الخلف بوساطة أربطة بلاستيكيّة، تُستخدم عادةً في حَزْم الأمتعة والصناديق.

تمّ إدخالنا إلى عدّة غرف، وهنا يدخل كلّ منّا في حكاية خاصّة وفق مصيره الخاصّ ووفق علاقاته ومعارفه والمصادفات التي إمّا تؤدّي إلى تصفية أحدنا، أو النجاة بحياته.

أوّل جملة سمعناها هناك (هل تعرفون أين أنتُم؟ أنتُم في جهنّم الآن). كان ذلك السّجّان أبو الورد رجلاً ضخماً جدّاً، يرتدي زيّاً عسكريّاً، ويحمل سلاحاً، وهو محاط بالمسلّحين مثله، يُوجِّهون أسلحتهم صوبنا.

كنتُ من المحظوظين، وبمصادفة لا تخطر في البال، التقيتُ بأحد أصدقاء الثورة، وكان من أبناء حارتي وشريكي في الثورة السِّلْميّة منذ البداية، ثمّ اختار العمل المُسلّح، بينما بقيتُ أنا مع الخيار السِّلْميّ. ما إنْ رآني وسيم، وهو صهر خالد حيّاني مُكبّلاً ومُقاداً بين المعتقلين، حتّى طالبَ بفَكّ وثاقي، وقال لي: حسام، أنتَ بخير. قالها كَوَعد وطَمْأنة، وأدركتُ أنّه لن يتركَني أموت عند خالد . لم يدعْ وسيم أحداً يمسّني، أوقفَني على طرف، بينما كان الآخرون يتعرّضون للضرب والشتائم.

أيضاً حَصَلَ ما لم يكن في حسباني، فجأةً عُوملتُ معاملةً كريمةً في معتقل خالد الحيّاني، وصار لي سرير، أنام عليه، مُعزّزاً مُكرّماً، بينما كان الآخرون ينامون في غرفة صغيرة، أكثر من مئة شخص في غرفة أربعة أمتار.

لم أتعرّض للتعذيب، لكنّني كنتُ أسمع أصوات تعذيب بقيّة الذين كانوا معي في السّيّارة ذاتها، ولا أعرف ماذا حَصَلَ للباقين.

المليارديرُ الصغيرُ: خالد الحيّاني قائدُ لواءِ شهداءِ بدر أو الفرقة ١٦

سجن خالد بالمقر ١٠١(*)، هكذا يُدعى المقرّ. في الأصل كان معملاً، في منطقة بني زيد، والسّجّان اسمه أبو الورد، يُخبرني حسام بصدمته حين رأى السّجّان يقرأ في قاموس إكس فورد، فسأله إذا كان يعرف القراءة، وأجابه أبو الورد بأنّه خرّيج جامعيّ.

وبضغط اسم خالد الحيّاني على شريط غوغل، تظهر عشرات المعلومات عنه، يمكن اختصارها وفق التالي، رغم تعارض محتويات الروابط، ما بين تلك التي تُصوّر الحيّاني كمُجرم ولصّ(**)، أو التي تُصوّره كثوري(***):

خالد سرّاج عليّ بن حج أحمد من مواليد ١٩٧٩، لُقِّب بخالد الحيّاني نسبةً إلى مسقط رأسه في حيّان. أقام في الخالديّة منذ صغره، وبدأ حياته ببيع المازوت على "طنبر"، يجرّه حمار. ثمّ دخلتْ عائلته في قضايا الثأر، حين قَتَلَ أحدُ أبناء عمومته رجلاً من آل شحادة من الليرمون. فاضطُرّت العائلةُ للرحيل والسَّكَن في حي بني زيد، حيث عمل هناك كخضرجي.

لشراسته وعنفه وارتياده الكباريهات، تمّ تعيينه "بودي غارد" في كباريه "بلاكا" على طريق المسلميّة، ليقوم برَمْي السُّكَارى في الشوارع بعد سرقة أموالهم.

---

*) فيديو التلفزيون الروسيّ يُصوّر سجن الحيّاني في منطقة بني زيد
https://www.youtube.com/watch?v=g5LoZwCM6dc

**) https://www.youtube.com/watch?v=1OawDKlN7YU

***) https://www.youtube.com/watch?v=OWU-4R4yQis
https://www.youtube.com/watch?v=4b-KPzaXnBU

اشتبك في سنة ٢٠١٤ مع صاحب محلّ عقاريّ في الخالديّة، ويُدعى عبد الرحمن الجميلي، وكان الاشتباك بسبب تحرّش الجميلي بإحدى العاملات في ملهى (فولكان)، وقام الجميلي ورجاله بضَرْب خالد.

قام الحيّاني بعد ذلك بالهجوم على مكتب الجميلي العقاريّ، وأطلق النار من بندقيّته الروسيّة، فقتل عبد الرحمن وأخاه، وفرَّ هارباً، لأنّه أصبح مطلوباً بتهمة القتل، التحق بالثوّار في عندان مُدَّعياً أنّه قتل الجميلي، لأنّه شبّيح. وحين عرف ثوّار عندان الحقيقة، طردُوه، ولكنّ أحمد عفش، صديق خالد في لواء شهداء عندان احتضَنَهُ، وتحوّل اللواء لاحقاً إلى لواء أحرار سورية. وشكّل خالد، بتوجيه من عفش، ما سُمّي بكتيبة المهامّ الخاصّة. ضمّ إليها خمسين عنصراً من اللصوص وزعران المنطقة.

صارتْ كتيبةُ الحيّاني، لاحقاً، تُعرَف باسم (لواء شهداء بدر)، والمعلومات حولها متوفّرة عبر اليوتيوب، واقتحاماتها العسكريّة وجولاتها في الخالديّة أيضاً موجودة على الإنترنت.

أعلن الحيّاني بني زيد منطقتَهُ الخاصّة، اقتحمَ المعاملَ الموجودةَ في رحبة الليبليلامون ومنطقة إكس أو وبني زيد، وسَرَقَ سيّارات أصحاب المعامل، وقام يخطف كلّ صاحب معمل يأتي ليطمئنّ على معمله، لقاء فدية أو التهديد بحَرْق المعمل. ثمّ صار يفكّ آلات المعامل، ويبيعها إلى تركيا، وأثرى من ذلك العمل حتّى صار يُلقَّب بالملياردير الصغير، ومستودعاتُهُ مليئة بالأسلحة التي يستخدمها بشكل عشوائي. وقد قُتل على يد أحد عناصره في شهر أيّار سنة ٢٠١٥ خلال اشتباكات في الخالديّة.

ليلةَ وداعي لأمّي

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وحامل شنتاية بإيدي، وحسّيت رح أبكي، حاول ما اطّلع بوجه أمّي، عرفان حالي رح انهار، وبصراحة عرفان حالي مارح شوفها مرّة تانية، وقربت عليها بوستها، وأمّي فرطت تبكي.

وأنا ما عاد أتماسك، كان كتير موقف صعب وحاسس إنّو آخر لقاء بحياتي،

وبكيتُ وتوجّعتُ، وأنا أكذب عليها وأقلها رجعان ماني مْطَوِّل،

وطْلِعتْ، وبالفعل ما رْجِعتْ شِفتْهَا.

حيث اعتقلوني بعد ساعَتَيْن، بينما كانت أمّي ناطرة أُوْصَلْ لعفرين مشان أطمنها.

يومين ومقفل هاتفي، أوّل ما فتحتو اتّصلت فيها قالتلي ليش ماخبّرتني؟

كذبت قلت: ما في شحن وشبكة، وسألتْني وينك هلأ؟ قلتلها: أنا عند رفيقي، كنت بحريتان، قالتلي وين كنت هاليومين؟ أنا أكذب وأقول كنت بمزرعة حلوة بتجنّن خضار طبيعة وأكل وشرب، وانصدمتْ من أمّي صارت تبكي، وتقول: إنْ شالله ماعذّبوك، إنْ شالله ما ضربوك، وقلبها محسّسها، وبعدين اعترفتلها، اي كنت مسجون بس مو سجن هيك كم ساعة.

في هذه الأثناء، حين كان حسام معتقلاً لدى الحيّاني، كانت أمّي

تتّصل بالحاجّ محمود، وتطلب مساعدته لإنقاذ حسام، كانت تشعر بأنّه اعتُقل، ولا تعرف طبعاً مَن اعتقلَهُ. اتّصل حسام بيُسر، وكان خائفاً من مغادرة معتقل الحيّاني، فيتمّ اعتقاله مجدّداً من كتيبة أخرى، لأنّ الجيش الحُرّ في تلك الأثناء كان على خصومة مع الأكراد، متّهماً إيّاهم بفَكّ الحصار عن القرى العَلَوِيّة (نبل والزهراء)، جاء يُسر بنفسه، وأخذ حسام من المعتقل إلى حريتان، حيث كتيبة يُسر.

يُسر: أجملُ صبيٍّ في الحارةِ

يُسر عثمان هو، إذنْ، الصبي الثالث لمحمود، بعد حسّان وسعيد. بالنسبة لي، كان يُسر رمزاً للبراءة، إذ كان طفلاً مهذّباً في الحارة، وشخصيّاً كنتُ أحبّه، كان جميلاً ببشرته البيضاء وعينَيْه العسليَّتَيْن اللامعَتَيْن، وكان يميل إلى الشقار، لم أكنْ وحدي أحبّه، بل أغلب نساء الحارة، ولا سيما أمّي، كان مطيعاً ولطيفاً، ويقدّم لنا الخدمات.

إضافة إلى شخصيّته الدمثة، كان يُسر يمثّل لي الخلاص، كنتُ شابّة مُراهقة، حين استلقيتُ على السطح في تلك الصيفيّة، حيث كنّا ننام على السطح، وكان أبي وأمّي ينامان تحت، في أرض الدار، كنتُ وحدي على السطح، بينما غَفَتْ أختي بعُمق، وأخي في غرفته، كنتُ أبكي، وأدعو الله أنْ يُنقذ فكريّة، كانت في المخاض، وكانت أصوات آلامها تخترق أذني، كانت تلد في الغرفة التي تطلّ على سطح بيتنا، رحتُ أراقبُ ضوء غرفتها، وأسمعُ صوت حماتها أمّ سعيد تُهدِّئها، وتُطالبها بالضغط. لا أعرف لماذا لم يأخذوها إلى المشفى؟ ثمّ تذكّرتُ أنّ تقاليد الحارة والقرية التي تتحدّر منها عائلة جيراننا ترفض فكرة المشفى، حتّى إنّهم لم يأتوا لها بقابلة، وتركوا حماتها تُولِّدها.

كانت أمّ سعيد تُولِّد بعض النساء، ولكنْ، هناك قابلة محترفة في الحارة، وتحمل شهادة مُصرَّح بها للعمل كقابلة، وكنتُ أثق بها، فهي التي ولّدتْ أمّي في آخر إخوتي: حسام.

أمّ علاء، القابلة التي تربطها قرابة بعائلة أمّ سعيد، لماذا لا يرسلون في طلَبها؟ كنتُ أتألم أمام أصوات استغاثة فكريّة، وهي تقول: إني أموت، أبوس إيدكن خلصوني، متت، والله متت. كنتُ أبكي وأصلّي لها، إلى أنْ وضعتْ يُسراً، فكأنّ آلامي أنا هي التي توقّفتْ، وكأنّني خلصت من عذابات فكريّة، فنمتُ مطمئنّة، أحمد الله على خلاص فكريّة.

هكذا جاء يُسر، وارتبطتُ به عاطفيّاً، كأنّه ابني بطريقة ما، إذ تتبّعتُ ولادته صوتيّاً، من غرفة أمّه التي تطلّ على فراشي فوق السطح.

حين تركتُ سورية سنة ٢٠٠٤، كان يُسر في السادسة عشرة من عمره، وأذكره شابّاً لطيفاً وخجولاً، على عكس أخَوَيْه، حسّان وسعيد المشاكسَيْن والمتعاركَيْن مع الصبية ..

لم أصدِّق حين رأيتُ الصور على الفيسبوك، حيث يُسر على الدبّابات، وبيده سلاح، وحين تواصلتُ ذات مرّة مع أحد الشباب من حارتي عبر الفيسبوك، ورحنا نتبادل المعلومات، لأتأكّد أنّه فعلاً من حارتي ،وأسأله عمّنْ يعرف، ولمّا جاء على ذِكْر يُسر، قلتُ له"أبوس روحه، كم أحبّه" فضحك الشّابّ، وحذّرني: إذا قلتِ هذا أمامه، فسيُطلقُ عليكِ النارَ، هو مقاتلٌ الآن، ولا يقبلُ هذا الكلام، فأجبتُهُ: إنّني أتحدّاه، سأقول هذا الكلام ليُسر بوجهه، وسيُطرق خجلاً ..

حين التقيتُ بحسام، حدّثني طويلاً عن يُسر، وكنتُ مسحورةً بانقلاب شباب الحارة.

لكنّ الوَجَعَ الحقيقيّ والكثيرَ كان حين قرأتُ خبر مقتله عبر الفيسبوك أيضاً.

يحدّثني حسام بأنّ آخر مرّة التقى فيها بيُسر كانت في تركيا، يقول

حسام: إنّ يُسر كان يشعر باقتراب أجله، قال لحسام: تعال نام قربي، أريد أنْ أشبعَ منكَ. كأنّه كان يودّعني، يقول حسام. وأنّهما التقطا الكثير من الصور التذكاريّة معاً. وحين وَصَلَ حسّان إلى أثينا، اتّصل به يُسر، وثرثرا طويلاً على الهاتف، قال يُسر لحسام: إنّه يرغب في الحديث عنهما، عن حياتهما وذكرياتهما في الحارة، عن الطفولة والأيّام الحلوة. قال حسام: إنّه شَعَرَ بالخوف، خاصّة حين قال له يُسر: سامحني. كأنّه فعلاً شَعَرَ باقتراب ساعتِهِ. بعد أسبوع من ذلك الحديث، مات يُسر.

يحدّثني حسام عن سعيد، ابن عمّ يُسر، سعيد حسّون، وحسّون هو ابن شقيق محمود. يقول لي: إنّني أخبرتُ يُسر قبل مغادرتي حلب، لديّ شعور باستشهاد أحد منّا. سأله يُسر مَنْ برأيكَ؟ وكان يُسر يثقُ في حَدْس حسام. أجابه حسام أنّه لا يعرف بالضبط مَنْ سيموت، لكنّ إحساساً قويّاً لديه باستشهاد أحدهم عن قريب. بعد أسبوع من مغادرة حسام لحلب، ووصوله إلى تركيا، مات سعيد حسّون، وندم حسام، لأنّه حين غادر، لم يُوقِظْ سعيد ليودّعه، بل تركه نائماً. وحين استيقظ سعيد، سأل كثيراً عن حسام، وتضايق لأنّه لم يره. أسأل حسام أين تركتَهُ، حين غادرتَ وكان نائماً؟ يجيبني: في حريتان.

حديقةُ الحارةِ

فقدتُ عقلي اليوم، وسمعتُ كلام جاراتي، لم أؤمنْ يوماً أنّني مجنونة، لكنّني فعلاً اليوم صدّقتُ بأنّني مجنونة.

كان الطقس جميلاً، ربيعٌ يحمل معه رائحة القرية، رائحة الخضروات، رائحة نبع العين في جنديرس حين كنتُ صَبيّة، أذهب إلى العين، وأغسل هناك الصوفَ، مع بنات القرية، ونضحك ونحتفي بالربيع.

الربيع كان عين الماء في جنديرس، وتحوّل إلى التبّولة واليبرق الطازج في الحارة هنا. تبّولة الربيع ليستْ مثل تبّولة الشتاء الكرديّة التي تحبّينها (الدونك)، التي أكوي لها البصلة بالزيت، وأضيفها مع دبس البندورة والبرغل والخضار، تبّولة الربيع يعني ورق العنب الطازج، أقطفُهُ من الدالية، وأنقعُهُ في الماء الساخن قليلاً، ليُحوّل لونه الأخضر إلى أصفر فاتح بلون الزيت، ثمّ نضعُ التبّولة داخل ورق العنب، ونأكلُها هكذا، لقمة لقمة، بدل الخبز..

نعم، الربيع هنا يعني التبّولة، والتبّولة تعني اللّمّة، واللّمّة تعني الحارة. تعرفين كم أحبّ الحارة، وكم أحبّ جاراتي، وكنتِ تغارين من حبّي لبنات الجارات كأنّهنّ بناتي، وتعرفين دون شكّ، كيف كانت بنات أمّ محمود، أمينة وخديجة ورقيّة يغرنَ منكِ، لأنّ أمّهنّ تحلفُ برأسك وبرجاحة عقلكِ، لكنّكِ لا تعرفين أنّني كنتُ أحياناً أغار من حبّ الجارات لكِ. ولا سيما

أمّ محمود، كنتُ أخاف أنْ تُفضّليها عليّ، ألم يكفني أنّكِ كنتِ تَدْعِينَ عمّتَكِ حنيفة بأمِّكِ الثانية.

أمّا أمّ حسين، سعدى، فلم أشعرْ يوماً بالغيرة من حبّها لكِ، أو حبّكِ لها. كانت فعلاً أكثر من أخت بالنسبة لي، وكان يمكنها أنْ تكون أمّكِ، وهي كذلك بالنسبة لسُها ولؤيّ، نعم، لقد رضّعتْ أمّ حسين سُها ولؤيّ، مع زينب ومحمّد، يعني زينب أختكِ بالرضاعة، ومحمّد أيضاً ..

المهمّ، كأنّني استطردتُ قليلاً ؟ لعبت الجارات بعقلي. والله، عَفَّنْ قلبي من حبسة البيت، ولأنّه الربيع، قرّرنَ الذهاب إلى الحديقة، وأنا مجنونة، وافقتُ، نسيتُ أنّني هرمتُ، ولم أعدْ شابّة، أركضُ في الحديقة، وأفرمُ البقدونس، وأنظّف البصل الأخضر، ثمّ أغسله في حوض الحديقة، حيث حنفيّة الماء التي تكاد تكون أهمّ مصادر الماء في الحرب. نعم، أغلب السكّان هنا يملؤون الماء من حنفيّة الحارة، ولا سيما الذين ليست لديهم القدرة على شراء الماء. أجل، والله، أضحك، كما نقول، هَمّ يْضَحِّكْ، وكأنّ هنا الناس لديهم القدرة على شراء الماء. لا أحد هنا يشتري الماء إلا القلّة القليلة من المقتدرين، لأنّ الأثرياء هربوا، صار أغلبهم في تركيا.

حسناً، ذهبْنا إلى الحديقة. الشمسُ دافئةٌ، والورودُ بدأتْ بالتّفتّح، ألوانٌ مُدهشةٌ، نعم، أعشق الربيع والمرج الأخضر المطرّز بالورد الموف والأصفر والأبيض والشقشقيق ..

جلسْنا على الحشيش الأخضر، ومَدّتْ أمّ رامي سجّادة من أجلي، قالتْ: إنّ الرطوبة تؤذي مفاصلي. والله، أمّ رامي لا يوجد مثيلٌ لها، كأنّها ابنتي، لا تزعلي، إنّها تعتني بي، وأنتِ بعيدة، وسُها، أيضاً، سافرتْ إلى تركيا.

المهمّ، جلسْنا، وبدأنا بتنقية البقدونس، وتقشير البصل والثوم، ثمّ قفزتْ أمّ محمّد، واضعةً الخضار المنتقاةَ والمفرومةَ في طِسْت بلاستك أخضر لمّاع، وذَهَبْتُ به صوب الحنفيّة قبالتنا، غسلتُ الخضار قطعةً قطعةً، إلى أنْ صارتْ تلمعُ من النظافة.

وَضَعْنا البرغلَ والليمونَ والكثيرَ من الزيت، كان الطبقُ الكبيرُ يلمعُ بالزيت، وما إنْ أخرجتُ أوراقَ اليبرقِ المنقوعةَ بالماءِ الساخنِ في البيت، والجاهزة لنلفّ داخلَها التبّولة، حتّى قامت القيامة، يا مها!

لم نذق التبّولة، صرْنا نركضُ في كلّ اتّجاه، نعم، أنا حاولتُ أنْ أركضَ، أعطاني اللهُ القوّةَ، لأزحفَ، وأحاولَ الاختباء.

كانت القذائفُ تسقطُ مثل المطر، مثل مطر الربيع العنيف، مثل أسنان العجوز، كثيرة وسريعة وعنيفة.

لحظاتٌ لم تطلْ، حين جاء أبو محمّد بسيّارته الصالون الكبيرة، ليجمَعَنا من مداخل البيوت التي اختبأنا فيها قبالة الحديقة..

والله، المشهدُ يحرقُ القلبَ، كنّا نبكي جميعاً، لا أعرفُ من الخوف أو من فرحة النجاة. كانت هذه أوّل مرّة أرى القذائفَ عن هذه المسافة القريبة.

مرّت السّيّارة قرب سور الحديقة، ونحن نتفرّج على المكان الذي كنّا فيه للتّوّ، الجثث تملأ الحديقة، أطفال - والله - يا مها، أجسادٌ التصقتْ بالأشجار والمرج الأخضر، واختلطتْ بالورود.

كنتُ أبكي مثل الأطفال طيلة الطريق، وكنتُ أقول بصوت مرتفع: ليتني متُّ بدل النساء الشابّات والأطفال، كثيرون لم يركضوا، كثيرون لم يفكّروا

في الهرب، ربّما ظنّوا أنّ القذائف تسقط على مقربة منهم، ولا تطالهم، لأنّهم اعتادوا النجاة. لا أعرف لماذا لم يهرب الآخرون مثلنا؟ عدنا ناجيات نحن الجارات، ولكنّ قلبي لم ينجُ.

بدأتُ أفكّر بالرحيل، ثمّ خفتُ، كيف أترك البيت؟ سيأخذُهُ الأغراب، ويحتلّونه.

لم يبقَ لنا سوى هذا البيت، لم يبقَ في كلِّ العائلة سوى هذا البيت، سُها تركتْ بيتها، وأخواتي وإخوتي، كلّ بيوت العائلة هُجِرَتْ، هذا البيتُ الأخير، يا مها، بيتُكم، بيتُكِ وبيتُ إخوتِكِ، لا يُطاوعني قلبي على تَرْكِهِ.

حتّى فادية هاجرت ..

لا أستطيعُ الكلام، إنّها الطائرة

قطع: أصوات تحليق طيران

كتيبةُ يُسر في حريتان:
كتائبُ شهداءِ الخالديّةِ

في حريتان، علقتُ لم أتمكّن من المغادرة، كنتُ مختبئاً، وكان يُسر يرجوني ألا أخرجَ خارج المزرعة، حيث أقمتُ في مزرعة، هي بمثابة المقرّ الإضافيّ ليُسر، لأنّ المزرعة التي كان يقيم فيها، كانت فيها عائلته، وكان صعباً أنْ أكون بينهم، كشابّ عازب ووحيد. أرسلني يُسر إلى مزرعة قريبة من قرية كفر حمرا، مزرعة مَدَنيّة، صاحبها مهاجر، وكان يأتي من وقت لآخر، ليطمئنّ عليّ، بقيتُ عالقاً هناك لمدّة شهر ونصف تقريباً.

كتيبة يُسر وحوالي اثني عشر مقاتلاً، كلّهم من حارتنا الخالديّة. أسّس يُسر كتيبتَهُ العسكريّة وحده، بينما التحقَ أخوه سعيد بداعش. وهو الآن أمير (في أثناء رَوْي هذه القصص قبل عامَيْن) . كما أنّ حسّان أيضاً، الأخ الأكبر، كان مع داعش، ولكنّه تركهم، بسبب رَفْضه لقتال الثوّار. وكَتَبَ تعهّداً لدى الهيئة الشرعيّة بعدم مقاتلة الثوّار. أمّا سعيد، فقد قبض عليه الثوّار، في بداية الاقتتال بين داعش والثوّار، وكَتَبَ تعهّداً أيضاً، لكنّه خان التعهّد، وعاد إلى داعش. كان تجمّع كتائب أحفاد عمر قد ألقوا عليه القبض، وحلقوا له لحيتَهُ، وقد توسّل إليهم سعيد للإفراج عنه، ووَعَدَهُم بأنْ يتركَ داعش، ويبقى على الحياد، لكنّ سعيد كذب عليهم، فهو مرتبط بالتنظيم منذ فترة طويلة، وله مكانته لديهم، ويصف الثوّار، أمثال أخيه يُسر وأبناء عمومته في كتيبة أحفاد عمر وغيرهم بالمرتدّين والخوارج.

معَ أبي موسى، قابَ قوسينِ من الموتِ

ما إنْ وَصَلْتُ لعند يُسر حتّى أخذني إلى مزرعة، كانت بمثابة مقرّ إضافيّ ليُسر، حيث كان يتردّد عليها وصحبه، المزرعة لشخص اسمُه وليد حمادة، صاحب محلّ أخشاب، ولديه معامل سيراميك. المزرعة تتبع لكفر حمرا، أوّل الريف الشمالي، بين ضهرة عبد ربه وبين الملاح. الرجل اسمه أبو موسى من بيانون، عمره بين الـ ٤٥ والـ ٥٠ سنة.

محمّد دعبول، أو أبو موسى، أمضيتُ معه أيّاماً رائعة، كان شخصاً لطيفاً ومحبّاً لعمله، يتعامل مع المزرعة بحنان وحُبّ، كان مرحاً وذا ذائقة، متعلّقاً بالأشجار والعشب، كنّا نسقي الزرع، ونُجهّز الطعام: نقلي الباذنجان، نحضر الخضار، كان يعيش وحيداً في المزرعة، وأرسل عائلتَهُ إلى تركيا. ترك وليد حمادة المزرعة في أمانة العامل أبو موسى، وفرّ إلى مصر لمتابعة أشغالِه هناك بعيداً عن الحرب. كان أبو موسى يعتني بالمزرعة، وكأنّه لا حرب، كان يحرسها ويحميها كأنّه في السِّلْم، يعتني بها، ويحميها بمفهوم الأمانة والحفاظ على الأمانة، حيث تركها صاحبها لديه، يُشغِّلُ المُولّدة، ويستخرجُ الماءَ.

تعرّض لمواقف سيّئة جدّاً، كان الثوّار يلجؤون إليه، ويطلبون الكثير من الأشياء، مازوت، مُولّدة، وكان يتجاوب مع طلبات الثوّار، وكان قد تعرّض من قبلُ لهجوم من قِبَلِ شباب يُسمّون (آل شغّالة)، يتبعون لـ (أبو الخير شغّالة)، من عندان. أبو الخير شغّالة، يكاد يكون نسخة أسوأ عن خالد

الحيّاني. من رؤوس عندان، لديه رجال ومحاكمة وثوّار، يرسل رجاله لاقتحام المزارع وسرقة المزارع، لديه صبيان من قبيل الحيّاني، المهمّ أنّ الشباب اعتدوا على المزرعة، ونهبوها، ولهذا كان أبو موسى خائفاً، وكان ممتنّاً للثوّار، أقصد يُسر وجماعته على الأخصّ.

هاجمه الشّبّان تحت تهديد السلاح، متّهمين صاحب المزرعة بأنّه كان شبّيحاً، مع أنّ وليد حليّس كان رجلا محترماً، وكانت لديه مشاريع خيريّة، وأؤكد دائماً على وفاء أبي موسى للمزرعة: نكش التربة - السقاية - الرفش - كان يفيق في السابعة صباحاً كأنّ معلّمه موجود. كان يحرص على ألا تذبلَ وردة في المزرعة، أو يتّسخ العشب، مع أنّه تعرّض عدّة مرّات لطلقات، فالمزرعة قريبة من مقرّ المخابرات الجويّة، المنطقة مكشوفة، سَقَطَتْ بعض قذائف الهاون داخل المزرعة.

المهمّ حَدَثَ ذات يوم موقفٌ مُهمّ.

بيت دعبول من بيانون، أولاد عمّه، كانوا شبّيحة وبَعثِيّة، يدخلون البيوتَ والقرى بسيّارات "مفيّمة" ومموّهة، وينهبونها، مدجّجين بمناصبهم في الحزب. تمّ القبض عليهم من قِبَلِ الجبهة الإسلاميّة الشاميّة ذات ليلة جميعاً، حوالي ١٥ شخصاً من عائلته. حوالي الساعة الثامنة ليلاً، اتُّخذ القرارُ بإعدامهم جميعاً. يوجد بينهم شخص اسمه محمّد دعبول، وصديقي أبو موسى اسمه أيضاً محمّد دعبول، فخاف أصحابه الثوّار من تشابه الأسماء، وأنْ يذهب في الزحمة، فيقتلونه دون ذنب، لهذا طَلَبَ منه الثوّار التواري عن الأنظار لحين انتهاء إعدام الآخرين، واتّضاح تشابه الأسماء.

جاء إليّ، وأعلمني باضطراره للهرب، أعطاني سلاح صيد أوتوماتيكيّاً (بمبكشن)، ورفض أنْ يُخبرني بمكانه، أخذ مسدّسه، وهرب، وقال: إنّه سيعود إليّ في الصباح.

بعد أنْ بقيتُ وحدي دون كهرباء، والمزرعة كبيرة وواسعة، لا توجد تغطية هاتف، ولا إنترنت، ويُسر والأصحاب غائبون، وأنا وحدي تماماً في ذلك المكان البعيد والمنزوي، بدأتُ أشعر بالخوف، وراحت الشكوك تساورُني، ماذا لو جاء أفراد الجبهة الإسلاميّة لقَتْل أبي موسى؟ وهم لا يعرفون شَكْلَهُ، فقط هم مُرسَلُون في مهمّة واضحة، لقَتْل الشخص الذي في داخل المزرعة؟ ماذا لو عَدّوني الشخص المطلوب؟ سيقتلونني دون أنْ يعطوني الفرصة لأشرح لهم، وحين يعرفون الحقيقة، أكون قد قُتِلْتُ، ولن يكون الأمر مهماً، مجرّد كرديّ بسيط، مات بسوء تفاهم، لن يُكلّف الأمرُ أحداً أيّ شيء، ولا سيما الثوّار القادمين لقَتْله لن يكونوا بالضرورة من أبناء المنطقة، قد يكونون أغراباً من محافظات أخرى، أو حتّى من المهاجرين من بلاد أخرى، ولا يعرفون التميز، ولن يهمّهم التدقيق في هويّة ضحيّتهم.

لهذا قرّرتُ مغادرةَ المزرعة، ورحتُ أسير دون وعي منّي، محاولاً الابتعاد عن المكان، إلى أنْ لمحتُ مزرعةً قريبةً، وعليها لافتة، قرأتُ فيها اسم الكتيبة العسكريّة التي تتّخذ المكان مقرّاً لها: حركة فجر الإسلام، وهم إسلاميّون. طرقتُ الباب، فخَرَجَ شابٌ من عمري تقريباً، ألقيتُ عليه السلام، وقلتُ له: إنّني جارُهُ في المزرعة المجاورة، وأشعر بالوحشة، لهذا جئتُ أسهر معكم. رحّب بي الشّاب، دخل ونادى صَحْبَهُ، فجاؤوا إليّ، وعرّفتُهم بنفسي، اسمي حسام من الخالديّة. جلستُ بينهم، وكانوا قلّة، وهنا كانت صدمتي، حين سألتُهم أين الآخرون؟ قالوا لي: إنّهم خرجوا في استنفار مباغت، لأنّ كتيبتَنَا اشتبكتْ مع الأكراد الملاحدة، وذَهَبَ الشباب للمؤازرة. كدتُ أموت من الخوف، لم أُعلمْهم بأنّني كرديّ، ولكنْ، أنا بينهم الآن، وأصحابهم يشتبكون مع الأكراد في هذه اللحظة. تخيّلتُ لو أنّهم يسمعون بمقتل أحد جماعتهم على يد الأكراد، ويعرفون بأنّني كرديّ، سأكون قد جئتُ إلى حتفي بقَدَمَيّ. هربتُ من خشية قَتْلي نتيجة

الخَلْط بيني وبين الشخص المطلوب قَتْله من آل دعبول، لآتيَ إلى هنا، فيقتلوني لأنّني كرديّ. وراحتْ تتوالى الأخبار عبر القبضة باستشهاد أحد قيادييهم، ويتكرّر مصطلح (الأكراد الملاحدة) عبر القبضة وبين الشباب أمامي عشرات المرّات، الأكراد الكَفَرَة، البي كي كي الأنجاس، وأنا أتحرقصُ في مكاني، ولا أعرف ماذا أفعل.

تعشّيْنا، وَصَلُّوا أمامي، كأنّنا في الجيش، كلٌّ منهم مشغولٌ بأمر: أحدُهُم يأكل، الآخر يتحدّث على الهاتف، الثالث يكتبُ رسائل هاتفيّة، أحدهم يسترخي بانتظار التعليمات .. وجدتُ أمامي شخصاً، بدا أنّه غير سوريّ، أعتقد من لهجته بأنّه تونسيّ أو جزائريّ، وأعتقد أنّهم كانوا يدعونه أبو البراء، فأخبرتُهُ بقصّتي دون تفاصيل، أنّني أنامُ في المزرعة لدى صديق، وهو مطلوب، وهَرَبَ، وأنا خائفٌ أنْ يخلطَ طالبوه بيني وبينه، وأنا من غير مدينة، ومن غير منطقة. فقال لي أبو البراء: لا تقلقْ، طالما عرفنا قصّتَكَ، اذهبْ، ونمْ في المزرعة، وإذا تريد سلاحاً نعطيكَ، وحَرَسُنا سيتكفّلون بالانتباه إلى المزرعة وحمايتكَ، وتوضيح الموضوع، إذا تمّ اقتحام المزرعة من قِبَلِ الجبهة الإسلاميّة. الرجلُ طمأنَني، ووَعَدَني، فعُدتُ إلى المزرعة، ونمتُ مطمئنّاً، وضعتُ سلاحي بجواري حتّى الصباح.

حتّى الآن لا أنسى الخوف الذي تعرّضتُ له آنذاك كَكُرديّ، لو عرف كلُّ مَنْ هناك بهويّتي، من خارج حلقة الأصدقاء، لاعتقلوني، وعَدُّوني أسيراً، وربّما قَتَلُوني، حتّى اللحظة، وأنا في أوروبا، أرتجفُ من الخوف، ولا أصدِّق أنّني نجوتُ، أتخيّل سيناريوهات تعذيبي وقَتْلي، لو أنّهم أمسكوا بي، وعرفوا أنّ كرديّاً بين أيديهم.

حين جاء أبو موسى، قال لي عبارة لا أنساها: دَمي لكَ. أنتَ صنتَ الأمانةَ، وبقيتَ هنا، كنتُ أتوقّع أنْ تهربَ وتتركَ المزرعة، لم يكن أبو موسى

يعرف أنّني لم أبقَ في المزرعة باختياري، كنتُ مُجبَراً على البقاء، فأنا كُرديّ، ولو خَرَجْتُ ووَجَدَتْني إحدى الجماعات المشتبكة مع الكُرد، لقتلوني على الهويّة.

أبو موسى ساعدني للخروج من المنطقة، ونَصَحَني بمغادرة البلد.

معرسكة(*) الخان ومعارك داعش الأولى

غادرتُ صوب عفرين. ووَصَلْتُ إلى معرسكة، حيث بيت الشيخ عارف، والد جميلة.

بعد كلّ مخاطر الطريق، واعتقادي أنّني وَصَلْتُ إلى برّ الأمان، حيث الشيخ عارف الذي اتّفقتُ معه على الهرب إلى تركيا. صَدَمَني الرجل بأنّه تراجع عن الفكرة، بسبب اختطاف ابنه (الذي قُتِلَ لاحقاً). وقال لي: إمّا أنْ تغادرَ وحدَكَ إلى تركيا، أو عُدْ من حيثما أتيت.

الشيخ عارف، إمام جامع معرسكة، هو والدُ جميلة صديقتي في حلب، هي التي اقترحتْ عليّ الذهاب إلى تركيا برفقة والدها، حيث قالتْ لأهلها: إنّني أخو صديقتها، وأعلَمَتْني أنّ والدها سيذهب إلى تركيا، حيث عائلة خالتها هناك، وسيُوفّرون له عملاً وسَكَناً.

بسبب اختطاف ابن الشيخ عارف، لم يتمكّن الشيخ من تَرْك بناته الصبايا وزوجته الشّابّة، فقرّر البقاءَ في القرية.

صَدْمَتي كانت كبيرةً، لم أُصدِّق ما سمعتُهُ من الشيخ عارف، بعد كلِّ ذلك الخطر الذي تجاوزتُهُ، ووَضَعْتُ روحي على كفّي، لأصلَ إليه، لنغادرَ معاً، يخذلُني ويتراجعُ عن السَّفَر. ماذا أفعلُ بنفسي؟ لا يُمكنُني البقاءُ في بيته، وهو رجلٌ غريبٌ، ولديه نساؤُه معه، أين أذهب؟ وماذا أفعل الآن؟

---

*) معرسكة: قرية تابعة لناحية شرّان في منطقة عفرين

لم أكنْ أعرف أحداً في تركيا، لأذهب إليه، ولا أعرف طُرُق التهريب، كانت خطّتي معتمدةً على هذا الشخص، ورغم أنّني رأيتُ الموتَ حتّى وَصَلْتُ إليه، لكنّني لم أملكْ أيّ خيار آخر، عدتُ إلى المزرعة، وفي تلك الأثناء، حَصَلَ أوّل اشتباك في إعزاز[*]، بين الدولة الإسلاميّة وعمّار داديخي، وقامت القيامة، وأنا في الطريق إلى حريتان.

لم أعرفْ ماذا يحدث، الناس تُغلق محالها، وتهرب، والسّيّارات في فوضى، أوقفتُ سيّارة، وقلتُ لسائقها: إنّني ذاهبٌ إلى حريتان، صعدتُ معه، كنّا مجموعة ركّاب، أوقفَنَا جماعة الدولة التي عُرِفتْ لاحقاً بداعش، هؤلاء الذين صرْنا نسمع عنهم فيما بعد أخباراً مُروّعة عن ذَبْح وحَرْق البشر وهم أحياء، أوقفوا السّيّارة، وسألونا إلى أين نتّجه؟ كنتُ أحاول دائماً ألا ألفتَ النَّظَر، أتحدّث بمودّة، وأدعو لهم بالتوفيق، أحمدُ اللهَ أنّ أحداً لم يطلبْ أوراقي. وكنتُ أحضّرُ نفسي دائماً، فيما لو طُولِبْتُ بإبراز هويّتي، سأخرج شهادة القيادة، بدلاً من الهويّة، لأنّ الهويّة تُثبت مكان ولادتي في قرية كرديّة. وكانت لديّ مشكلة أخرى، في شهادة السواقة، حيث لا يظهر مكان الميلاد، ولكنْ، ثمّة اسم أبي الفاضح، سيعتقد كلّ مَنْ يمسك بي بأنّني مسيحيّ أو كرديّ، وكنتُ أخاف دائماً من أنْ يُقبَضَ عليّ لأنّني كرديّ.

في إعزاز، كنتُ خائفاً أيضاً من الكتائب الكرديّة (البي كي كي)، فإنْ أمسكوا بي فسيأخذونني للقتال معهم، وهذا ما حَصَلَ، لاحقاً، للفتاة التي كنتُ أنوي الزواج بها، حين أُجبِرَتْ على القتال مع البي كي كي. وأنا شخصٌ خارج السلاح، ولا أقبل أبداً بقَتْل أحد.

كان يوماً تاريخيّاً، سمعتْ به لا سورية فقط، بل العالم الخارجي، حيث أعلنتْ داعش إعزاز منطقة عسكريّة، ما هذا الحظّ؟ كيف يصادفُ عبوري

---

*) مدينة في شمالي سورية

بإعزاز اليوم الذي تحدثُ فيه أوّل المواجهات بين داعش ولواء عاصفة الشمال.

أوقفتْنا جماعة داعش في الطريق، ولكنْ، على عجالة، بسبب الزحمة واحتدام المعارك، ولم يُصدِّق يُسر نفسه حين رآني عائداً إلى المزرعة، حيث أرسل شخصاً لمساعدتي، بعد أنْ تركَني أبو موسى، وغادرتُ مع شخص اسمه عبدو الهوا، هو من لواء التوحيد، الفوج السابع، أبعد من إعزاز، لا يمكنه أنْ يدخلَ، هناك خطرٌ كبير عليه. قطّعَني حواجز الثوّار، وحواجز داعش.

كانت داعش موجودة بالريف الشمالي، وتخطف الأكراد. وَصَلْنا إلى إعزاز، أعطاني ورقةً من معلّمه، من أجل الرجعة، لم أتوقّع العودة. كان طريقي واضحاً في رأسي: من عفرين إلى تركيا. ولكنّ الناس الذين وَعَدُوني بالخروج معي، فقدوا ابنَهم الشّابّ، الذي يبلغ ثمانية عشر عاماً، واضطُررتُ للعودة إلى حريتان. رجعتُ على إعزاز، كانت بداية حرب داعش ضدّ لواء عاصفة الشمال، حيث كان هذا اللواء يحتجز ثمانية وأربعين عنصراً من حزب الله . دخلتُ إعزاز، أحملُ معي ورقةً من لواء التوحيد الذي كان طَرَفَ صُلح بين داعش وداديخي، ورجعتُ إلى حريتان. بقيتُ أسبوعَيْن هناك، لكنّ الريف صار مُخيفاً: اغتيالات قادة الجيش الحُرّ، وداعش تهاجم حواجز الثوّار ومقرّات الثوّار، وتعتقل أيّ شخص مع الثوّار حتّى ولو إعلاميّ إغاثيّ. اضطُررتُ للخروج عن طريق شخص اسمه عمّار خليل من كللي[*]، وهو من شباب الحارة، وكان يملك ماكينة إكبريس، ويبيع القهوة، وكنتُ من زبائنه الدائمين.

اتّصلتُ فيه، وقال لي:" تعا وصّل لـ كللي وأنت بأمان" . أخذتُ سيّارة

---

*) بلدة من ريف إدلب

سيرفيس من عند أبي موسى، حتّى كللي عند عمّار، ولم أكن خائفاً كثيراً، لأنّ الحواجز هنا تابعة للجيش الحُرّ، والجيش الحُرّ كان منشغلاً آنذاك بداعش، وليست لديه مشكلة حاليّة مع الكرد. طريقي كانت أفضل من طريق إعزاز، التّوتّر كان أخفّ قبل معبر باب الهوى، هناك ثلاثة حواجز لتنظيم داعش، كنتُ خائفاً، فأنا كرديّ، وداعش تعتقل الأكراد، خرجتُ ونجوتُ من أكبر حاجز لداعش بمنطقة الفوج ٤٦ أورم، حاجز ضخم وراية ضخمة عملاقة، وقّفنا الحاجز، وقال: من وين جايين؟" قال الشوفير: من حريتان. وتَرَكَنَا. أظنّ أنّ الشّابّ الداعشي كان سعوديّاً. وَصَلْتُ لعند عمّار، ورفضتُ البقاء. خَرَجْنا بسيّارة عمّار من الفرقة التاسعة، لواء أمجاد الإسلام، وهم معروفون بالمنطقة.

وصّلني عمّار حتّى المعبر، كان المعبر تحت سيطرة أحرار الشام، لكنّهم لم يسمحوا لي بالعبور، لأنّني لا أحمل جواز سَفَر، قالوا لعمّار إذا دَخَلَ من طرفِنا، فلن يسمحَ له الأتراك بالدخول لاحقاً، وكان ثمّة مهرّبون ينتظرون قرب المعبر لالتقاط الأشخاص أمثالي الذين يريدون الدخول إلى تركيا بطريقة غير شرعيّة، حيث لا يملكون وثيقة السَّفَر(البسبور).

الأرضُ الضائعةُ: أركضُ ولا أصلُ

سلّمني عمّار للمهرّب، بعد أنْ أخذ هويّته ومعلوماته، وقال له: أنتَ مسؤول عن هذا الشّابّ، وأعطاه المال. ركبتُ على الموتور خلف المهرّب الذي لم يُدْخِلْني الأراضي التركيّة، فقط بخبرته في المنطقة، كان يستطيع العبور من أماكن، لا تتواجد فيه رقابة عسكر الحدود. قطعْنا من باب الهوى حوالي عشرة كيلو متر، بطُرُق وعرة، صخور وجبال، حتّى وَصَلْتُ إلى قرية أورم الجوز. كانت هناك البساتين والأراضي الزراعيّة الواسعة، تَرَكَني المهرّب هناك، أشار لي بيده: انظرْ، ترى الطريق الإسفلتي؟ تركض بسرعة حتّى تصلَ هناك، ما إنْ تجد نفسكَ على ذلك الطريق، حتّى تُوقِفَ أيّة سيّارة تعبر أمامَكَ.

الطريق مفلوحة، أرض زراعيّة فارغة، كما في الأحلام، رحتُ أركض، وأشعر أنّني لا أصل، وصوت المهرّب خلفي يصرخ: اركضْ، اركضْ، أسمع كلمة اركضْ في رأسي، وأركضُ. تحوّلت الحياةُ كلّها في هذه اللحظة إلى حالة رَكْض دون أنْ يحدثَ شيء، كنتُ أركضُ، وأشعر أنّ الأرضَ ثابتة، لا تتحرّك، تماماً كما يحدث في الكوابيس: نركضُ، ولا نتحرّك! كانت الأرض ضائعةً، ولا أعرف ماذا يوجد خلفي، ثمّة أرض كثيرة تحت قَدَمَيّ، أركضُ، ولا تتحرّكُ، وأرض سورية صارت في الخلف، كنتُ فوقَها أحملُ حقيبتي، أضعُ فيها أغراضي، بعض الملابس التي أخذتُها معي.

أركضُ، وأشعر أنّ خطواتي لاصقة بالأرض، وأنّ الأرض خلفي تنقلب

معي، كما لو أنّني أركضُ فوق سجّادة إلكترونيّة متحرّكة، تدور في مكانها، بل كأنّ الأرض فَقَدَتْ معناها، وصارت متركّزة حول خطواتي التي لا تأخذني إلى مكان، بينما كنتُ أركض، لمحتُ مقرّاً للجيش التركي على الحدود، وخفتُ كثيراً، إذا رأوني، فقد يطلقون عليّ النار، وقد سمعتُ أنّهم فعلوها من قبلُ، أو على الأقلّ، سيُمسكون بي، ويُعيدونني إلى الأرض السوريّة، رحتُ أركضُ بقوّة، ضاغطاً على ساقيّ، وحقيبتي تضغط على ظهري، حتّى وَصَلْتُ إلى الشارع الإسفلتيّ (الزفت)، ولمحتُ سيّارة، أشّرتُ لها، توقّف صاحبها، وكان رجلاً مسنّاً قليلاً، حاولتُ أنْ أنطق(الريحانيّة)، فلم يخرجْ صوتي، أشار لي الرجل بالصعود، وعرف بأنّني سوريّ. في الطريق، أخبرتُهُ أنّني ذاهب إلى الريحانيّة، فقال: إنّها على طريقه.

طلبتُ منه أنْ أنزل عند (دوّار البركة). حيث اتُفقت مع صديقي حسن الذي يعيش في الريحانيّة، وكنّا على تواصل عبر الفيسبوك. رَفَضَ الرجلُ أنْ يأخذ منّي المال، أجرة السّيّارة، قال لي: أنتَ سوريّ، الله يحميك ويحمي بلدكم. هناك رأيتُ شابّاً سوريّاً، نحن نعرف بعضنا، طلبتُ منه استعارة هاتفه، واتّصلتُ بحسن من رَقْم الشّابّ، وأخبرتُه أنّني موجود في دوّار البركة. جاء حسن بدرّاجته الناريّة، أخذني إلى بيته، حيث ارتحتُ، وأخذتُ حمّاماً، وتناولتُ الطعام.

أمضيتُ عند حسن عدّة أيّام، وكانت زوجته عند أهلها في الريحانيّة، وقد تهيّأتْ للعودة، أحسستُ بالحرج من بقائي لديه، بيته صغير، وزوجته ستعود، وسيصعب وجودي عندهما. هنا قرّر حسن أنْ يأخذَني للعمل في الفندق، حيث كان يعمل.

حسن مراد

حسن من أهالي الحارة، كان عنده دكّان، يبيع دخاناً وموادّ غذائيّة. بعد تواجد الأمن الكثيف في الحارة، وإزعاجهم للسّكّان، قرّر حسن المغادرة إلى تركيا. كان رجال الأمن يدخلون الدكّان، يأخذون الدخان الغالي، وكلّ ما يريدون، ويخرجون دون دَفْع قيمة مشترياتهم، وكانوا يقتحمون الدكّان، ويزعجون الزبائن حين يشعرون بازدحام الدكّان، خوفاً من أنْ يكون التّجمّع لأسباب تتعلّق بالتنظيم للتظاهر، أو أعمال تتعلّق بالثورة.

حسن تقريباً كان آخر مَنْ تبقّى لي في الحارة، بعد مغادرة أصدقائي وأبناء الجيران، كان عنده ماكينة إكسبريس، كنتُ أذهب إليه، ويُضيّفني القهوة، وأجلس عنده وقتاً طويلاً، إذ لم يعدْ هناك أيّ مجال للعمل، صرْنا أصدقاء كثيراً، وتقاربْنا في الآونة الأخيرة، حتّى صارتْ بيننا زياراتٌ عائليّة، زرتُ بيتهم مع أمّي، وجاءت أمّه لزيارتنا، غادر أهله وأهل زوجته قبله، ثمّ التحقَ بهم في الريحانيّة.

نظريّةُ أمّي

وَصَلْتُ إلى القرية بعد أنْ قطعتُ حواجز كثيرة، لا تلوميني لأنّني لا أعرف مَنْ هؤلاء، حواجز عسكريّة، تختلف الوجوه التي تقف عليها من حاجز لآخر، لا أعرف أسماء هذه الفصائل، تعرفين أنّني أكاد لا أحفظ أسماءَكم، وحتّى الآن لستُ متأكّدة من اسم البلد الذي تعيشين فيه.

وَصَلْتُ إلى كفر جنة، باتجاه شران، ونزلتُ على مفرق القرية، مشيتُ وحدي، طار صواب أهل الضيعة حين رأوني وحدي قادمة من حلب، والحرب في جميع جهات المدينة، لكنّني امرأة عجوز، مَنْ يبالي بي من العسكر؟ يأخذون هويّتي، ينظرون في وجهي، ثمّ يغادر الباص أو السّيّارة، نعم، فقد أخذتُ عدّة وسائل نَقْل حتّى وَصَلْتُ إلى القرية.

في هذه الأثناء، أعتقد أنّ حسام كان قد وَصَلَ إلى ألمانيا، ماذا؟ لم يذهبْ إلى ألمانيا؟ أين؟ السويد، وأين تكون السويد، إذنْ؟ أليستْ في ألمانيا؟ اعذريني، فأنا لا أفهم بأسماء البلاد، هناك الكثير من المُدُن التي يصعبُ عليّ إدراك وجودها، يكفيني أنّني أعرف حلب. ماذا؟ نعم، معك حقّ، حتّى في حلب أنا أضيعُ، آخذ باص الصاخور بدلاً من باص الأشرفيّة، لهذا كنتُ أصحب أحدَكُم معي، حتّى لا يخدَعني أحدٌ، فأركب في الباص الخطأ. أصلاً من ميزات المدرسة أنّكم تقرؤون أسماء الباصات، ولكنْ، انتبهي، رغم هذا، وَصَلْتُ إلى القرية، نعم، أنا عفريتة كما تقولين، لكنّني هذه المرّة كنتُ مصرّة على الوصول إلى القرية، من أجل نائلة التي

ستلدُ قريباً في تركيا، نعم، ألفظ اسم تركيا بسهولة، لأنّ جدّتي تركيّة، هذه سهلةٌ عليّ.

جلستُ عدّة أيّام في ماتنلي الواقعة بعد كفر جنة بقليل، لكنّني مَلَلْتُ. الحدود التركيّة السوريّة مُغلَقَة، عليّ الانتظار إلى بعد العيد، يا بنتي، الناس لا تحتمل بعضها في الحرب، وأشعر أنّني ثقيلة عليهم. لا، عيب، رفضوا أنْ أعطيهم المال لقاء طعامي، فنحن أقارب في النهاية، لا تغضبي، لم يقصدْ ابن حنّان ابتزازَكِ، قال لكِ على الهاتف: أرسلي لي خمسين ألف ليرة في الشهر، وأنا أستأجر لأمّكِ غرفةً في عفرين، وأعتني بها. الناس تبحث عن الحياة، نعم، هم مخدوعون بكِ، ولا يقصدون ابتزازَكِ، يظنّ أنّكِ تعيشين في أوربا عيشةَ الأثرياء، وتلعبين بالمال. وهو يعيش مع أمّه وأبيه وزوجته وأولاده الخمسة في غرفة واحدة. اعتقدَ أنّكِ ترسلين المالَ من أجلي، فيعينني ويعين أهله، لا تقلقي، سأعودُ إلى حلب. ماذا؟ تقلقين أكثر عليَّ هناك، ومستعدّة لإرسال المال، ولكنْ، ضمن المنطق؟ خمسون ألف ليرة ممكن أنْ ترسليها، ولكنْ، مرّة واحدة، أو ترسلين مثلها مرّتَيْن أو ثلاثاً في السنة، وليس في كلّ شهر. لا، احتفظي بالمال، سيلزمُكِ من أجل حسام، إنّه أمانتي في عنقكِ، أنا عجوز، وقد أموتُ في هذه الحرب بطريقة ما، أعطي ما تستطيعين لأخيكِ من أجلي، عِدِّيْهِ ابنَكِ، هذه وصيّتي لكِ.

نعم، كنتُ أقول لكِ: إنّني مَلَلتُ هنا، الناس ثرثارون، وزوجة عمّكِ تُسمعني كلاماً مزعجاً، وتتشفّى بي. تذكرين، كانت تأتي مع عمّك، وأعاملها كأنّها عروس، أخدمها في بيتي. كان أبوكِ في عزّ أيّامه، الآن انكسرتُ، يا بنتي، أصبحتُ أرملة، ووحيدة، سافرتُم كلّكم، نعم، أنا لا أكرّر كلامي، أنتِ غادرتِ قبل الحرب بسنوات، حسناً، فعلتِ، ولكنّ الكلّ

ذَهَبَ بعدكِ. إخواني الصبيان الثلاثة، وأخواتي الخمس، بقيتْ صبيحة فقط في الأشرفيّة، وأنا في العمران، نعم، الخالديّة، سأعود إلى بيتي، لا تلوميني، سأعود مجدّداً إلى القرية، حين تُفتَح الحدود. الأمر غامض حتّى اللحظة، لا يمكنني أنْ أمضي حياتي الباقية في بيوت الآخرين، الناس بدأت تتململ منّي، وأليفة شامتة بي، تدور أمامي كالملكة، معها أولادها وكنّاتها وأحفادها، وأنا وحدي.

لأنّني هنا، قريبةٌ من أهل جميلة، سأذهب غداً مع ابن عمّكِ المختار، لنخطبها لحسام، حسام الآن في اليونان؟ كلا، غادر؟ إلى أين؟ وأين تقع السويد، إذنْ؟ أليست السويد في ألمانيا؟

أنا أذكر ألمانيا كثيراً؟ لا تعرفين السبب؟ أسمهان تزوّجتْ إلى ألمانيا منذ أكثر من عشرين سنة، إنّ اسم ألمانيا هو أوّل بلد لفظتُهُ في حياتي بعد حلب، حتّى إنّك تضحكين حين أُفخّم اللام، فأقول ألَمانيا، وتُعلّمينني اللفظة، كأنّني ابنتُكِ، وأتعلّمُ منكِ النطق ..

نعم، لا يهمّ، غداً سأخطبُ جميلة لحسام.

نعم، التقيا هنا، حين خَرَجَ من السجن، وجاء إلى أهلها، والتقيا، ووافق على خطبتها. هذا يريحني، يجب أنْ أطمئنّ على حسام قبل أنْ أموت.

الهويّةُ العالقةُ في الممرّ

هويّةُ الحـارةِ

وُلِدْنا في حيٍّ ذي أغلبيّة قادمة من الريف، ولا سيما الليرمون.

كنّا العائلة الكرديّة الوحيدة في الحارة، وأنا بدأتُ أشعر بتمايزي الثقافي عن بنات الحارة، حيث تابعتُ دراستي، وصارتْ لديّ طموحات عالية، كالعمل في المسرح، والدراسة في الجامعة، وخَلْع الحجاب، ولم تكن الحارة تتقبّل هذه السلوكيّات، لهذا صرتُ أتذمّر، وأُطالِبُ أبي بالانتقال من الحارة إلى حيٍّ كرديٍّ، يُشبهنا، أو حيٍّ مختلط، فيه أكرادٌ وأرمنٌ ومسيحيّون، وكان أبي يرفض طَلَبي، ويستعمل جملاً، لم أكن أفهمها: أحسّ هنا بالأمان، أؤمّن عليكن، حين أذهب إلى العمل، وأغيب ساعاتٍ طويلةً، أعرف أنّكم في أمان، أتركُكُم بأمان الحارة وأهلها.

هناك ثقافة واحدة، يتمتّع بها أهل الحارة، ثقافة جَمْعِيّة، تَعْدِمُ الفَرْدِيّة، وتخلق التعاضد وقِيَم الشهامة المأخوذة من الانتماء للحارة الواحدة، بطريقة أقوى من الترابط الدمويّ أو القوميّ.

كانت أمّي مثلاً تستعين بجاراتها في الأعمال الصعبة، كالغسيل أو التعزيل أو تحضير الطبخات الكبيرة.

أظنّ أنّ أكبر مُكوِّن لانتماء عائلتي هو عائلة أمّ حسين التي تكاد تكون بمثابة العرّاب الروحيّ لتشكيل هويّاتنا التالية.

حين احترق بيتنا، كان أبي في الضيعة، وإخوتي كانوا صغاراً، قفز

محمود حافياً بقميص داخليّ في فترة القيلولة، وصَعَقَتْهُ الكهرباءُ، ليُطفئ الحريقَ، وكانت نادرة هي جرس الإنذار الذي صرخ لأمّي: بيتكُنّ يحترقُ.

لم تكن أمّي لتنسى أفضالَ هذه العائلة علينا، وكانت تستنجدُ بهم في كلّ صغيرة وكبيرة.

وحين اشتدّ القتال في حلب، طلبتُ من أمّي أنْ تغادر، فكانت تُكرِّر لي: لستُ أهمّ من جاراتي، حين يمتنَ، سأموتُ معهنّ، وإنْ هربنَ، يأخذنني معهنّ، مصيرنا واحد.

شكّلت الحارةُ أمانَ أمّي، وشكّلتْ لحسام حضورَه وانتماءَه، ومَنَحَتْهُ قواماً واعتباراً، كأنّه رجلٌ، واعترفتْ به.

وعلى طريقته الطازجة، البسيطة، وضمن قواميسه المبدئيّة، غير المفزلكة، يعبّر عن انتمائه وهويّته. وأنا أحسّ وكأنّه ليرمونيّ بحت (لهجة أهل قرية الليرمون التي يتحدّر أغلب سكّان الحارة منها)، حتّى إنّه يستطيع أنْ يُقلِّد لهجتهم، ويبدو كأنّه فعلاً منهم.

أبو عرب: الشَّعْرةُ التي قصمَتْ ظهرَ حسامٍ

أحسستُ بأنّني صغير وذليلٌ، حين قال لي أبو عرب: كُوْل خَرَا، مِينْ قال لكْ تْطْلَع بالمظاهرة!

يشرحُ لي حسام عن انتمائِهِ وهويّته، ثمّ عن الرّدّة التي أصابتْه.

(كان انتمائي عربيّاً، أنا أتحدّث باللّغة العربيّة، ومعجب بها، وعلاقاتي مع العرب، وُلدتُ بينهم، وكبرتُ، وذَهَبْتُ إلى المدرسة برفقتهم، وشاغبنا معاً، ونشأتْ بيننا ذكريات ومغامرات، لم أُولَد في القرية، ولم تنشأ ذكريات بيني وبين أبناء عمومتي أو أقاربي هناك في الحارة، نحن العائلة الكرديّة الوحيدة، ولم يعاملْنا أحدٌ على هذا الأساس، ولم أشعر أبداً باختلافي عن أولاد الجيران، وحين كانت أمّي تتحدّث مع أبي بالكرديّة، كنتُ أشعر بالغربة، وكأنّها تصبح شخصاً آخر.

لكنّ السجن هزَّني. لقد اعتقلُوني، لأنّني كرديّ، ولم يهتمّوا كوني شريكاً لهم منذ بدء التظاهرات، ورموا كلّ تعبي. إنّ الأشخاص والعائلات الذين خدمتُهم، ووَضَعْتُ حياتي في الخطر من أجلهم لم يكونوا من الأكراد، لم أقدِّم أيَّ شيء للأكراد، ولكنْ، صُدمتُ كثيراً بما حَصَلَ معي، وكدتُ أُقتَلَ فقط لأنّني كرديّ، شعرتُ بالظّلم، ودَفَعَني هذا للعودة إلى أصولي. صرتُ أتعرّف على أصدقاء أكراد، وأحببتُ بنتاً كرديّة، وقرّرْنا الزواج، أحسستُ بالحاجة لإعادة تعريف انتمائي، وأنّني كنتُ على خطأ. اكتشفتُ فجأة أنّني لستُ مثلهم، أصدقائي العرب، وأنّني لستُ منهم.

لم أكنْ يوماً أعرفُ الفرقَ بين العربيّ والكرديّ، هذا حَدَثَ وقت الثورة، الثورة هي التي كشفتْ لي أنّني لم أكنْ في مكاني، أحسستُ أنّني أرتدي ثوباً مستعاراً حين طَرَدَني أبو عرب ممثّلاً الجيش الحُرّ: انقلعْ، أنتَ كرديّ!

بَهْدَلُوني، خَوّفُوني، أسَرُوني، ضَغَطُوا عليّ، شَتَمُوني، فقط لأنّني كرديّ. سمعتُ كلاماً، لم أتخيّل يوماً أنْ يُوجَّه إليّ: أنتم الأكراد كفّار، ومرتدّون.

تأذّيتُ كثيراً، لستُ حاقداً اليوم، ولا أشعر بالكراهية صوبهم، بل لديّ أصدقاء عرب، أحتفظ بصداقتهم، وأشعر بينهم أنّني بين أهلي، ولكنّ شرخاً حَصَلَ، لا أنسى أبداً حين هدّدني أحد عناصر الجيش الحُرّ قائلاً: عندنا رتلٌ، سيتّجه غداً إلى عفرين، ويحرق كلّ الأكراد!

ذُهلتُ من كراهيتهم الكبيرة صوب الأكراد، وصوبي لأنّني كرديّ.

نعم، أنا أُعيد الكلام، لأنّني مقهور ومَصدوم، لقد قدّمتُ الحليبَ لأطفال عرب، وذَهَبْتُ في مشاوير خطيرة، من أجل العرب، وفي الآخر، حسبوني على أشخاص، لا تربطني بهم أيّة علاقة. ما دَخَلَني أنا بالديمقراطيّ الكردستانيّ؟ وما تفعله البي ي دي؟ حزب البعث ذَبَحَ العرب، فهل نذبح العربَ، لأنّ حزب البعث عربيّ؟!

أحسستُ أنّهم رموا تعبي وجهدي، كان لي وزني ومكانتي بين التنسيقيّات العربيّة، ولم أعمل مع التنسيقيّات الكرديّة. قال لي بعض الأصدقاء في بداية الثورة: حسام، روح واشتغل مع التنسيقيّات الكرديّة، فقلتُ له: ليش؟ كلّه ثورة، هون وهنيك نفس الشي، الظّلم واقع على كلّ الشعب.

نعم، أحسستُ بالظّلم، عملتُ حسناً، ولاقيتُ الباطلَ، قلتُ لأبي عرب حين أخذ هويّتي وشَتَمَني: لقد شاركتُ بالمظاهرات، وأنا مثلكَ، ابن الثورة. فقال لي: اخرسْ، ما حدا قال لكْ تِطْلَعْ بالمظاهرات؟

كأنّ الثورةَ ملكُهم، وأنّ ما فَعَلْتُه لم يكن مطلوباً منّي، ولا يُحسَبُ لي، هم يُقرّرون ما هي الثورة، ومَن أبناؤها!

شَعَرْتُ بالندم، كان يمكن لي أنْ أُقتَل في عدّة مناسبات، من أجل الثورة، أشخاص كانوا معي، اعتُقلوا، ومنهم مَنْ ماتوا، حين أطلق علينا النظامُ الرصاص الحيّ ..

أمام الأمن الجنائيّ، أطلقُوا علينا الرصاصَ، وكان من الممكن أنْ تصيبني رصاصةٌ في كلّ وقت، لكنّني خَرَجْتُ مؤمناً بالثورة، وعدالتها.

كنتُ أنام وأفيق على الثورة، كانت الثورة حياتي وحلمي وشَغَفي، في كلّ اجتماع، في كلّ مظاهرة، كنتُ الأوّل، في الليل، خرجتُ مراراً مع مهنّد عثمان لطَبْع البرشورات، والمطالبة بالاعتصامات، وإلصاق البرشورات على واجهات المحلات ليلاً، في ذلك الوقت، إنْ قبضوا على أحدنا، كانوا سيعدمُونه على الفور، فيأتي أبو عرب، ويقول لي في الآخر: ما حَدَا قالك تِطْلَعْ، مين طَلَبْ منّك تِطْلَعْ؟

انكسرتْ هيبتي، وحماستي، وفَقَدْتُ محبّتي وإيماني بالثورة، إذا كان أبو عرب وأمثاله قوّاد الثورة ومقرّري مصيري، فأنا لا أنتمي لهذه الثورة.

أهلُ الحارةِ أهلي

من أجمل المواقف التي وَقَعَتْ لي، وأثْلَجَتْ صدري، حين كنتُ حزيناً بعد خروجي من معتقل الحيّاني، وبعد وصولي إلى المزرعة، واستراحتي يومَيْن، جاء أبو حسّان (محمود سعيد) وزوجته فكريّة، ليُسلّما عليّ، لخروجي سالماً من المعتقل.

كانت المزرعة في كفر حمرا، جاء محمود وفكريّة من حريتان، وقَطَعَا الطريقَ من أجلي. أحسستُ بأهمّيّتي، بالنسبة لهما، جاءا وسهرا حتّى وقت متأخّر، قال لي: منيح إِلَكْ نَفس بالثورة بعد اللي عِمْلُوْه فِيْك.

ثمّ جاء في المرّة التالية مع رفيق من حزبه، قَدَّمَهُ لي، يُدعى أبو رشيد، وقال عنّي كلاماً طيّباً. أبو رشيد، حسب تقديم محمود، هو المنظّم الأوّل لحزب التحرير، وهما يغادران، مَرَرْنَا قرب شجرة ورد، فقطفتُ وردةً، لَفَتَتْ انتباهي، وقدّمتُها لأبي رشيد، فقال محمود مازحاً: طبعا، الدم يحنّ، فسألتُهُ: ماذا تقصدُ؟ ضحك محمود، وقال لي: يعني، لم تنتبهْ؟ أبو رشيد ماذا سيكون؟ سألتُهُ: كرديّ؟ ولم أتخيّل أنْ يكون الكرديّ في حزب التحرير الإسلاميّ. فَقَطَفْتُ وردةً على الفور، وناولتُها لمحمود: هو ضيفي، وأنت أخي. فَفَرِحَ محمود بي، هؤلاء فعلاً أهلي، ولا أنسى وقفَتَهُ معي، وزيارةَ زوجتِهِ لي، كأنّها أمّي.

الهويّةُ المرتدّةُ

فجأةً أحسستُ أنّ ثوب الحارة ليس على مَقَاسي، وأنّ انتمائي هو للأصدقاء في الحارة، هؤلاء الذين كبرتُ معهم، وتربّيتُ معهم، فصاروا أكثر من أهلي، إلا أنّ يُسر مثلاً هو أقربُ لي من أيّ واحد من إخوتي الثلاثة، ولكنْ، هذا كلّه ظَهَرَ فجأة، وكأنّه من طرَف واحد، من طَرَفي أنا.

أنْ تُجبرَ على ارتداء عنوان واحد، أو ثوب تكتشفُ أنّه ليس مسموحاً لكَ بارتدائه، حسب المواصفات الأصليّة، وشروط الارتداء.

أنْ تجدَ نَفْسَكَ في ممرّ، يمتلئ بالغرف، وعلى كلّ غرفة ثمّة ورقة كُتِبَ عليها عنوانٌ ما، تسمح بدخول فقط مَنْ يخضع لهذه الصفة. أبوابٌ كثيرة، تقرأ عليها: أكراد - سُنّة - شيعة - وتعرفُ أنّكَ لستَ أحد هؤلاء، تركضُ هويّتكَ في الممر، وتظلّ عالقة على الأبواب، لا تجد باباً تدقّ عليه، إذ لا بابَ يخصُّكَ بين هؤلاء.

عشتُ حياتي بعيداً عن القوميّات، لم أفكّرْ يوماً أنّني كرديّ مختلفٌ عن أصحابي، وأنّهم عَرَبٌ، لكنّ هذا حَدَثَ بعد الثورة، أحسستُ بانتمائي.

حاليّاً أعاني من موضوع، يمكن أنْ أسمّيه بالموجة أو موضة التّشدّد الإسلاميّ، ولا سيما في السويد، أنا لستُ ضدّ الإسلام، بل أحترمُ الأديان كلّها، وأعترف بالديانات كلّها، والكُتُبَ والأنبياءَ، لكنّني لا أحبّ التّطرّف

والتّشدّد، أقبلُ أنْ يكون لديّ صديق مسيحيّ وآخر مسلم أو مُلحد، لكنّني لا أقبل أنْ يَفرِضَ عليّ أحدٌ قوانينَ وتشريعاتٍ وأدياناً، أنا لستُ مُلتزِماً بالدِّين، وأعتقد أنّ علاقتي مع ربّي شيءٌ خاصّ بي، وأنا راضٍ عن هذه العلاقة.

أخي الدونكيشوت، تربيةُ أبي

في سورية، لم أدخلْ يوماً إلى قسم شرطة، ولم أُمضِ لحظةً في أيّ سجن، ولم تُسجَّلْ باسمي أيّة مخالفة في الجيش في أثناء خدمتي، وفي تركيا، لم أرتكبْ أيّة مخالفة للقانون، أمضيتُ عاماً ونصف في تركيا دون أيّة مشاكل، وفي اليونان أيضاً، أغلب الذين أعرفهم كانوا يرتكبون المخالفات في الميترو مثلاً، يركبون دون دَفْع الأجرة، لديّ إحساس دائم بالحرص على أنْ أكون نظيفاً، ليس بسبب الخوف، لكنّني أحبُّ الالتزام، وأحترمُ القوانين.

عَرَضَ عليّ بعض الأشخاص أعمالاً مخالفة للقانون في سورية، وفي تركيا، وفي اليونان، لكنّني كنتُ أرفض.

أعتقد أنّ حسام متأثّر بأبي، ربّانا أبي على هذه الطوباويّة المثاليّة، حين أخذتُ المترو ذات يومٍ في باريس، وكان جهاز وَضْع البطاقات معطّلاً، ولم يأخذ البطاقة، رأيتُ مفتّشي المترو في محطّة سان ميشيل، وخجلتُ من فكرة أنّهم يطلبون منّي التذكرة، فتوجّهتُ لهم دون أنْ يهتمّوا بي، وناولتُهم التذكرة، وأنا أشرح لهم عُطْلَ الجهاز هناك، فَقَطَعُوا زاوية التذكرة، وناولوني إيّاها، على أنّ الأمر سُوِّيَ هكذا.

نحن عائلة تخاف من المخالفات القانونيّة، ليس بسبب العقاب، إنما نسعى إلى تثبيت أنّنا أشخاصٌ مستقيمون، وهذا، بحدّ ذاته، مَرَضٌ برأيي، عانيتُ منه شخصيّاً، كما يعاني منه أخي، حيث وجودي في فرنسا كان

يُؤهّلني لإقامة علاقات مَنفعيّة مع شخصيّات نافذة في الشأن السياسيّ السوريّ، وكان يُمكنني استعمالُ هذه العلاقات للحصول على تأشيرات دخول فرنسا لأهلي العالقين هناك. لكنّني كنتُ أخافُ على نفسي من التّلوّث بالفعل الانتهازيّ، لهذا امتلكتُ شخصيّة صارمة وحادّة قليلاً، فوَّتَتْ عليّ الكثير من الفُرص، ولستُ نادمة، لكنّني أعتقد أنّني أحملُ غباءً ما، أتحمّل بسببه فَشَلَ الكثير من طموحاتي وأحلامي التي تحتاج لبعض ذلك الذكاء المَنفعي الذي لا أتمتّع به.

لا أمانَ في السّويدِ

هي مرحلةٌ جديدةٌ أعيشها من جديد، يدعوها البعضُ بالنقْلة النوعيّة . نقلة شاسعة من حيّ شعبيّ فقير بسيط في حلب حتّى السويد. لكنّني لا أشعر بالكثير من الفرق، لا من حيث الأمان، ولا من حيث صعوبة التّأقلُم مع المكان الجديد وظروفه المختلفة. سرعان ما تكيّفتُ مع البيئة والتقاليد هنا. لم أتوقّع في حياتي أنْ أدخلَ إلى كنيسة مثلاً، لكنّني فَعَلْتُ هذا. دخلتُ الكنيسةَ، وجلستُ بداخلها. انسجمتُ سريعاً مع المجتمع الأوربيّ، ثمّة أشياء كثيرة، لم أكن عشتُها من قبلُ، لكنّني تلاءمتُ معها هنا، كما نقول عندنا "أخذتْ عالجوّ"، ربمّا أنا مُتحرّر من قبلُ، وأشعر بغيري وبألمه ومعاناته، وربمّا لا يستطيع الآخرون التّأقلُم بسرعة، ويحتاجون إلى سنوات طويلة للاندماج مع هذه العادات الجديدة والصعبة عليهم. أنا أشعر أنّني أستطيع العيش في السويد دون إزعاج أحد، ودون أنْ يزعجَني أحد.

عودةُ أمّي

رجعتُ ..

كان يجب أنْ أرجعَ ..

اتّصل بي عبد الرحمن البرم، قال: إنّ باب بيتي مفتوح على الملأ، سامحيني، أعرف أنّكِ تأكلين همّي وتخافين عليّ، أعرف أنّكِ أُصبتِ بارتفاع الضغط منذ موت أبيكِ، وأنا أخاف عليكِ أنْ تأخذي منّي علّة انخفاض السّكّر فوقها. أعرف أنّ الخوف قد يأتي بأسوأ الأمراض، حيث ننتظر الموتَ بلهفة.

لم أُخبركِ أنّني حسمتُ أمرَ عودتي حتّى لا تخافي، قلتُ لنفسي: حين تتّصلين في المرّة القادمة، أكونُ وَصَلْتُ البيت.

البيتُ، يا مها، هذه الكلمة التي تقولين إنّها أهمّ مفردة في حياتِكِ، البيتُ الذي تفتقدينه دائماً. تقولين: إنّكِ غادرتِ سورية بحثاً عن بيت، عن غرفة، كتلك الكاتبة الأجنبيّة التي ألّفتْ كتاباً عن الغرفة. تقولين إنّكِ تشرّدتِ في البلاد الواسعة بحثاً عن الإحساس بأنّ لديكِ بيتاً. البيتُ غال، يا مها، تذكرين حين كنّا معاً، تتأمّلينني وأنا أفتح خرطوم الماء على الحيطان، أغسلُها بالصابون، وأدعكُها، وأضحكُ مُغنّيّة "يا بيتي يا بويتاتي يا مسترلي عوبياتي" البيت أهمّ من أيّ شيء آخر، البيت هو الأمان، حتّى في الحرب، كخبز الآخرين الذي لا يُشبِعُ، وكَثَوب الآخرين الذي لا يُدفِئ، بيوتُ الآخرين لا تحمي ..

عدتُ إلى بيتي مجدّداً، أقول مجدّداً، وقد فشلتُ في ممارسة النزوح عدّة مرّات، هذه هي المرّة الثانية التي أذهب فيها إلى القرية، في أثناء الحرب، وأعود.

ذَهَبْتُ أوّل مرّة مع نائلة، لم تحتملْ نائلة جوّ القرية، نعم، ما تزال الكثيرُ من البيوت دون مراحيض، ولا ماء، يأخذون دلو الماء الصغير معهم إلى الجورة في آخر الدار، لغَسْل مؤخّراتهم. وأنا أتوضّأ عدّة مرّات في اليوم، بسبب السّكّر، أتبوّل وأضطرّ للوضوء من جديد، وكان يصعبُ عليّ هذا، نعم، نائلة أيضاً تقرف من تواليتات الآخرين، أصيبتْ باحتباس البول، لأنّها ترفضُ الذهاب إلى التواليت. سيضحك علينا أصحابُكِ حين تُخبرينهم عن تَرَف المراحيض؟ إنّ أمّكِ عادتْ إلى حلب تحت القصف، من أجل المرحاض؟ كلا، ليس الأمر بهذه التفاهة، عدتُ مع نائلة لأنّنا أحسْسنا أنّ الحربَ طالتْ، وأنّه لن يمكننا البقاء طيلة حياتنا هاربات في القرية، أمّا المرّة الثانية التي عدتُ فيها، فكانت بسبب نائلة أيضاً، ولكنْ، ليس من القرية، إنما من بيروت. ذهبْنا هرباً إلى بيت عامر، أخيكِ الذي يعيش هناك قبل الحرب، لكنّ نائلةَ تشاجرتْ مع زوجته. والله، لا أعرف الحقيقة، كلتاهما كانتا تتعاركان، صارت أماني المسكينة الفقيرة التي تتأتئ بالكلام تتعاملُ معي كأنّني خادمة، وهي سيّدة البيت، وحين شكوتُها لعامر، قال لي: تريدين أنْ أُطلّقها من أجلكِ، ومن أجل ابنتكِ؟ كثرتْ المشاكل بينهما، نائلة العنيدة ركبتْ رأسَها، وقرّرت أنْ تعودَ وحدها. هل أتركُ ابنتي تعود إلى حلب وحدها في الحرب؟ والله، بكى عامر مثل الأطفال، وهو يُوْصِلُني إلى الكاراج، نعم، هذه ليست أوّل مرّة ولا ثاني مرّة ولا ثالث مرّة، نزحتُ عدّة مرّات، وعدتُ، نعم، آخر مرّة عدتُ من تركيا، بعد أن التقينا بعد غياب عشر سنوات، حسناً، أنت لا تحبّين أنْ نتحدّث عن هذا، تشعرين بالألم، لا تبكي، المهمّ أنّنا التقينا، والله، يا مها، أمضيتُ

معكِ أجمل أيّام حياتي، رأيتُ معكِ أشياءَ، لم أرَها في حياتي. أنا أنزلُ في فندق؟ عامَلْتِني كأنّني ملكَة. أبوكِ لم يأخذني يوماً إلى فندق، كنتُ أشعر بالسعادة، وأنا في سريري، تصلُني القهوة بهاتف واحد، تضغطين الزرّ، وتتحدّثين بالتركيّة معاً: لطفاً، إيكي كافيه! ثمّ يطرقون الباب، ويأتون بالقهوة، تدلّلتُ معكِ، يا مها، لا تحزني، لم يكن بإمكاني البقاء في غازي عنتاب طويلاً، وتَرْك بيتي.

أنتِ أكثرُ كائنٍ على وجه الأرض، أو على الأقلّ، ممّنْ حولي، يعرفون قيمة البيت، أجلٍ مشروعُكِ الطويلُ المؤجّلُ، الحديثُ عن البيوت. أراكِ وأنتِ تُجدولين قوائمَ البيوت التي عشتِ فيها، والتي أمضيتِ فيها أكثرَ من أسبوع، بين هولندا وبلجيكا وألمانيا وحلب وفرنسا، تشعرين بالتّشرّد، هذا ما أحسستُهُ أنا في نزوحاتي، وفوقها، لأنّني مُسنّة، كنتُ أشعر أنّني عِبءٌ على الآخرين، وتتقيّد حُرّيّتي. نعم، لديّ حُرّيّاتي الصغيرة، حُرّيّة مرحاضي، حيث الكرسيّ الذي صمّمَهُ لي أبوكِ، فأجلس في مرحاضنا العربي، كأنّني في تواليت أجنبي، مؤخّرتي مرتفعة، حيث لا تحتمل ساقاي أنْ أقعي، كما كنتُ في صباي.

تذكرين الكرسيّ الذي ذَهَبْتُ مع إسماعيل لشرائِهِ من أورفا؟ ثمّ قصّ إسماعيل واجهة الكرسيّ، وقطَّعَ الحبال البلاستيكيّة، ليُفرّغ الكرسيّ، بحيث أصحبُهُ إلى المرحاض، أقضي حاجتي، وأُخرجُهُ معي، فأضعه في الحمّام، كنتُ أتحرّج كثيراً، يا بنتي. إسماعيل أيضاً يصلّي، ويحتاج إلى حمّام نظيف وطاهر، كنتُ أشعر أنّه يقرفُ من كرسي تواليتي ..

عدتُ، إذنْ، والله ،لا أعرف كيف أصفُ لكِ شعوري حين وَصَلْتُ البيتَ بعد يوم سَفَر طويل من بيروت ..

حين وقعتْ عيني على الديوانة، نعم، الأريكة بالفصحى، ارتجفَ

قلبي، سَرَتْ بجسدي قشعريرةٌ، كأنّني أرى رجلاً أحبّه، كيف لا أعرف هذه المشاعرَ؟ سأحدِّثُكم لاحقاً عن رجل أحبّني قبل زواجي بأبيكِ، لكنّني كنتُ صغيرةً وغشيمةً، سَرَتْ رعدةٌ بجسمي، وأنا أرى الأريكةَ، أحسستُ بالألفة والأمان، أنا في مكاني، وهذا البيتُ لي.

لا أريد أنْ أترك البيت، أريد أنْ أبقى هنا، أحرس لكم بيتكم، حين تعودون ذات يوم إلى حلب، تجدون مكانكم باقياً، سأحرس هذا البيت حتّى آخر لحظة في حياتي ..

هل تعرفين أنّ ابتسام ماتتْ بسبب البيت؟ بسبب بيتها، لقد ذَهَبَتْ عائلتها، واضطرّتْ لاحقاً لتَرْكِ بيت أهلها، وانتقلتْ إلى حارة بعيدة، ولم تعد تأتي لزيارتي، خذي اسمعيها، إنّها قريبة منّي، ترقد في البستان نفسه، أقصد الحديقة، لا، لا تقلْ مقبرة، هذه حديقة، وحين تنتهي الحرب، سننهض جميعنا نحن الراقدات هنا، ونعود إلى البيوت، نحن لم نمتْ، نحن ندّعي الموت، حتّى لا يقصفُونا بالطيران والقذائف، اسمعي إلى ابتسام، إنّها تتنفَّس على مقربة منّي.

ابتسام، هذه مَهَا، سَلِّمي عليها، وتحدَّثي معها، قبل أنْ تصلَ قذيفة الهاون ..

قطع / تسقط القذيفة قرب المقبرة، أعني الحديقة.

هويّةُ الحارةِ

كما ماتتْ أمّي متمسّكة بانتمائها للحارة، مختارةً موتها إلى حدّ كبير، رافضةً النزوح، خائفةً من الضياع خارج المكان الذي ألفتْهُ طيلة حياتها الزوجيّة وولاداتها السبع، مُفضِّلة الموتَ، بل والدفنَ، على عكس أفراد عائلتنا جميعهم (جدّتي والدة أبي، جدّي والد أبي، جدّتي والدة أمّي، جدّتي جدّة أمّي، جدّي والد أمّي، أبي، عمّاي الكبير والصغير، عمّاتي الخمس) الذين دُفنوا جميعاً في مقبرة تابعة للقرية في زيارة حنان في قرية شران، دفنتُ أمّي في حلب، بسبب صعوبة التّنقّلات في الحرب، بل ثمّة مَنْ حسدها على الحصول على قبر، بينما لم يحصل الكثيرون من الموتى على مجرّد قبر.

كما تمسّكتْ أمّي بانتمائها الجغرافيّ، لا لأهلها، ولا للقرية، ولا للدّم، انتمى حسام للحارة. ورغم القَهْر الذي أحسّ به بسبب الاعتقال من قِبَلِ المعارضة التي كان جزءاً منها، لم تتخلّ عنه الحارة، ولم تخذلْهُ. وفكرة الصداقة، أو لأَقُلْ قيمة الصداقة ظلّتْ مُقدّسة بين حسام وصَحْبه، فهو لن ينسى أنّ وسيم صوراني، ابن الحارة، هو مَنْ أنقذه من موت مُحتمَل في سجن الحيّاني، كما أنّ يُسر هو الذي وَقَفَ معه حتّى غادر إلى عفرين، بل واستقبله حين فشلتْ محاولته الأولى للرحيل. ولم يتخلَّ عنه أهل يُسر، أيْ محمود وعائلته. كانت هويّة الحارة، تلك التي لا تُكتَب في السجلات الرسميّة، ولا تُحمَل وثائقها هي الأقوى من الهويّة التي كُتِب عليها: عربيّ

سوريّ، أو محلّ الولادة: ماتنلي. حيث ماتنلي قرية كرديّة، وحيث هو لا عربيّ ولا كرديّ، بل هو ابن الحارة، مُنتمٍ لها، ويرفعُ راية الصداقة التي تُرفرفُ فوق الرايات القوميّة.

وقفت الحارة مع حسام كما أظنّ، حتّى لحظة مغادرتِهِ لها، إذ أُجبِرَ على الرحيل، حيث خَرَجَ أغلبُ شباب الحارة للقتال، وجاء الكثير من المقاتلين من حارات ومحافظات أخرى، ليُنشئوا الحواجز العسكريّة، وينشروها في الحارة.

حين صارت هويّة الأصحاب هي العَسْكَرَةُ خارج الحارة، كان ذلك أوّل الانفصال بين حسام وصَحْبه، كرّر لي: أنا ضدّ السلاح، ربمّا أنا أعرف ضدّ مَنْ أُوجِّه سلاحي، إنْ حملتُهُ، لكنّ أغلب الآخرين لا يعرفون ضدّ مَنْ يرفعون سلاحهم، بل يستخدمونه لأغراض شخصيّة، لتطبيق البنات، للتهديد.

يعرف حسام، كما يعرف أغلب السوريين أنّ السلاح صار موجَّهاً من قِبَلِ قنواتٍ خارجيّةٍ، لا تهمّها مصلحة البلد، بل راحتْ تُدمِّره، والجيش الحُرّ الذي كان فكرةً نبيلةً، للدفاع عن السوريين وحمايتِهِم، صار جيوشاً متعدّدة، تختلف في الهدف، وتتقاتل، وتُصفّي بعضها، بل خرجتْ كتائب تعتقل المَدَنيين الناشطين، وكأنّها تُكمِّل عملَ النظام، والراية الخضراء صارت ألوية كثيرة، وضاعت الطاسة ..

إذنْ، كان اختيار العَسْكَرَة هو الفراق الأوّل الذي سيَمتحنُ حسام عبرَهُ طريقَهُ الجديدة، دون عرّابيه (محمود سعيد وأبو المجد الذي مات بالسرطان)، وسيشعر بالوحدة، وربمّا بالنضج، رغم مخاطرة الذهاب وحيداً، ليركضَ في تلك الأرض الحمراء المفلوحة، وصوت المهرّب يصرخ به من الخلف: اركضْ، اركضْ، وهو يركضُ، ويحسّ الأرضَ لا تسير تحت قَدَمَيْه،

وقلبه يحترق تاركاً أمّه وحدها، مُوقناً أنّه ربّما لن يراها بعد اليوم، ويحمل قلبه الخائف من رصاص الجندرمة الذين سيَقتلون لاحقاً بعضَ المتسلّلين مثل حسام عبر الحدود السوريّة التركيّة ..

مزّقَ حسام عقدَ الحارة الاجتماعيّ، وشكّل فرارُه إلى تركيا بدايةَ اختيار المصير الفرديّ، دون معونة، دون صديق، دون أهل، دون جواز سَفَر، دون أيّ شيء، سوى حقيبة ظَهْر ثقيلة، وهويّة شخصيّة.

حربُ اللا معنى

أنا زينب، أجل، كان على ابتسام أنْ تتحدّثَ إليكِ، لكنّها نامتْ، وستُحدِّثكِ بعد قليل ..

كانت أمّكِ تفتح البابَ للجيش، وتُعطيهم الماءَ، حين صرختُ بها من النافذة:

- أمّ ماهر، أنت شبّيحة؟

- كِلي خَرا ..

قالت أمّكِ، وسَكَتُّ. سَكَتُّ، لأنّها مثل أمّي، ولأنّني لا أستطيع الشجار معها، مهما اختلفْنا. فأنا أحبّها، وأعرف أيضاً كم تحبّين أمّي، أنتِ أيضاً، وكم تحبّينني، ولكنّني متُّ، لقد متُّ، يا مها، متُّ وماتتْ معي نور، نور التي لم تتجاوز الخامسة عشر من عمرها، وأنا التي لم أصلْ إلى الأربعين بعد. متْنا أنا ونور، وتركْنا أخاها وحده. متُّ، يا مها، ومات سعيد حسّون بن ضياء وأخي حسّون. مات بعدي يُسر، يُسر الذي كنتِ تحبّينه، يا مها.

زنّوبةُ اللّهلوبةُ

بعد أكثر من عشر سنوات من غيابي عن حلب، حيث لم أرَ أحداً من أهلي أو أقاربي أو جيراني، تحدّثتُ مع زينب بالهاتف.

كانت زينب عند أمّي، حين اتصلتُ بها، وكعادة أمّي، تتحدَّثُ إليّ بصوت مسموع، وتشاركُ مَنْ معها حديثَنا على الهاتف، وتُمرِّر لي غالباً أحدَ الذين عندها: بنتي عم تحكي من فرنسا، خود/ خدي سلّم عليها .. وتضيف إليّ بالكرديّة حيث غالباً يكون المتواجد لديها من الجيران، ونحن العائلة الكرديّة الوحيدة المتبقّية في الحارة: احكي معه/معها كلمتين، بينبسطوا ... وكنتُ ألومُ أمّي دئماً، لأنّها تزجّني في أحاديث مع أشخاص، لا أعرف أغلبهم، فجارنا أبو محمّد انتقل إلى الحارة منذ سنوات قليلة، ولم ألتقِ به في حياتي، وكذلك أمّ رامي، وطلال ... كلّ هؤلاء الذين جعلتْني أمّي أتحدّث إليهم، ممرّرةً سمّاعة الهاتف إليهم، لا أعرفهم من قبلُ .. ولكنّها حين قالتْ لي: إنّ زينب هناك، خَفَقَ قلبي فرحاً: أمّي، عطيني زينب! فاستغربتْ أمّي حماسي، وكأنّها نسيتْ ما تعنيه لي زينب .. البنت الضاحكة على الدوام، الجدعة بالمفهوم الشعبيّ للحارة، التي تتطوّع لخدمة أيّ جارة تحتاجها في التنظيف أو تحضير الأكلات الكبيرة التي تحتاج إلى مجهود.

قالت زينب بطريقتها الساحرة التي مزّقتْ قلبي من الحنين: يا الله، قديش الحارة تغيّرتْ .. حارتنا صارت أشباح .. إذا جيتي مارح تعرفيها ...

كلّ شي حزين هون.. بس قلبي محروق إني أشوفك .. مشتاقتلك كتير، والحارة مشتاقتلك.

الصورة العالقة في مخيّلتي، حين يأتي ذِكْر الحارة، هي تلك الساحة الصغيرة التي يطلّ عليها بيتُنا، وعلى الطرف الأيمن، بيت أمّ حسين، أي أمّ زينب ونادرة ورقيّة، ومقابلنا بيت عمّة البنات، أمّ سمير.

في هذه الساحة، كان أولاد الحارة يلعبون، وفيها كبر حسّان وسعيد ويُسر وإخوتي لؤيّ وعامر وحسام ..

ملؤوا جدران الحارة بكتاباتٍ عن أسماء الفِرَق الرياضيّة التي يُمثّلونها، ورَسَمُوا الهدفَ والشبكةَ على الجدار، وكأنّهم احتلّوا الساحة.

في هذه الساحة، كان يسقط الثلج أحياناً، وتتعربش على جدار بيت أبي فيصل على يسار بيتنا، الجدار المنخفض الذي تتسلّقه دالية أمّي، ونقطف الثلج من أعلى الجدار، وأغصان الدالية اليابسة في الشتاء.

كان أبو فيصل يُهدِّد بتمزيق الكرة التي تسقط في حديقة بيته المنخفض الجدار .. هناك، قرب الجدار، كنتُ ألعبُ في طفولتي، وكانت أمّي تجمع نساء الحارة دون قَصْد، حيث الساحة مغلقة، ولا يمرّ منها الغرباء، فكأنّها صالون نسائيّ، يعبث فيه الأولاد والنساء على التوالي، إذ، طبعاً، ستطرد النساءُ اللاعبين، حيث تشوّش الكُرةُ على اجتماعاتهنّ، وحيث تسقط الكُرةُ في آنية تحضير التبّولة والكبّة ولف اليبرق، وتصرخ النساء ذوات السلطة الحقيقيّة على الأولاد، ليذهبوا ويلعبوا في الممرّ الضيق، أمام المدخل الرئيس لبيت أمّ حسين.

الحارة مشتاقتلك، يا مها، والحارة صَارِتْ أشباحْ، جملتان متناقضتان، أطلقتْهما زينب على الهاتف. زينب التي تزوّجتْ في غيابي، وأنجبتْ،

وصارتْ امرأةً رصينة ربّما، حيث علا الحزنُ صوتها معي على الهاتف، بينما كنتُ متمسّكة بذكرياتنا المرحة.

زينب البيضاء، ذات العينَيْن العسليَّتَيْن الكبيرتَيْن، كانت تضحك دائماً، وكنتُ أشعر أنّها تشبهُ كائنات الثلج المرحة. تلك الكائنات التي تُدعى في العالم كلّه، كما أعتقد، برجل الثلج، إلا في اللغة الكرديّة، فهي (بوكا بارفي)، أي عروس الثلج.

بكيتُ بعد إنهاء مكالمتي مع زينب، بكيتُ فرحاً وحزناً وشوقاً.

لم أكنْ أتخيّل أنّ الحياة تتصرّف كما في الروايات الفانتازيّة، تقدِّم لنا الرسائل الغامضة، إذ ما معنى أنْ أتحدَّث إلى زينب مرّة واحدة فقط، خلال سنوات غيابي، ثمّ تموتُ بعد أسبوع؟!

ماتتْ زينب، حين سَقَطَتْ عليها قذيفة، أطلقها مَنْ يَدعُون أنفسَهم بالجيش الحُرّ.

في أثناء كتابتي هذا الكتاب، حلمتُ بروشين، ابنة أبي خالد. كنتُ أتحدَّث عنها في الحلم، إنّها بريئة وطيّبة مثل عرائس الثلج. حين أفقتُ من الحلم، حاولتُ البحث عن أهمّيّة بنات أبي خالد، في كتاب يتحدّث في أحد فصوله عن عرائس الثلج. وتذكّرتُ بغتة أنْ أبا خالد وزوجته زينة، كانا يسكنان قبل ولادتي في غرفة، يستأجرانها في بيت أمّ سعيد، وأنّ زينب ربّما تكون أختي بالرضاعة، إذ تعتقد أمّي أنّها رَضَّعَتْ أحد أولاد أمّ حسين، وأنّ الأخرى أرضعتْ أخي لؤيّ كما أظنّ، إنّ زينب، بطريقة ما، هي بنت الأكراد، حيث حملت ثلثي اسم زينة أمّ خالد، وحيث كانت موجودة في بيتنا، كأنّها أختي.

طريقُ الهروبِ

فندقُ الساعةِ في الريحانيّةِ

أخذني حسن مراد إلى الفندق، لقريب حسن، عديله، اسمه مراد. فندق شعبيّ من فئة العشر ليرات في الليلة. الغرفة متواضعة، تحوي سريراً وغطاءً ومخدّة، أمّا التلفزيون، فهو في البهو، مشترك لجميع الزبائن. اشتغلتُ كعامل خلف الكونتوار، لاستقبال الزبائن، وتسجيل أسمائهم، وإعطائهم مفاتيح الغرف، وكذلك كنتُ أبيع بعض المشروبات الخفيفة، كالشاي والقهوة. كنتُ أظلّ من الساعة الرابعة عصراً حتّى منتصف الليل. أنام بعد إقفال باب الفندق، حيث نُغلقُ في منتصف الليل. ويأتي مراد، صاحب الفندق في الصباح، بينما أكون نائماً. أستيقظ متأخّراً، لأنّني أسهر في غرفتي، ولا أنام بسهولة، أستحمّ، وأتناول الطعام، فيحين موعد العمل. عملتُ أسبوعَيْن، ثمّ اختلفتُ مع صاحب الفندق، وتركتُ. سبب الخلاف كان أنّ جميع الغرف مشغولة، وكنتُ أعتذر للزبائن الجدد بأنّ الفندق ممتلئ، فجاء مراد، وقال لي: كيف ترفض استقبال نزلاء جدد، وتقول ليس هناك غرف شاغرة؟ فقلتُ له: هذا هو الواقع، الفندق ممتلئ. فقال: كلا، هناك غرفتُكَ، قلتُ له: أتريد أنْ تؤجّرَ غرفتي وسريري؟ وأنا أين أنام؟ فقال لي: تنام على الكرسيّ، فقلتُ له: كلا، لا أستطيع النوم جالساً طيلة الليل، إذا أردتَ، فاقطع أجرة الغرفة من مرتبي، وعدّني نزيلاً، أدفع مثل غيري. لكنّه انزعجَ منّي، وساءتْ معاملتُهُ لي، فتركتُ العمل.

كانت الفترة قصيرة، لكنّني تعرّفتُ على شخصيّات مهمّة في هذا

المكان، فباعتبار المدينة حدوديّة، يصلها أغلب القادمين من مطارات المُدُن القريبة، والراغبون في العبور إلى سورية بشكل غير شرعي، من شخصيّات عسكريّة أو صحافيين، تعرّفتُ في الفندق على (أبو ساري)، وهو معروف في الوسط العسكريّ، كان صديقاً مقرّباً من سليم إدريس وعبد الجبّار العكيدي، وكان مسؤولاً عن صفقات الأسلحة، و هو الذي يُدخِلُ السلاح للثوّار في سورية عن طريق معبر باب الهوى.

كان أغلب نزلاء الفندق من الثوّار، من جبهة النصرة، التقيتُ بسعودي قادمٍ من المطار، لينتقلَ في اليوم التالي إلى الداخل السوري.

قرّرتُ العودةَ إلى سورية، بعد فشلي في العمل، وبعد تعذُّر حصولي على عمل آخر، لم أجد أمامي مكاناً للنوم والإقامة، فوجدتني مضطرّاً من جديد للعودة من حيث أتيتُ.

العودةُ إلى سورية

دلَّني المعارف على طريق العودة عبر عفرين. وَصَلْتُ إلى قرية حدوديّة (قره خان)، وهناك التقيتُ بشابَّيْن سوريَّيْن كرديَّيْن ذاهبَيْن إلى عفرين، ويعرفان الطريق، فالتحقتُ بهما. ولم أكنْ أعرف خدورة القرية، حيث يتمترس فيها عناصر فيها الـ بي كي كي. تعرّضْنا للضرب من قِبَلِ دوريّة مخابرات تركيّة. الدوريّة كانت مَدَنيّة، قدَّموا أنفسهم على أنّهم من عناصر الـ بي كي كي، وتحدّثوا إلينا بالكرديّة. معنا شخص غبيّ، وَقَعَ في فخّهم، وراح يتحدّث عن كردستان القادمة، ونضال الشعب الكرديّ ضدّ الأتراك، وشَتَمَ الحكومة التركيّة. فراحوا يضربوننا بعنف.

قلتُ لنفسي: إنّهم سيقتلونني! فكذبتُ عليهم، و رحتُ أصرخ: (عربي، عربي ..). فتوقَّفوا عن ضربي، وتابعوا ضربَ الآخرين، ثمّ أطلقوا النار في الهواء، وفرَّقونا. وقالوا لي حسبما فهمتُ: اتركْهُم، ولا تذهبْ مع الأكراد .. اذهبْ وحدَكَ!

عدتُ إلى الريحانيّة بعد فشل طريقة الهرب، اتّصلتُ بأختي نائلة المتزوّجة في أورفا. ورغم ظروف زواجها ووَضْعها الصعب، وجدتني مضطرّاً للذهاب إليها، كنتُ قلقاً من التّسبّب بمشكلة لها مع زوجها، أخذتُ الباص حتّى كاراج أورفا، وجاءتْ نائلة وزوجها إسماعيل، وأخذاني من الكاراج، وبقيتُ عندهما عدّة أيّام، حاول إسماعيل خلالها أنْ يجد لي عملاً بين معارفه، والجميع كانوا يرفضون تشغيل شابّ سوري. وذات يوم

جاء إسماعيل، وكان الحديث بيننا يتمّ بصعوبة عبر بعض الكلمات التركيّة التي أعرفها، وبعض العربيّة التي يعرفها، ولم أفهم تماماً ماذا يريد منّي، لكنّه اصطحَبَني إلى أحد معارفه، وتركني هناك، قائلاً: إنّني سأعمل هنا، وهكذا وجدتني لدى جلال.

لم يكن في المحلّ أيّ مكان للنوم، فهو محلّ لتصليح الماكينات المعطّلة، ولا سيما ماكينات تصنيع بطاطا الشيبس. جَلَبَ جلال من بيته فرشة إسفنج رقيقة ولحافاً ومخدّة، ومددتُ الفرشة على ألواح خشبيّة في غرفة في الدكان، وصرتُ أنام هناك كالمتشرّدين.

خوفٌ بعدَ الموتِ

أنا ابتسام، لحظة، أمّكِ تريد أنْ تقولَ شيئاً سريعاً.

نعم، مها، أنا أمّكِ، فقط أريد أنْ أقولَ لكِ: إنّني سأمرّر البنات، ليحدِّثنكِ، كما كنتُ أفعل، وأنت تتّصلين من ألمانيا، نعم، بلجيكا، كلا! أين إذنْ، فرنسا؟ وأين تقع فرنسا؟ أنت تعيشين في فرنسا؟ يعني لا تعيشين في ألمانيا؟ لا تغضبي، أنا أمّيّة، ولا أعرف أسماء البلاد، فهمتُ، فرنسا، باريس، برج إيفل، فهمتُ، خذي ابتسام، قبل أنْ يحلّق الطيران:

أنا خائفةٌ، متُّ وما أزال خائفة. مُرعبٌ الموت الذي وَقَعَ لي، أنا أُشبهُ أمَّكِ، يا مها، هل تذكرين عبارة أمّكِ حين قَصَفُوا بيتها؟ قالت لكِ: رضينا بكلّ شيء، ولم يتركُونا؟ هذا ما حَصَلَ لي من قبلُ، متُّ قبل أمّكِ، وتحوّلتُ إلى أشلاء. ما أزال أخاف من طريقة موتي، وأنا أرى جسدي الممزّق، وقِطَعَ لحمي المبعثرة تلتصق بالجدران، وتسقط من الشرفة، تعرّيتُ، عرّاني الموت، وأرسل جسدي في عدّة أنحاء، لم يدفنّي أهلي، ومتُّ خائفة ووحيدة، لأنّني كنتُ أخاف من الحرب، ولأنّني لم أحتمل الغربة.

متُّ منذ سَنَتَيْن، وما أزال غير مُصدّقة موتي، ما أزال في كلّ ليلة، أهرب من القبر الذي وَضَعُوا فيه أشلائي، لأسحبَ روحي، وأهيمَ في المدينة، أطرق الأبواب، لعلّ أحداً يستقبلني ..

أُوصِدَتْ الأبواب جميعها بوجهي، زرتُ أختكِ سُها مراراً، كانت تقف

خلف البوّابة الحديديّة خائفة منّي، تعتقد سُها التي تكاد تكون توأمي، فنحن وُلدنا في اليوم ذاته، وكنتِ تأتين بالهدايا لكلتَيْنا، تذكرين طبعاً، كم جلستُ في بيتكم، وأكلتُ من طعامكم، بل كنتُ آخر شخص يلتقي بأمّكِ بعد سَفَرِكُم جميعاً، أشرب معها القهوة، ونثرثر عنكم، أجل، زرتُ سُها، واعتقدتْ أنّ الموت غيَّرني. خافتْ منّي، لأنّني ميتة، لم تفتح سُها البوّابة، ولم تدعْني أدخل، لقد ذَهَبْتُ إلى السويد، وتركتْني مدفونة في حلب، وأنا لا ألومُها، يا مها، لكنّني فقط أحتاج دفأكم، أحتاج فَهْمَكُم.

أنتِ تعدّينني مُوالية؟ أنا لستُ موالية، يا مها، أنا خائفة.

لم أردْ من الحياة سوى العيش في بلدي، لقد هاجرتْ عائلتي جميعها، أبي وأمّي وإخوتي الذُّكُور والبنات، عارضوا النظامَ، وفرُّوا إلى القاهرة، لحقتُ بهم، ولكنّني اختنقتُ هناك، لم أحتمل العيش خارج حلب رغم الحرب، تماماً مثل أمّكِ، إنّها أكثر شخص يفهمُني، وأعتقد أنّني أكثر مَنْ يفهمُها، فقد عادتْ هي أيضاً، وكانت بينها وبين الحدود التركيّة أمتارٌ بسيطة، عادتْ خائفة على بيتها. أنتم لا تعرفون معنى البيت والبلد، إنّه الحقيبة الكبيرة من الحجارة التي نضع فيها أغراضَنا ومشاعرَنا، وننام فيها.

باع أهلي بيتَهم، وأخذوا ثمنَهُ، وغادروا، ليُؤسّسوا حياةً جديدة في القاهرة، لكنّني لم أستطع العيش بعيداً عن حلب، لم أتخيّل أنْ أبتعدَ عنها وقتاً طويلاً، رغم الحرب، أحسّ بالأمان هنا، أعني أنّني كنتُ أحسّ بالأمان هنا، استأجرتُ هذا البيت الصغير في حارة موالية، وأقمتُ علاقاتٍ طيّبةً مع الجارات، كنتُ مثلهنّ، أملأ الماء في الزجاجات، حين يأتينا الماء ساعة في اليوم، أو أذهب إلى الحديقة، وأملأ بيدون الماء من هناك، وأكتفي بشوربة العدس طيلة الأسبوع، ولم تكن لديّ طَلَبَات سوى البقاء في بلدي.

لكنّهم قَتَلُوني، قَتَلُوني، وبَعْثَرُوا أشلائي في عدّة اتّجاهات، وعرُّوا لحمي المتقطِّع.

أنا خائفةٌ، كنتُ خائفة من كلّ شيء، لهذا كنتُ صامتةً، لستُ موالية، ولست معارضة، أنا أبسطُ من أنْ أُصنَّف في حقل من هذَيْن الحقلَيْن المتقاتلَيْن بضراوة، أنا نشدتُ السلامَ والعيشَ في بلدي ..

هل تعرفين أنّني تلقّيتُ عرضاً للزواج في القاهرة؟! كان يمكنني العيش مُرفّهة، لكنّني خفتُ من تَرْك البلد، أنا متعلّقة بمدينتي، خفتُ من الغربة، الغربة صعبة، يا مها، وأكيد لديكِ الكثير من مآسي الغربة من قصص معارفكِ في المغتربات ..

فصائل احتكار الطعام

المقابر الجماعيّة

خمسة آلاف سنة دُمِّرَتْ

القلعةُ تحطَّمتْ

حلب انذلّتْ

التشويشُ

مَنْ قال بأنّ ابتسام موالية؟ ابتسام جبانة ومتعلّقة بالوطن. أنا نورا، يا مها، تعرفينني جيّداً، معارضة حتّى العَظْم، كيف تكون ابنتي موالية؟

إنّ ابتسام مريضة بالبلد، هذه حكايتُها باختصار، كلّنا نحبّ البلد، لكنّ ابتسام تموتُ إنْ غادَرَتْ، إنّها أجبنُ من أنْ تحتملَ الابتعاد عن سورية، لهذا طأطأتْ رأسَها للنظام، أمّا عن قولنا نحن أهلها: إنّها شهيدة، فالأمر هكذا، إذ قَتَلَتْهَا الحربُ، كلا، لم تَقْتُلْهَا قذائفُ المعارضة، تلك القذائف التي أطلقها مَنْ يُسمّون أنفسهم معارضين للنظام، هم امتدادٌ للنظام ذاته. وهذا هو التشويش الذي صَنَعَهُ النظام، وفَبْرَكَهُ منذ بداية الثورة، وصَدَّرَهُ للعالم، ونَجَحَ، دون شكّ، في تقديمه. وَضَعَ العالمَ كلّه أمام خيارَيْن، إمّا هو النظام الدمويّ القاتل لشعبه، أو الإرهابيّون المجرمون القاتلون للعالم بأسره، اختارَ العالمُ ببساطة أمنَهُ الخاصّ، وضحّى بأمن السوريين. لأنّ ما رأتْهُ عيون العالم على الشاشات، منقولاً من سورية، أمرٌ فاقَ المخيّلة وإمكانيّات التضحية بأمن الشعوب الأوربيّة، مقابل طَلَبَات الحُرّيّة والديمقراطيّة للشعب السوري ..

ذاقت الشعوب الأوربيّة طَعْمَ الإرهاب الذي خَدَمَ بشّار، وصُنِعَ في معامله، ولكنْ، تمّ تعليبه، أحياناً، بعلب تبدو خارجيّة من الشكل البرّانيّ، الحشوة واحدة، حشوة النظام الأمنيّ القاتل، المستعدّ للتعاون مع مجرمي العالم، لِوَأدِ الثورة، وانتصاره على شعبه ..

شوّشت الثورةُ هذا العالمَ، وفَقَدَ بصيرتَهُ، فبدا الصراع بين النظام والإرهاب الدِّينيّ، لكنّ الأمر ليس هكذا، كانت الفصائلُ الإسلاميّة تتناطح فيما بينها، ويُصفّي بعضها الآخر، ليبقى النظام في النهاية.

ثمّ إنّ هناك نقمة الإخوان، هذه، أيضاً، شوّشت الشبابَ الذين غُسِلَتْ أدمغتُهُم. نعم، المجتمع السوري مجتمع دِيني، ككُلّ المجتمعات العربيّة، الإسلام هو الحاكم الباطنيّ في جميع ميادين الحياة، وُجِدَ الإخوانيّون ومشتقّاتهم من أحزاب دينيّة، دُمجَت السياسة بالدِّين، بيئة نضرة بين الشباب، فجنَّدتْهُم، وحوَّلتْهُم عن مسار الثورة إلى مسار الجهاد المُقدّس.

يُسر الذي تتحدّثين عنه، وتصفينه بالملاك، لشدّة براءته، كان ملاكاً حقيقيّاً، ولكنْ، مَنْ كان أباه؟ هل نسيتِ الحاجّ محمود، العضو الفعّال في حزب التحرير الإسلاميّ، والمطلوب والهارب من النظام منذ سنوات طويلة؟ ألم يؤثّر محمود وأفكار حزبه المتشدّدة على يُسر وسعيد وحسّان؟ هل صدّقتِ الخطاب المَدَني لمحمود في بداية الثورة، وهو يجنِّدُ الشباب ومنهم حسام الذي تفردين له هذا الكتاب؟ ولماذا انقلب خطابُهُ؟ تعرفين، محمود صار قاضياً في محكمة شرعيّة في المناطق التي يسمّونها المحرّرة؟ كيف صار قاضياً هكذا؟ إنْ لم تكن له صفة سياسيّة، حزبيّة؟

هذا هو التشويش، يا مها، حسام بريء، اعتمدَ على حَدْسه ومبادئه الخاصّة، لأنّه يكره العنفَ والسلاحَ، انسحبَ باكراً، وقد روى لكِ شهاداتٍ مهمّة في هذا الكتاب، عن ضياعِهِ بين الأكراد الذين يُعاديهم الإسلاميون، وبين أصحابِهِ أنفسِهم الذين سرقهم السلاح ..

حسام اتّخذ موقفه باكراً، لكنّه، أيضاً، كان مُشوّشاً، كان يتخيّل أنّ الثورة تأسلمتْ، ليست هذه هي الصورة، هؤلاء حملوا حجّة الثورة، بوعي حزبيّ

تدرُّجيّ، يجعلهم ينسحبون ببطء، ومَنْ معهم من الأبرياء والأنقياء أمثال حسام، ليأخذوهم لاحقاً إلى طريق القتال ..

الخطّة كانت مرسومة منذ البدء، كان محمود وأمثاله مُتطفّلين على الثورة، مخطّطين للانتقام من النظام، واستعادة اعتبارهم الذي فَقَدُوه في الثمانينيّات ..

هؤلاء كلّهم نتيجة لبطش بشّار، وليسوا معارضين له. في النهاية، إنّ بشّار وأباه الذي أسّس النظام المخابراتيّ في سورية، وأنشأ مملكة الخوف والعنف مسؤولان عن التّشدّد الدِّينيّ والتّطرّف الذي جاء بمهارة هذا النظام ..

هل وضحت الصورةُ الآن؟ أنا أمّ، يا مها، أمّ رأت خبر استشهاد ابنتها في الفيسبوك، ولم تحضرْ دَفْنَها، ولم تلمس جبينها وشعرها قبل أنْ ترحل إلى مرقدها الأخير. صفحات النظام تعدّ ابنتي ضحيّة للإرهاب الإسلاميّ، والمعارضة تعدّها شهيدة الثورة، لا تظلموا ابتسام، يا مها، ابتسام خافت من التّشرّد وفقدان الوطن. إنّها بريئة براءة يُسر، أنا أمّ، وحزنتُ على يُسر حين استُشهد، وانحرق قلبي عليه، نحن جميعاً ضحايا الأسد، والإرهاب الذي انتصر الأسد في تصوير قُبحه للعالم هو خادم للأسد، انظري جيّداً، يا مها، واكتبي بأمانة، أنا أمّ، فررتُ خارج بلدي، وخسرتُ بيتي، ثمّ ابنتي، لأنّني أكره الظّلم، والنظام هو الأب الأكبر لهذا الظّلم، أنصفينا في كتابتِكِ على الأقلّ، طالما العالمُ ضدّنا، يرانا متطرّفين ومتشدّدين وقَتَلَة ..

شهرزادُ الحربِ

المدينةُ الصناعيّةُ ٢٥ - يرمي بيش:
حياة الحرّاس والكلاب

المدينة الصناعيّة عبارة عن منطقة واسعة، كلّها محالّ صناعيّة، تُغلق يومي السبت والأحد، ولا يتواجد فيها سوى الحرّاس والكلاب، وأغلب المحلات مُزوّدة بكاميرات مراقبة. كنتُ أمضي يومي السبت والأحد وحيداً، تماماً كالحرّاس أو الكلاب، حتّى السوريون الذين كانوا يعملون في المدينة الصناعيّة كانت لديهم عوائل وأقارب في قلب المدينة، فيذهبون لتمضية العطلة في بيوتهم، يستحمّون ويتناولون وجباتٍ بيتيّةً، بينما كنتُ أفتقد الاستحمام في حمّام كالبشر، أو تناوُل طعام مطبوخ في البيت، أو الاقتيات على الصندويش، كانت أعلى حالة رفاهية أتمكّن من الاستمتاع بها هي النزول إلى المدينة، لتناوُل طبق فول ساخن عند أحد الباعة السوريين، أو إذا كان الطقس حارّاً، أشتري الآيس كريم، وأتجول في الحدائق، وفي المول، ثمّ أعود للنوم في المحلّ. ولأنّ أجرة المواصلات تفوق قدرتي على الإنفاق، فكنتُ أرتّب أموري بحيث أنزل مرّتَيْن في الشهر فقط . أمّا إذا تلقّيتُ دعوة عند أحد الأصدقاء، خارج عنتاب، كما حَدَثَ حين دعاني مهنّد الذي يقطن في مرعش، فإنّني أضطرّ حينها للمكوث شهراً بكامله في المحلّ، لأنّني أنفقتُ أجرة الطريق مضاعفةً عن الأجرة إلى عنتاب.

كنتُ أمضي العطلة مع هاتفي فقط، حيث لا يوجد في المحل حتّى جهاز راديو أو تلفزيون، أمّا عن الاستحمام، فكنتُ أسخّن الماء في طنجرة أو تنكة، وأستحمّ في التواليت.

لديّ ذكريات لا تُنسَى مع "السطل"(*) . لونُهُ أحمر، يتّسع عشرة ليترات، مثل دلاء الطلاء، كنتُ أستخدمُهُ في كلّ أعمال التنظيف: أستحمّ بالماء الذي أحملُهُ فيه، أغسلُ ثيابي داخله، ثيابي التي أنشرها لاحقاً في المحلّ يومَي العطلة..

أمّا عن النوم، فقد أمضيتُ كلّ فترة إقامتي أنامُ على طبليّات خشب، أضع الفرشة التي لا تعلو أكثر من سنتمترَيْن اثنَيْن، وأتغطّى بالبطانيّة، حتّى لحاف لم يكن لديّ، ولم يكنْ هناك حتّى طاولة صغيرة جواري، إذا رغبتُ في شرب الشاي، بل أضع كأس الشاي على الأرض. ملابسي دائماً في الحقيبة، لا خزانة أصفّ فيها ملابسي، بل كالمهاجرين، أو الذين على طريق سَفَر، أُخرِجُ ملابسي من الحقيبة، وأُعيدُها إليها بعد غَسْلها.

لم يكن هناك تدفئة في الشتاء، ولا مراوح في الصيف، كان يقتلُني البرد في الشتاء، والحَرّ في الصيف.

كنتُ أتقاضى مئة ليرة تركيّة، أقلّ من خمسة وثلاثين يورو، في الوقت الذي كان سعر الصندويشة ثلاث ليرات، وسعر علبة الدخان التركيّة عشر ليرات، وكان ثمنها باهظاً بالنسبة لي، فأنا أدخّن تقريباً علبة أو أكثر بقليل في اليوم الواحد، لهذا كنتُ ألجأ إلى الدخّان المهرّب، حيث كان السوريون يبيعون الكلواز المهرّب بليرة ونصف. أي أنّ ما كنتُ أتقاضاه من جلال، كان فقط ثمن الدخان والطعام.

كان جلال يكذب أمام معارفه وأهله، ويقول: إنّه يدفعُ لي مئتَي ليرة، ويغمزُني، لأسكتَ، وكان يتباهى بتشغيلي لديه، فيقول: إنّ لديه شابّاً سوريّاً مرفّهاً ومرتاحاً، لديه غرفة مستقلّة في المحلّ، وتلفزيون وسرير، يأخذني إلى

---

*) الدلو

بيته لأستحمّ. مع أنّني لم أرَ بيت جلال أبداً، وكم تمنّيتُ لو أنّه جَلَبَ لي ذات يوم وجبة من طبخ بيته، لم أتذوّق أكل بيت جلال، ولم أزره البتّة. كان والده يُؤنِّبه من أجلي، لأنّه رآني أنام على ألواح الخشب، وفرشة الإسفنج رقيقة، ولا تُريح الظهر، وكان جلال يضحك مستهتراً.

تعرّفت هناك على محمّد دنّون من إعزاز، كان يعمل، أيضاً، في المدينة الصناعيّة، وكنتُ أذهب إلى محلّه، فيطهو لي بعض الأكلات السوريّة البسيطة، كالجظمظ، ونقلي البيض أحياناً، ويحضر إبريقاً كبيراً من الشاي، ندخّن ونثرثر، ونمضي أيّام العطل.

مرّت عليّ لدى جلال أربعة أعياد، عيدا فطر وعيدا أضحى، قضيتُها وحدي تماماً بين أربعة جدران، العمّال السوريون كان لديهم أقارب وعائلات في المدينة، يذهبون إليهم، بينما كنتُ فعلاً دون أحد ..

اشتغلتُ عند جلال حوالي سنة وستّة أشهر، وكانت فترة مهينة بالنسبة لي، ولكنْ، لم يكن لديّ أيّ خيار آخر. الأتراك يستغلّون العمّال السوريين، ما نحصل عليه لا يعادل ربع أجر العامل التركيّ، يستغلّون حاجتنا، ويستخدموننا كالحيوانات، حتّى أجرة البيوت كان مرتفعة جدّاً بالنسبة للسوريين، فالبيت الذي يكون أجاره ٢٠٠ ليرة تركيّة للتركيّ، يصبح أجاره ستّمئة ليرة، على الأقلّ، للسوريّ.

بعد مضي أكثر من عام مع جلال، اقترح عليّ أنْ يجد لي عملاً في مكان آخر، قال: إنّه لم يكن بحاجة إليّ، وأخذني إلى دكّان، يقيم فيه شابّان سوريّان، أحمد شابّ تركماني من حلب، ومسعود شاب كرديّ من كوباني(عاد إلى كوباني، وتزوّج هناك، لم تكن الاشتباكات في كوباني قد وقعتْ)، كانا قد استأجرا دكّاناً، للمبيت فيه، مساحة الدكّان حوالي

ثلاثة أمتار بثلاثة. كانا يدفعان مئتَي وخمسين ليرة أجار الدكّان، وقد استضافاني، لأنام عندهما. الدكّان يُغلق بضرابيّة معدنيّة، كأنّنا بضاعة، ننام بداخله، ولا يوجد تواليت، كنّا نذهب إلى الجامع القريب من المحل لقضاء حاجاتنا، أمّا بالنسبة للاستحمام، فكنا نتناوب بالدور، يترك الآخرون المحلّ لأحدنا، ليستحمّ وحده في الدكّان، كنّا ننام على الأرض، ولكنْ، نمدّ تحتنا بطّانيّات من الصوف. أخذني الشابّان إلى معلّمهما، ليُشغّلني معهما في البناء، عملتُ لمدّة أسبوع، ثمّ انتهى العمل، قال المعلّم: إنّه لم يعد لديه شغل، فعدتُ إلى جلال.

ذكرى هالدكّان مؤلمة، مو إلي، أنا نمتْ يومين، بس للشباب السوريين.

أمضيتُ مع جلال، إذنْ، سنة وشهراً، أكلي وشربي وشغلي والحمّام والغسيل كلّ شيء بالدكّان.

خزّانُ أمّي

أقرأ ما تكتبين، لستِ أنتِ مَنْ تسألين هذه الأسئلةَ الساذجةَ، كيف أقرأ وأنا مُضطجعةٌ في المقبرة؟! أو كيف أقرأ وأنا أمّيّة؟! أو كيف أقرأ وأنا في بلد آخر؟!

تتحدّثين طويلاً لصديقاتكِ عن زياراتي لكِ بعد موتي، وهذه تجربة جديدة تعيشينها معي. وأنا، أيضاً، أختبر الموت في كلّ يوم ..

مضى عام على رحيلي إلى المقبرة، وما تزال علاقتنا قائمة، بل صارت أكثر حُرّيّة، وردّاً على الأسئلة العاقلة التي قد تخطر للعقلاء الصارمين، فإنّني أقرأكِ بروح الأمّ الراحلة، أراكِ بروحي التي تُرفرفُ حولكِ ..

قرأتُ أنّكِ كتبتِ منذ أيّام، كيف تسمعين حفيف ثوبي في غرفة مكتبكِ، بينما تُدوِّنين هذا الكتاب، وأنّك تسمعين ما يشبه التّنفّس، وكأنّني أتنفّس قربكِ، أعتذر لكِ، وسأحاول أنْ أركّز في زيارتي القادمة، في الحقيقة إنّ كتابكِ هو السبب. كنتُ مستغرقة في قراءة الفصل الذي تتحدّثين فيه عن اعتقال حسام، ونسيتُ نفسي، فارتطم ثوبي بأرضيّة غرفتكِ الخشبيّة، وأَحْدَثَ ذلك الصوت الذي يشبه فحيح الأفعى.

أنا سعيدة بهذا الكتاب، سعيدةٌ لعدّة أسباب، لأنّك سعيدة وأنت تكتبينه، فأنتِ لستِ هكذا دائماً، ولأنّه يحرِّرك ويحرِّرني. يحرِّرنا من الموت والحزن، ويفتح بعض الكوّات من الضوء في قبري. لأنّه يقتل المسافة بيننا، لأنّكِ تمنحينني حقّ الحياة معكِ ..

نعم، تذكّرتُ لماذا تدخّلتُ الآن في الكلام، وأنت تتحدّثين عن سطل حسام، استعدتُ في ذهني صورة خزّان البيت، الخزّان القديم تلف، وجاءني حسّان بخزّان جديد سعة خمسمئة متر مكعّب، تحسدني عليه أغلب الجارات، دَهَنَهُ حسام بالطلاء الأحمر، وكان يصعد ببيدونات الماء التي يملؤها من الجامع الجديد في حيّ الشهباء أو من جامعة الروضة، ويصعد بها حتّى السطح. المسكين كان ينكسر ظهره من جَرّ البيدونة (الدمجانة)، كنتُ أقول له: إذا تركنا الماء تحت، فسنستعمله باستخراجه عبر الأوعية، أمّا إذا أفرغتَهُ في الخزان، فسيكون استعمالُه أسهل، عبر الحنفيّة المتّصلة بالأنابيب حتّى الخزّان، وهكذا كنتُ أستحمّ براحة بال.

يحكي لي حسام كيف يجرّ الماء، حيث يضعون التنكات والبدونات على جِلْدٍ سميك، يخيطون له قبضة، ثمّ يجرّونه وكأنّهم بغال، وكانت أصوات الجَرّ تُحدِثُ ضجيجاً هائلاً، حيث كانوا يأتون بالماء بداية من مركز الإطفاء في نزلة المستوصف، قرب معمل التنك، ولكنْ، بعد قصف المعمل والمقصف، صارت المنطقة مكشوفة لقذائف بني زيد أيضاً، وصارت خطرة، لهذا صار يتطوّع أحد الذين لديهم سيّارة في الحارة، لجَلْب الماء من الجوامع.

خزّان الماء أنقذني من البَهْدَلَة وخطر الاستحمام في بيوت الآخرين.

على بحرِ مرسينَ

تركتُ جلال، وتوجّهتُ إلى مرسين، انتقل إليها بعض معارفي من الحارة في حلب.

قيل لي: إنّ مرسين مدينة سياحيّة مليئة بالمقاهي والمطاعم، ويمكن العثور فيها على عمل.

بدأتُ بطَرْق جميع الأبواب باحثاً عن عمل. أنا أجيدُ تحضير الأركيلة، كما الكثير من السوريين الذين امتلأت بهم مقاهي المُدُن التركيّة، كما يمكنني العمل في المطبخ، سواء لتحضير الطعام أو غسيل الصحون، وأستطيع، أيضاً، العمل في خدمة الزبائن، كنتُ مستعدّاً لأيّ عمل، أحصل منه على بعض المال، لأعيش.

لم أتركْ مقهىً على البحر، دون أنْ أسألَ عن عمل، ثمّ توجّهتُ إلى المحلات المواجِهَة للبحر: تلك المطاعم والنوادي الليليّة، حتّى عثرتُ على مراد.

تحدّثنا بالكرديّة، هو من ديار بكر، وقال: إنّه يحتاج إلى حارس ليليّ لباره، وبدأتُ بالعمل عنده.

بدأ الأمر جيّداً، كان يعطيني بحدود ثلاثين ليرة عن الليلة، ما يعادل عشرة دولارات، أي ثلاثمئة دولار في الشهر، وهذا رَقْم مهمّ، حيث أحضر إلى المحلّ في التاسعة ليلاً حتّى التاسعة صباحاً. لكنّ الأمر لم يكن بهذه

السهولة، إذ لم أحصل على المبلغ المتّفق عليه، لأنّ مراد كان يماطل معي دائماً، يعطيني مرّة، ويتركني عشرات المرّات دون أيّ مبلغ، ثمّ يعطيني عن ليلة واحدة، وهكذا ..

تعرّفتُ على بعض الحرّاس السابقين الذين كانوا يعملون في المحل نفسه، وأخبروني أنّهم تركوا العمل بسبب مماطلات الدَّفْع من مراد، وكانوا يأتون مطالبين بما تبقّى لهم من مستحقّات من أجورهم.

أُعجبَ مراد بأمانتي. كان الزبائن يغادرون ثملين، والأضواء مُطفأة، وحين أُشعل الأضواء بعد إغلاق المحلّ، وأكون بقيتُ وحدي، أعثر على بعض الأغراض الشخصيّة التي نسيها الزبائن: مبالغ ماليّة صغيرة سَقَطَت منهم - موبايل - ساعة، وفي الصباح، أترك كلّ ما وجدتُه على طاولة مراد ..

ذات يوم وجدتُ ثلاثين ليرة، وكانت أجرتي المتبقّية منذ أيّام، لم يدفعا لي، أحسستُ بغبائي وأنا أناول المبلغ لمراد: هذه وجدتُها تحت الطاولات! أخذها مراد، ووَضَعَهَا في جيبه، فقلتُ له: أنا أنتظر أجرتي منذ أسابيع، لماذا لا تعطيني هذه الثلاثين ليرة؟ فأجابني: أنا مُفلس، وبحاجة لهذه الثلاثين ليرة. صُدِمْتُ، كلّ هذا الثراء، والإنفاق الخياليّ للمال الذي أشهد عليه كلّ ليلة، حيث يصرف على صاحباته، ويشتري الحشيش والكحول، ويرفض إعطائي المبلغ الذي وجدتُهُ على الأرض، على أنْ يكون دفعة من أجوري؟ ندمتُ أنّني أعطيتُهُ ما وجدتُ على الأرض، بسبب أمانتي التي كانت عبئاً عليّ.

حين تراكمَ المبلغ الذي بحوزة مراد لي، بدأتُ أشعر بضرورة تَرْك العمل، كأنّني أعمل بالمجان. صار مراد مَديناً لي بأكثر من خمسمئة ليرة، يرفض سدادها، ويماطل. قرّرتُ تَرْكَ العمل، دون أنْ أترك حقّي. قال لي: نعم،

ليس لديّ الآن المال لتسديد أجرتكَ، اتركِ العملَ، ومُرَّ عليّ لاحقاً، لأسدِّدَ لكَ ما تبقّى في ذمتي. وكلّما سألتُهُ: متى أمرّ؟ قال لي: لا أعرف متى يأتيني المال، ما إنْ أحصل على المال حتّى تأخذ حقّكَ، لكنّي لا أعرف متى، ربمّا بعد ساعة، ربمّا بعد أيّام ..

رحتُ أمرّ عليه في كلّ ليلة، ولم يكن يردّ عليّ سريعاً، كان يطالبني بالجلوس والانتظار، واعداً إيّاي بأنّه إنْ مرّ أوّل زبون ودَفَعَ له، فسيدفع لي، وكان يكذب، ولا يكفّ عن الكذب.

ذات يوم، وسوس لي الشيطان، أخذت حاسوبه المحمول من فوق طاولته، وكان خارج المحلّ، وخرجتُ به، مقرّراً أنْ أبيعَه وآخذَ حقّي المأكول من قِبَلِ مراد، وَصَلْتُ حتّى آخر الشارع، وشعرتُ بالندم، عدتُ أدراجي إلى المحلّ، لأجد مراد مع صديقه فرهاد عائدين للتّوّ في سيّارته. طرقتُ على نافذة السّيّارة، وقلتُ لمراد حين فَتَحَ النافذةَ: انظرْ، كمبيوتركَ معي، لقد حوّلتَني لسارق! ضحك مراد، وهزأ بالأمر: لا، أنتَ تمزح، أنت لستَ لصّاً، يا حسام! قال له فرهاد: اللعنةُ عليكَ، يا مراد، أفسدتَ الشاب. ناولتُهُ الكمبيوتر، ووعدَني مُقسماً بشرفه أنْ يمنحني المال في الغد، وقال أمام فرهاد: أقسمُ بشرفي، وهذا فرهاد شاهدٌ عليّ، إنْ لم أعطكِ حقَّكَ غداً، فخذْ مقابله ما تشاء، فقال فرهاد الكرديّ التركيّ: أنا شاهدٌ عليكَ، غداً يأتي حسام، إنْ لم تعطِهِ مالَهُ، يأخذ هاتفكَ المحمول لقاءَه، فوافق مراد، وأقسم على هذا.

في اليوم التالي، حيث هو هكذا، يبدو مراد خارج الواقع، ثملاً على الأغلب، ينسى ما يقول، بوهيميّ، واهتماماته مُنصبّة على النساء والكحول والحشيش والمتعة. لديه الكثير من المال، ولا تجد في جيبه شيئاً في كثير من الأوقات. ذَهَبْتُ إليه، وكان فرهاد موجوداً، وكالعادة، تلا مراد عليّ

عبارته الأزليّة: والله، ما معي. فقال له فرهاد: أعطِه هاتفَكَ، اتّفقنا البارحة على هذا. ناولَني مراد هاتفَهُ باستهتار، إمّا أنّه فعلاً لا يبالي بالتّخلّي عن هاتفه، أو أنّه كان متأكّداً برفضي لإيذائه وحرمانه من هاتفه. نظرتُ إليه بقَهر، وقلتُ له: أنتَ تذلّني من أجل خمسمئة ليرة لا تعني لكَ شيئاً، لكنّ المبلغَ بالنسبة لي مهمّ، لقد قرّرتُ الذهاب إلى أوربا، وهذا المبلغُ سيُساعدني لأدفعَ للمهرّبين أجرةَ نقلي إلى اليونان.

لم أتوقّفْ عن الذهاب يوميّاً إلى البار، أملاً في الحصول على المال المتبقّي لي.

في هذه الأثناء، تعرّفتُ على رنا، البنت العَلَوِيّة من اللاذقيّة، ولم يخطرْ ببالي، وأنا في حالة كبيرة من الإحباط والضياع النَّفْسي والقلق، أنّ هذه الفتاة الطّيّبة، ستكون صديقة وأختاً، وتقف معي في طريق أوجاعي القادمة ..

بعد بحث مضن وطويل عن المهرّبين، ولقاءاتٍ مطوّلة، الكثير منها كانت فاشلة، مع الوسطاء الذين يجمعوننا بالمهرّبين، استقرّ الأمر على أنْ نأخذ الرحلة القادمة من مدينة بودروم القريبة لمدينة إزمير. أحد أقاربي الذي باع كلّ ما لديه في سورية، أتى بعائلته، وتركها في مرسين، وأخذني على نفقته، لأقطع معه البلم. كان خائفاً من مواجهة رحلة الموت وحده، وكان أكبر سنّاً منّي، وأظنّ أنّه يحتاج للشعور بالمساندة من شابّ في عمري.

تركتُ في بيته حقيبتي التي كانت كلّ ثروتي من سورية، تلك التي كانت تتهدّل على كتفي، وأنا أركض بها قاطعاً الحدود بين سورية وتركيا، والمهرّب يصرخ خلفي ..

حقيبتي هذه التي خرجتُ بها من بيت أهلي، ورافقتْني في سجن الحيّاني، ثمّ أمضتْ معي أيّام الخوف والغربة والوحدة في المزرعة، وكانت بمثابة خزانة، أصفّ فيها ملابسي التي أغسلُها في المحلّ في المنطقة الصناعيّة، حزنتُ وأنا أودّع حقيبتي، وعدتْني قريبتي أنْ تأتيني بها إلى أيّ بلد نصلُهُ، وتملك بعدها حقّ اللحاق بزوجها بعد حصوله على الإقامة. قال الوسيط والمهرّب: لا تحملوا أيّ شيء، فقط أوراقكم، تُغلّفونها جيّداً بالنايلون، حتّى لا تُتلفها مياه البحر، إنْ سَقَطَت فيها. خرجنا نحملُ بعض المال والأوراق، لم يكن لدينا حتّى خيار أخذ غيارات داخليّة، أو كنزة صوف إضافيّة، تقينا البرد ..

تركْنا كلّ شيء في المدينة، ورأيتُ نساءً يرمينَ ملابسهن الجديدة وأدوات الزينة والعطورات في حاويات القمامة، ليصعدنَ مُتخفّفات في قوارب المطّاط ..

شهرزادُ الحربِ: أروي لأعيشَ.

مقتربة من ماركيز الذي قال: (عشتُ لأروي)، تقولين في روايتِك (وُلدتُ لأروي). متحدِّثة عن أهمّيّة الرّوي في حياتِك، وتكتبين مقدّمة، أحببتُها كثيراً، تتحدّثين فيها عن أبي الذي يُلملم كلّ ما يراه في الطريق، معتقداً أنّه سيلزمه، وأنت تُلملمين الحكايات..

جميلة هذه اللعبة، يا بنتي..

أعتقد أنّني لو تابعتُ تعليمي، وعرفتُ الكتابة، لرويتُ قصصاً مثيرة، ولكنّني لم أخسرْ كثيراً لأنّكِ هنا. أنت تفعلين ما لم يُتَحْ لي، لهذا أريدكِ أنْ تكتبي عمّا عشتُهُ أنا، ولم يتحْ لكِ أنْ تعيشيه.

نعم، نحن نُكمل بعضنا، أنت تكملين ما أفتقده: القدرة على الكتابة، وأنا أمنحكِ ما تفتقدينه: الحكاية في أثناء الحرب.

هو عاش ليروي، وأنت خُلقتِ لتروي، أمّا أنا، فقد رويتُ حتّى لا أموت، أروي لأعيش.

لو جئتِ ذات يوم إلى حلب، بعد انتهاء هذه الحرب اللعينة، والتقيتِ بالناس الذين عرفتُهم في السنين الخمس الأخيرة، سنوات الحرب، لاكتشفتِ بدهشة أنّكِ لستِ بحاجة لتحكي أيّ شيء عن نفسكِ لهم. إنّ المحيطين بي، ولا سيما النساء يعرفون كلّ شيء عنكِ، وعن إخوتكِ، وعن حياتي كلّها، منذ طفولتي حتّى صباي وزواجي وإنجابي، كلّ شيء، نعم، كلّ شيء.

أنا كتابٌ مفتوحٌ، ولكنّني أُتقن تقليبَ الصفحات، وتقديمها، كي لا يفقدَ الآخر الدهشة والمتعة وهو يسمعني.

هل تعرفين السبب الأهمّ لسَكَن البنات عندي؟ نعم، أتحدّث عن زينب الممرضة؟ كانت البنات مثلكِ مولعاتٍ بسَرْدِي، يعملنَ إبريق شاي كبيراً، قبل أنْ تفرغ آخر أنبوبة غاز، وأعجز عن شراء غيرها، لا فقط بسبب جنون الأسعار، ولكنْ، لعدم توفّر الغاز. نجلس في الغرفة الكبيرة هذه، غرفة العائلة، أو غرفة القعدة. أحكي لهنّ ويضحكنَ. أمّا أنا، فكنتُ متمسّكة بالحكايات التي أُطيلها، وأمطُّها، وأستطرد في روي متفرّع عن القصّة الأصليّة، فأعاود السَّرْدَ الرئيس، حيث ينبّهنني إلى خروجي عن الموضوع، حيث أتقصّد إطالة زمن الحكي، ليبقينَ معي. حيث أعرف أنّني ما إنْ أنتهي من الحكاية حتّى تتركني البنات، ويصعدنَ إلى غرفهنّ في الطابق الأعلى، ليبدأنَ الثرثرة مع صاحباتهم، أو أصحابهم، عبر الواتس آب والفيسبوك ..

تماماً كما شهرزاد، كانت تحكي لتُبقي شهريار معها، وتؤجّل موتها، كنتُ أحكي ليبقى معي الآخرون في أثناء الحرب، فأضمن، إنْ متُّ، فإنّني سأرى أحداً ما أمامي، أو ربّما أمسك بيد أحد، فلا أموت وحدي.

هكذا كنتُ أقصّ الحكايات، حكايات مُختَرَعَة أحياناً، وغالباً حكايات حقيقيّة، أتحدّث عن الأسلاف، عن أبي المزواج الذي تزوّج أكثر من عشر نساء، ويُعتقد أنّه لدينا إخوة وأخوات من إحداهنّ، لا نعرفهم ولا يعرفوننا. أبي الفارس الذي كان يمتطي حصانه، ويطير في القرى والمُدُن، بسبب طبيعة عمله في الجمارك، كان يتنقّل ويتزوّج في كلّ مدينة يحطّ فيها، حتّى التقى بأمي، وتوقّف عن الزواج ..

لجمتْ أمّي رغباتِ أبي بالزواج، لأنّها لم تكن من طينته. نعم، كلّ الكرديّات اللواتي عرفهنّ أبي، وربّما هناك شركسيّات كما أظنّ، لهذا تزوّج أخي الكبير بشركسيّة، جاء بها بعد زواجه من ابنة عمّه، نعم، سأركّز الحديث عن أبي الآن، لم يتمكّن أبي من الشعور بالاستقرار والرغبة في المتابعة مع أيّة امرأة سوى أمّي. نعم، هي أمّي، أقسمتْ لي أنّني ابنتها، وأنّ تسجيلي باسم زوجته السابقة، كان ترتيباً إداريّاً فقط، ليستمرّ في قَبْضِ راتبها، حيث لم يُعلِنْ موتها ..

هذه حكاية أخرى، قد أرويها لاحقاً، فأنتِ مستعجلة، وتريدين إقفالَ الهاتف، لأنّ ثمّة موعداً لديكِ في باريس، لا يهمّكِ الآن إنْ كان اسم أمّي المسجّل في دفتر العائلة هو توثيق حقيقيّ لحادثة ولادة تلك المرأة التي يُقال: إنّها ماتتْ قبل زواج أبي بأمّي الحقيقيّة، أو أنّهم كذبوا عليّ، وأنّنا، فريد وأنا فقط، أولاد فريدة، وكل إخوتي وأخواتي الباقين هم أولاد سامية ..

سامية العربيّة، إذنْ، المختلفة عن عائلة أبي وثقافته، و لا تعرف لغته حتّى، تمكّنتْ من الإمساك بتلابيب قلبه، وانتصرتْ على مغامراته في مطاردة النساء والزواج بهنّ، ثمّ تطليقهنّ ..

أمّي العربيّة، كفادية، زوجة عمّكِ، نساء آتيات من ثقافة أخرى، امتلكنَ قلوب رجالنا، ماذا؟ مستعجلة؟ حسناً، اذهبي إلى موعدِكِ في السان جرمان، نعم، أعرف كيف أنطقُها، وأعرف أنْ أقول مثلكِ: بونجور، تضحكين؟ لماذا؟ أنت مخادعةٌ، تقولين لي: إنّ خدْعَتي في تشعيب السَّرْد لإبقائكِ وقتاً أطول معي، لم تعدْ تنطلي عليكِ، هذا الكلام غير صحيح. نعم، أنا أطيل إبقاءَكِ على الهاتف، حتّى لا أبقى وحدي، وسأغلقُ الخطّ حين أسمع أحدَهم يطرق الباب، ولكنّكِ أضعف من التّخلّص من جاذبيّة سماع

قصصي. لا تبكي، أفهمُكِ، إنّكِ الآن مشدودةٌ لسماعي أكثر من أيّ وقت آخر، لأنّك تخافين من موتي المفاجئ، وتشعرين دائماً أنّكِ تحتاجين لي، لتزويدكِ بالمعلومات السَّرْدِيّة، إنْ متُّ، فهناك أخواتي وإخوتي وفادية، حاولي الاستعانةَ بهم لترميم ما ينقصُكِ. حسناً، سأقفلُ الخطّ، اذهبي، أشكركِ على اتّصالكِ، لا تقطعيني.

قاربُ الموتِ

وضعتُ الموتَ نصبَ عيني، وأنا أغادر من بودروم إلى اليونان، عبر الرحلة التي صارتْ سمعتُها عالميّة، وحيث ركبتُ أحد قوارب الموت.

كنّا نسمعُ عن فشل الرحلات ونجاح بعضها. كنتُ لا أعرف ماذا سيقعُ لي. هناك احتمالاتٌ كثيرة، منها الموتُ، ومنها النجاحُ بالوصول إلى أوربا عبر اليونان، ومنها فشل الرحلة والقبض علينا في المياه التركيّة، وإعادتنا إلى تركيا ..

لا أحد يمكنُهُ التكهُّن بمصير هذه الرحلات، تحدُثُ الكثير من المناقشات والحسابات النَّفسيّة غالباً قبل أخْذ قارب الموت. حين نصلُ إلى قرار السَّفَر عبر البحر، نعرفُ أنّنا وَصَلْنا إلى نقطة اللا خيار. لم يعدْ أمامنا أيُّ خيار آخر، الموت في البحر هو احتمالٌ، نقبله، مقابل احتمال النجاة.

قبل القارب ينتظرُ أحدُنا طويلاً حتّى يقرِّر المهرِّب لحظة انطلاق القارب. المهرِّب الذي يدرس عدّة شروط مناسبة للسَّفَر، خُلُوّ البحر من البوليس، عدم وجود عواصف ..

غادرْنا من مرسين إلى بودروم، والتقيْنا بصاحب القوارب غيفارا.

بودرومُ وقواربُ البحرِ

يكتب لي حسام: انطلقتُ إلى مدينة أزمير، ومنها غادرْنا مدينة بودروم،

مع مهرِّب مشهور، اسمه غيفارا، حيث أخذَنا إلى نقطة المغادرة التي حُدِّدَتْ في الساعة الرابعة بعد الظهر. مشينا في الأحراش مسافة ثلاثة كيلومترات تقريباً، وجلسنا مختبئين هناك، حتّى الساعة الحادية عشرة ليلاً، إلى أنْ وَصَلَ البلم (القارب المطّاطيّ).

شعرتُ بالخوف من رؤيتِهِ، قاربٌ بطول ثمانية أمتار، وعرض أربعة أمتار، ولا يرتفع عن سطح البحر أكثر من أربعين سنتمتراً.

هَجَمْنا كالبقر، دون ترتيب، كلّ منّا يريد أنْ يصعدَ قبل الآخر، كنّا اثنَيْن وأربعين شخصاً. جميعُنا من الذُّكُور. تتراوح أعمارُنا بين الثالثة عشر والسبعين سنة. ما إنْ تحرّك البلم حتّى شَعَرَ الجميعُ بالخوف، وراحَ أغلبُهم يُتَمْتِمُون، ويقرؤون الأدعيةَ والسُّورَ القرآنيّةَ طالبين الحمايةَ من الله. جلستُ في الوسط محاولاً تجاهُل الخوف، لم أسبحْ في حياتي، وتذكّرتُ قصص الموت التي سبقت الرحلات المشابهة. هذه القوارب تنجو بالمصادفة، هناك مَنْ يموت، وهناك مَنْ ينجو، ولا أحدَ يُمكنه الاحتياط مسبقاً، لما قد تتعرّض له الرحلة.

كنّا في البحر وسط الظلام، لا نرى أيّ شيء، وهذا مقصودٌ، كي لا نُلفتَ نَظَرَ البوليسِ التركيّ.

كان يقود القاربَ شابّان عربيّان، أحدهما مغربيّ، والثاني جزائريّ، صعدا القارب، ليهربا مع السوريين، حيث لا يصعد المهرِّب معنا، إذ تنتهي مهمّته بتسلمينا القارب.

لم نكن نفهمُ على الشابَّيْن اللذَيْن كانا يتحدَّثان بالفرنسيّة، وأخذا على عاتقهما مهمّة قيادة القارب، لقاء صعودهما بالمجان. كنتُ أسمع فقط كلمَتَيْن تتكرّران، ولا أفهمُهُما: أدروات، أكوش(*).

(*) À droite à gauche

جدَّف الشّابّان لمدّة خمس وعشرين دقيقة، أحسستُ فيها كأنّ الحياة توقّفتْ، تذكّرتُ حين كنتُ أركضُ في الفلاة، عبر الحدود السوريّة التركيّة، والمهرِّب يصرخ من حولي: اركضْ، اركضْ، وأنا أركضُ، والأرضُ تنطوي تحت قَدَمَيّ، وتعود ولا تمشي، وقد تركتُ بلدي خلفي، أشعر الآن أنّ المركب يتحرَّك، ولا يقطعُ المسافة، اليابسةُ خلفي، ونحن في الماء، ننتظرُ إشارةً ما، حتّى نثقبَ القاربَ، كي لا يُعيدَنا البوليسُ اليونانيُّ، إذا وَصَلْنا في قارب سليم.

لمحْنَا الشرطةَ اليونانيّةَ، فقال الكابتن: اثقبُوا القارب!

يبدو أنّ أحدَهُم مزَّقَ القاربَ بطريقة خاطئة، من طرف واحد، وظلّ المحرِّك يشتغل. وفجأة فَقَدَ القاربُ توازنَه، وصار المحرِّك يبرم مثل المكّوك بسرعة كبيرة، ويرمي الركّاب في الماء. تعالتْ أصواتُ الركّاب، وعَمّت الفوضى، وسَقَطَت الحقائبُ والركّاب، ولم يبقَ شيء على ظهر البلم. تمسّكتُ بحبل مُعلّق بالبلم، وأنا أرى الناس يتساقطون حولي، ومروحة المحرِّك تجرحُهم.

كانت الشرطةُ تبعدُ عنّا بمقدار مئتَي متر، سلّطوا علينا الضوء، ونادوا علينا بمكبّرات الصوت بالإنجليزيّة: لا تخافوا، نحن سنساعدُكم، ولن نتركَ أحداً يموت، أنتُم بأمان.

مرَّ في خاطري في تلك اللحظة شريطُ صورتي راكضاً من الحدود السوريّة، أركضُ في الأرض الحمراء المفلوحة، وصوتٌ يصرخ من خلفي: اركضْ، اركضْ، وأركضُ، والأرض تسيرُ معي، وكأنّها تلتصقُ بي. هناك تركتُ اليابسةَ خلفي، هنا كأنّني أركضُ بين زحمة الركّاب الخائفين من الموت، وهم يتراكضون ويتزاحمون للوصول إلى البرّ..

الكلّ يركض، كأنّه يذهب صوب خطوة آمنة في الأمام، ولا نتخيّل أنّ المكان الذي نركضُ إليه قد يكون الأسوأ ..

(اركضْ .. اركضْ)، بل (اركضوا .. اركضوا) ثمّة صوتٌ خفيّ يصرخ في الناس، وكان المركب يركضُ بنا، ملتصقاً بنا، يقرِّر قذفَنا صوب الموت في قلب البحر، أو يرمينا في أيدي البوليس اليونانيّ، فننجو!

أنقَذَنَا البوليسُ بالفعل، وأخذَنا إلى جزيرة عسكريّة. كنّا نرتجفُ من البرد، وكنّا مُبلّلين، اصطفَفْنا في الساحة، وأخذ البوليس جميعَ ما بحوزتِنا من وثائق وأوراق ومحافظ النقود، حتّى أحزمة البنطلونات أخذوها. ثمّ وضعُونا في غرفة، وأغلقُوا علينا. كانت الساعة بحدود الواحدة والنصف ليلاً، وبقيْنا هناك حتّى الخامسة صباحاً، أخذوْنا إلى جزيرة، اسمها لاروش، حيث دائرة الهجرة.

لم نتمكّن من النوم، ما من مكان للنوم، حيث جَمَعُونا في مكان يشبهُ الدكان أو الكاراج. أخذوا المُصابين لمداواتهم، كان ثمّة مَنْ أصيب بجروح بليغة من المحرّك، أحدُهم انشقّ رأسه، وآخرُ انجرحتْ ساقُه، وثالثٌ أصيبت يده، وهكذا، بقينا حتّى المساء دون طعام أو ماء أو دخّان. إلى أنْ جاء بعض أفراد جمعيّة خيريّة، أعطونا وجباتِ طعام، وبعضَ الملابس، وسَمَحَ البوليسُ لشخص واحد ما، ليخرج ويشتري دخاناً للباقين.

بقينا يومَيْن، كنّا ننامُ في العراء، تحت شجرة، أخذونا بعدَها إلى مركز للبوليس، يشبه السجن. وضعونا جميعنا في غرفة واحدة، ونمنا ليلة هناك، ثمّ أعطوا كلاً منّا وثيقةَ طَرْد، يسمّونها (خارطيّة)، تسمح بالتجوال في اليونان لمدّة ستّة أشهر، وأطلقوا سراحَنا بعدها.

انطلقتُ مع بعض الذين كانوا معي في القارب إلى جزيرة اسمها كيوس، أو خيوس حسب اللفظة، ومنها أخذتُ باخرةً إلى أثينا.

فندق ستاليس في أثينا Stalis Otel

في الساعة الرابعة والنصف صباحاً يصل إلى أثينا. يسأل حسام سائقي التكاسي عن فنادق رخيصة في المدينة، فيأخذه السائق إلى حيّ معروف بتواجد الأجانب، ولا سيما العرب، يُدعى أمونيا، ويتركُهُ أمام فندق ستاليس.

يمضي حسام ليلة واحدة، إذ يجد سعر الغرفة باهظاً عليه، حيث دفع عشرين يورو سعر إقامة الليلة. وسيكتشف حين يخرج من الفندق، ويتجوّل في الساحة الشهيرة، ليلتقي بالكثير من السوريين والعرب، بوجود فرص أخرى للنوم، أقلّ كلْفة.

يحدِّثني حسام، وأقرأ كذلك عبر مواقع الإنترنت عن هذا المكان الشهير بالفوضى والفساد: مخدّرات - دعارة - تزوير وثائق سَفَر - مهرِّبون..

يدخل إلى مقهى الباشا المعروف أيضاً بتواجد العرب فيه، ويتعرّف على الكثير من السوريين، حيث يكاد المقهى يكون نقطةَ تجمُّع ولقاء السوريين الراغبين في المغادرة غير الشرعيّة إلى أوربا، والمهرِّبين.

مقهى الباشا

في شارع أخرنون يلتقي العرب هنا. صاحب المقهى مصريّ قبطيّ، المميّز في المقهى أنّه ذو طابع مصري قديم، تراث فرعونيّ، قديم الشكل.

تشتغل فيه نادلات بنات مثل: نانسي الطويلة الشقراء، وماريا السمراء الجميلة. وكذلك هناك فرج، صبيّ النارة للأركيلة، وجميعهم مصريون. وهناك جلسة جميلة على رصيف المقهى، ويمكن تناوُل الفلافل والفول بأسعار مقبولة. يتعرّف حسام على حمدي المسؤول عن تأمين بيوت للمهاجرين، يدعون هذه البيوت ببيوت نفرات، حيث النفر ينام بمئة يورو في الشهر، أي أرخص بكثير من الفندق.

كلّ شيء له تسعيرة هناك، يعطيني حسام لائحة الأسعار:

- الهويّة الأوربيّة (الأوريجنال) من أيّة كانت، قيمتها من مئة إلى مئة وخمسين يورو.

- الهويّة التجاريّة، نوع تاني، قيمتها من خمسين حتّى خمسة وسبعين يورو.

- البسبور الأوربيّ(أورجينال) بتغيير الصفحة الأولى منه، تسعيرته بين خمسمئة يورو حتّى الألف.

- محاولة الطيران على حساب المهرّب حوالي أربعة آلاف يورو.

وبالاتّفاق بين الطَّرَفَيْن، المهرِّب والشخص الذي يريد الهرب، إذا دَفَعَ عشرةَ آلاف يورو، يكون السَّفَرُ مضموناً، لأنّ المهرِّب يكون قد دَفَعَ رشاوى لأغلب موظّفي المطار.

المهمّ، يتابع حسام الكلامَ، صرتُ معروفاً في المقهى، وكان العاملون المصريون يدعونني بالكابتن، ويُرحّبون بي ما إنْ يلمحونني داخلاً، ويهتفون: أهلين بالكابتن. لم يُصدِّقوا أنّ اسمي هكذا، مثل اسم اللاعب الشهير في مصر، حتّى رأوا أوراقي الثبوتيّة.

يقول حسام: إنّه يحبّ أثينا: مدينة حلوة ورخيصة، وفيها ناس من كلّ جنسيّات العالم، لكنّها فقيرة، المناخ رائع، رغم القلق على الإقامة والتّشتّت النَّفْسيّ والمجهول والخوف، كنتُ سعيداً.

تنقسم أثينا إلى قسمَيْن: القسم العربي وهو مزدحم، وفيه منطقة أمونيا، شارع أخرنون وغيرها، وهناك قسم راق وفاخر، مثل كليفادا، كيفي سيا، بلاكا ..

القسم الفوضوي مؤلّف من عرب وأفغان وباكستانيين، وهو يعجّ بالمخدّرات. نرى الناس على الأرصفة تتعاطى المخدّرات، نشاهد الحَقْن بالإبر. يُباعُ الحشيش عَلَنَاً، وهناك يعيش المُزوِّرون: تزوير الوثائق، جوازات السَّفَر ..

عشتُ أيّاماً حلوة رغم الفقر، رغم التّوتّر والتّشرّد، وانشغال بالي بمصيري والأيّام التي تنتظرني. لكنّ أجمل لحظات حياتي كانت حين وَصَلْتُ إلى أثينا.

بعد قضائي أوّل ليلة في أثينا، استدللتُ على أوتيل رخيص، أمضيتُ فيه ثلاثة أيّام، ثمّ وجدتُ فندقاً أرخص، لأربعة أيّام، وهكذا تنقّلتُ في

الفنادق، حتّى تعرّفتُ على شابَّيْن جزائريَّيْن، أحمد وعبد الإله، كانا يبحثان عن مهرِّب يأخذهما إلى إيطاليا، وكانا قريبَيْن، ربّما أبناء عمومة. استضافاني في غرفتهما في الفندق، ونمتُ عندهما عدّة ليال، إلى أنْ تعرَّفتُ أيضاً في المقهى على شخص سوريّ مقيم في السويد، وقد جاء ليلتقي بوالده في اليونان، هذا الشخص كان يتكتّم كثيراً على شخصيّته، ولا أستطيع ذِكْر اسمه، لأنّه كان من المقاتلين مع الجيش الحُرّ في كتائب أبو عمارة. كان من حارتي في الخالديّة، لكنّني لا أذكر أنّني التقيتُ به في الحارة. كان، إذنْ، حذراً في علاقاته، خشية أنْ يتعرّف إليه أحدٌ بأنّه كان في صفوف المقاتلين، وقد تلقّى رصاصة في ساقه، فصار يتنقّل على كرسيّ كالمعاقين، ولم يُخبر السويد بأنّه كان في الجيش الحُرّ. المهمّ أنّ هذا الشخص كان مقيماً في فندق في أثناء تواجده في اليونان، واستضافني على نفقته في الفندق.

كما تعرّفتُ على صيدلانيّ من القامشلي، حيدر الحسين، أيضاً كان مُصاباً بطَلْق ناريّ في ساقِه، وكان يتحرّك على كرسيّ متنقّل، وكان ثريّاً إلى حدّ ما، عرض عليّ أنْ أرافِقَهُ وأخدمَهُ لقاء إيوائي. كنتُ أسير معه طيلة النهار، أدفع كرسيّه أينما يريد، صوب المطعم، للتّسوّق، أساعدُهُ في كلّ شيء، وأنام وآكل على حسابه.

إلى أنْ بدأت فكرة الاعتصام في اليونان.

الاعتصامُ في سينتاغما

بدأ السوريون العالقون في اليونان بالاعتصام أمام البرلمان، وعبر الفيسبوك، تعرّف حسام على مجموعة الداعين للاعتصام، والتقى بهم: محمّد هاشم (أبو عُدي) من دوما - خلدون من دمشق - نديم من حمص - حازم من حماه - محمّد الحسين (أبو الجرّاح) من دير الزور - حسين، صحافي كرديّ من القامشلي - بدر، عازف أورغ من ديريك - فواز.

كانت المجموعة صغيرة في البداية، سبعة شبّان وثلاث فتيات. ثمّ كبرت المجموعة، وأحدثت صخباً كبيراً في اليونان، وَصَلَ إلى البرلمان والحكومة.

كانت المجموعةُ بعيدةً عن النشاط السياسيّ، وتُطالبُ الحكومةَ اليونانيّةَ بحَلّ أزمة اللاجئين السوريين العالقين في اليونان.

صارت المجموعات الكبيرة من السوريين، وَصَلَ تعدادُها إلى حوالي ثلاثمئة شخص، ينامون في الساحة، ويُمضون نهارهم وليلهم دون حراك، أمام البرلمان، بانتظار تحقيق مطالبهم.

يحدّثني حسام عن ميشيل، البرلمانيّ اليونانيّ الذي انضمّ إلى المعتصمين السوريين، وقال: إنّه لن يبرح مكانه حتّى تتحقّق مطالب السوريين بتأمين ممرّات آمنة إلى أوربا. لكنّ الحكومةَ اليونانيّةَ كانت ترفض مطالبهم، وتفرض عليهم اللجوء، ومن المعروف أنّه حسب اتّفاقيّة دبلن،

في حال تقدَّم اللاجئ بطلَب لجوء إلى اليونان أو غيرها، يسقط حقُّه لاحقاً في اللجوء إلى بلد آخر. وبما أنّ اليونان بلدٌ، ليست لديه إمكانيّة إيواء هؤلاء اللاجئين، فإنّ هدف أغلبهم كان أوربا. وكانوا عرضة للاحتيال من المهرِّبين.

انحلّ الاعتصام أخيراً، بقبول الحكومة اليونانيّة على مَنْح اللاجئين وثائقَ سَفَر، تُؤهّلهم للمغادرة رسميّاً عبر مطار أثينا، دون الحاجة إلى استخدام وثائق مزوّرة، يدفعون لقاءَها أموالاً طائلة للمهرّبين، أو يذهبون عبر البرّ، ويعاملون بعنف عبر الحدود مع المجر وهنغاريا، حيث أُغلقَت الحدود بوجه اللاجئين..

يقول حسام: إنّهم خُدِعُوا، لأنّ الحكومة اليونانيّة مَنَحَتْهم وثائقَ سَفَر، مقابل التّقدّم بطلَبَات اللجوء إلى اليونان، وأخبرتْهم أنّ طلَبَ اللجوء يسقط في أوربا، ويمكنهم طلَبُ اللجوء في أيّ بلد آخر.

وهنا اتُّخذ قرار بتأمين مبيت اللاجئين، إلى أنْ تنتهي إجراءات التّقدّم بطلَبَات اللجوء والحصول على وثائق سَفَر، وقامت الحكومة بفَرْز اللاجئين إلى مجموعات، تمّ إرسالهم إلى عدّة فنادق، وكان من حظّ حسام أنْ يعود إلى أوّل فندق نزل فيه حين وَصَلَ إلى أثينا، في أوّل ليلة ينام فيها في أثينا: ستاليس أوتيل.

إجراءاتُ الرحيلِ

استغرق استخراجُ وثائق السَّفَر وقتاً، لا بأس به، كان علينا أنْ ندخلَ في قصّة البيروقراطيّة والروتين: الذهاب منذ الرابعة صباحاً، للوقوف في طوابير أمام دائرة الهجرة التي يأتي إليها الكثير من اللاجئين، أي ليس فقط السوريين، بل اللاجئين من دول أخرى، كالأفغان والشيشان والأوزباكستانيين، وكنّا ننتظر حتّى يتمّ فَتْحُ باب الدخول في الثامنة صباحاً، ونخرج حوالي منتصف النهار. تكرّر هذا عدّة مرّات، حيث في كلّ مرّة، هناك إجراء منفصل، فمرّة نذهب لنبصمَ على طَلَب الإقامة، ثمّ نذهب مرّة أخرى، لنتسلّم وثائق الإقامة، ثمّ نعيد الكرّة، لنبصمَ على طَلَب البسبور أو وثيقة السَّفَر، ونعود أخيراً، لاستلام البسبور. استغرق الأمر بالنسبة لي قرابة الشهرَيْن، لكنّني كنتُ أمضي أجمل أيّامي في اليونان.

سُرَّتْ ريموندا، عاملة في الاستقبال في الفندق، وهي شابّة من الجبل الأسود، سُرَّتْ بعودتي إلى الفندق، وتذكّرتْني، رغم أنّني كنتُ قد أمضيتُ يوماً واحدا فقط في الفندق، لكنّنا تحدَّثنا كثيراً آنذاك، وصرنا كأنّنا نعرف بعضنا منذ سنوات.

وَعَدَتْنا مؤسّسة الهجرة بالتّكفّل بطعامنا أيضاً، لكنّنا نزلنا في الفندق، ولم يصلْنا أيّ مساعدات للطعام، وفُوجِئنا بأنّنا بقينا ليلة وصولنا وحتّى اليوم التالي دون طعام.

خرجتُ من الفندق أتخبّط كعادتي، وأحاول التّعرّف على الناس،

والبحث عن حلول، إذ تمتلئ المنطقة بالأجانب، ووَضْع السوريين بالذات معروف لأغلب الناس.

لمحتُ رجلاً مسنّاً إلى حدّ ما، ذا ملامح شرقيّة، أحسستُ بأنّه إمّا عربيّ أو تركيّ. كان ينظر إليّ هو الآخر، فقلتُ له بالعربيّة: مرحبا. فردّ عليّ: مرهبا. كما يلفظها الأتراك. سألتُه: تركيّ؟ روحت أثرثرُ له (حسام حشوري وفضولي وعلى طريقة أغلب السوريين، يفتحون الأحاديث، ويقصّون حياتهم للآخرين)، وحكيتُ له أنّنا سوريون، جاؤوا بنا إلى الفندق، ولا يوجد طعام للاجئين. قال لي الرجل: إنّه يعمل في جمعيّة خيريّة، وهذا من صلب اهتمام جمعيّته، وهكذا تعرّفتُ على شرف الدِّين الذي اصطحبني إلى مقرّ الجمعيّة، وعرّفني على رئيس الجمعيّة، اسمه كاسترو أو كيسترو، لا أعرف بدقّة، اسمه صَعْبٌ عليّ، مُستخدِماً اللغة الإنكليزيّة التي أحاول التعبير بها قليلاً، تمكّنتُ من شرح الحالة لرئيس الجمعيّة، فوَعَدَني بالتكفُّل بموضوع الطعام.

طَلَبَ منّي لوائحَ أسماء اللاجئين المقيمين معي في الفندق وأعدادهم، فعدتُ إلى ريموندا، وزوّدتْني بلائحة أسماء النزلاء اللاجئين السوريين، وعدتُ من جديد إلى رئيس الجمعيّة الخيريّة، أحمل لائحتي التي تضمّ خمسة وأربعين اسماً، بينهم أطفال ونساء.

حدّد لي رئيس الجمعيّة ساعة في كلّ نهار أحضر فيها لاستلام الوجبات، في كلّ يوم في الساعة الثانية عشرة، أحضر، ليقدِّموا لي عربة، أدفعها صوب الفندق، تحوي وجبات خمسة وأربعين شخصاً.

كان هذا الرَّقْم في البداية، ثمّ راح عدد السوريين المقيمين في الفندق يكبر، حتّى وَصَلَ إلى الثمانين تقريباً، إذ تذمّر بعض المُرسلين إلى أماكن

أخرى، في قرى نائية ومراكز إيواء، وطالبوا بنَقْلهم، وما إنْ فرغتْ بعض الغرف في الفندق، حتّى كانت الحكومةُ تأتي بهم، ليقيموا معنا، وكنتُ أجيء لهم بالطعام جميعاً في كلّ يوم، حيث أوزّع الوجباتِ على الغرف، كانت الوجبةُ عبارة عن طبقٍ مطبوخ: معكرونة - أرز - شوربة عدس، وقطعة فاكهة. ثمّ تعمّقت العلاقة بيني وبين الجمعيّة، فطلب منّي الرئيس أنْ آتيه بالأطفال الذين يحتاجون إلى الملابس، وفعلاً زوَّدوا الصغارَ بالملابس. طبعاً الصغار ذهبوا برفقة أمّهاتهم أو آبائهم أو أخوتهم الكبار.

كان الرجل دمثاً معي، إذ دعاني وحدي فقط من بين اللاجئين، في ليلة الميلاد، لتمضية السهرة معهم في مقرّ الجمعيّة. رحتُ مصطحباً أحد السوريين النزلاء معي في الفندق. استقبلَنا بحفاوة، وقدَّمني رئيسُ الجمعيّة إلى ضيوفِه الآخرين باهتمام، متحدِّثا عنّي وعن بلدي، وعَدّني ضيف شرف السهرة، وطلبوا منّي أنْ أقوم بتقطيع قالب الكاتو. كانت معه صبيّة، اسمها ماريا، تشتغل كمساعدة معه، أتضايقُ لأنّني لا أذكر اسمه، لم يكن أحدٌ يناديه باسمه، كانوا يدعونه بالبوس، أي المعلّم، لهذا لم يَعلَق اسمُهُ في ذاكرتي.

سكرتُ في تلك الليلة، كما لم يحدث لي في حياتي، لا أعرف لماذا فعلتُ هذا؟ هل كنتُ سعيداً؟ هل كنتُ أحاول التّخلّص من التّوتّر الذي أعيشه؟ هل كنتُ أسايرُ مضيفيّ، فأشرب مثلهم، وأُظهِرُ لهم سعادتي؟ لا أعرف، لكنّني ثملتُ بشدّة، وصرتُ أحسّ أنّ الأرض ترقص تحت قَدَمَيّ، وكنتُ أضحكُ بهستيريا، وأراقصُ البنات، كانوا مندهشين منّي، إذ كنتُ السوريّ الوحيد بينهم، وعاملُوني بفرح وحفاوة.

لكنّ تلك السعادة لم تدمْ، فأنا أحمق كبير. ذات يوم ذَهَبْتُ لجَلْب الطعام من الجمعيّة، وكانت الوجبة عبارة عن شوربة، وأنا كالحمار أذهب

وحدي، وأتنطّع للعمل، فأحمّل الوجبات داخل العربة، وأنزل بها درج الجمعيّة التي تقع في الطابق الأوّل، ثمّ أقطع الطريق حتّى الفندق، وأنا أدفع عربة الطعام في الشارع. بل كنتُ أساعد، أحياناً، في الطهي في المطبخ، وفي تغليف الوجبات، إذ كنتُ أشعر بالحَرَج، أنّهم يعملون من أجلنا نحن اللاجئين.

في ذلك اليوم، ذَهَبْتُ بالطعام كالعادة إلى الفندق، وقد أقنعتُ ريموندا بأنْ تفتحَ لنا صالة المطعم المغلقة في الفندق، ليتناول فيها النزلاء السوريون وجبةَ الغداء، بدلاً من البقاء في الغرف، ووعدتُها أنْ نقوم بترتيب المطعم وتنظيفه بعد كلّ وجبة. ولأنّ ريموندا فتاة رائعة، قبلت أنْ تفعلَ هذا على مسؤوليّتها، صرتُ أفتح المطعمَ على مسؤوليّتي في الساعة الواحدة، وأُوزِّع الوجبات على اللاجئين. كانوا ينتهون من الطعام، ويتركون كلّ شيء، ويغادرون، فأبقى أنا حتّى آخر لحظة، أجمع بقايا الطعام، وأُنظّف الطاولات.

كانت بعض السّيّدات يتطوّعنَ لمساعدتي من وقت لآخر، كأمّ فراس، وهي فلسطينيّة من سكّان مخيّم اليرموك، كانت مع كنّتها. كانتا تبقيان معي لمساعدتي في التنظيف، وترتيب الطاولات والكراسي، كنتُ أكنّ لها مودّة كبيرة، فهي سيّدة طيّبة جدّاً، ولطيفة، كانت تدخّن النارجيلة، وتدعوني لأدخّن معها. وكذلك تطوّعتْ ميساء، وهي معلّمة لغة إنكليزيّة، ولاجئة معنا في المجموعة، وجاءت تساعدنا. ومرّة جاءت صفاء، وبعض الشباب كانوا يتطوّعون من وقت لآخر، لكنّني كنتُ المسؤول عن كلّ شيء، منذ لحظة خروج العربة بالوجبات من مقرّ الجمعيّة حتّى عودتها فارغة إلى المقرّ ذاته.

ذات يوم، إذنْ، يوم الشوربة، تشاجرتْ مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين (وهم قادمون من سورية) مع اللاجئين السوريين، وتحوّل

الشجار إلى عنف لفظي، ثمّ راحوا يدلقون أطباق الشوربة على بعضهم، وعمّت الفوضى، واتّسخت الأرضيّة وجدران المطعم، وفَقَدَتْ ريموندا صوابها حين شاهدتْ ذلك المنظرَ، وهدّدتْ بالاتّصال بالشرطة، وصارتْ تصرخ: لقد خربتُم الفندق!

تجمّعت جميع النساء اللاجئات معنا، وقرّرنَ العملَ معاً لتنظيف المكان، وإعادته كما كان. أمّا أنا، فكان عليّ العودة بالعربة إلى الجمعيّة، حيث ينتظرون منّي إعادتها بعد ساعة تقريباً من مغادرة المقرّ.

ذَهَبْتُ إلى الجمعيّة، ولم أكنْ منتبهاً إلى شكلي، وحين وَصَلْتُ اندهش رئيس الجمعيّة من منظري، كانت ملابسي وشعري ملوَّثَيْن بالشوربة. طار صواب الرجل حين عرف الموضوع، وغضب كثيراً، وقال لي معتذراً عن قسوة كلامه: أنا آسف، لكنّ هؤلاء بهائم، أنت تعمل وتذهب لهم بالطعام، وهم يرمونكَ به؟

اتّصلتْ ريموندا به، ومن السهل طبعاً الحصول على رَقْمه، وطلبتْ منه التّوقّف عن إرسال الطعام، وقالتْ له: إنّها ستطلب الشرطة، وتطرد هؤلاء الذين خرّبوا المطعم.

قال لي: أنتَ، لا تستحقّ أنْ أحرمَكَ من حقِّكَ في الطعام، بسببهم. أنت تأتي وحدَكَ، تأكلُ وتشربُ وتفعلُ ما تريدُ، وتستحمّ. أتوني بملابس نظيفة، ودعوني للاستحمام، وقدّموا لي طعاماً جديداً، لأنّني لم أتناولْ طعامي يومها.

حاولتُ كثيراً أنْ أعودَ لما سبق، وأجيء بالطعام فقط من أجل الأطفال، على الأقلّ، ولكنْ، كان ذلك محالاً.

لم تكن تلك الجمعيّة هي المصدر الوحيد لتوزيع الطعام على اللاجئين،

هناك عدّة أماكن، منها كنيسة تبعد قليلاً عن الفندق، ذَهَبْتُ إليها، وكان الناس يصطفّون على الطابور بالمئات. وتحدّثتُ إلى القسّ، بأنّنا مجموعة من السوريين اللاجئين، وطلبتُ منه أنْ آخذ الوجبات لشركائي هناك، فَرَفَضَ، قال لي: مَنْ يُرِدِ الطعام، فليأتِ بنفسِهِ، ويقفُ في الطابور، مثل الآخرين.

أعترف أنّ الطعام الذي كنّا نحصل عليه من الجمعيّة لم يكن كافياً ليوم كامل، وحسب الإمكانيّات الماليّة للاجئين، كانوا يشترون الفطائر أو الطعام على نفقاتهم الشخصيّة.

ظلّ الأمر هكذا، وحُرِمَ أغلب الباقين في الفندق، من مجموعة اللاجئين المُنتظرين لقرارات الترحيل إلى أوربا، إلى أن اقتربَ موعد رحيلي، وحصلتُ على البسبور، فغادرتُ اليونان متّجهاً إلى السويد.

برميلُ المازوتِ

يا إلهي! تكتبين أنّ حسام ظلّ أربعين يوماً تقريباً دون استحمام في اليونان؟ إنّه لم يغيّر ملابسه حتّى؟ كاد يتعفّن من إحساسه بالوسخ. ولماذا؟ ألا يستطيع العثور على حمّام عامّ، يدفع بعض المال، ليستحمّ؟ ليس لديه مال؟ حتّى هذه الدرجة حوّلتنا الحربُ إلى متشرّدين وَسِخِين؟

كان حسام مُرفَّهاً هنا في الحرب، كان يستحمّ مرَّتَيْن على الأقلّ في الأسبوع، رغم شحّ الماء والمازوت، لقد ملأتُ برميل المازوت، دفعتُ نصف المبلغ الذي أرسلتِه لي، لأملأ المازوت. أنا لا أحتمل الاستحمام بالماء البارد في الشتاء، المسكينة سُها انقطعَ عندها الماء ثلاثة أسابيع، كانت تُسخِّن الماء في طنجرة، وتدخل بها إلى الحمّام البارد، لتدلقَ بعض الماء على جسمها، والجارات كنّ يبكينَ بحرقة، حين يداهمهنّ الطَّمْثُ، ولا يتمكّنّ من الاغتسال جيّداً، كنّا نقتّر باستعمال الماء، ولكنّني كما حدّثتُكِ عن الخزّان الذي جَلَبَهُ حسام، وكان يملؤه دائماً بماء، يأتيه من الجوامع.

سُها كانت تبكي على الهاتف، وكانت مكتئبة، بسبب عدم الاغتسال الجيّد، تقول: أدلقُ عدّة طاسات دافئة على جسمي، ولا أتمكّن من فَرْكِ جسمي بالصابون، لأنّ الماء لا يكفي، خائفةٌ أنْ أقمِّلَ! دعوتُها لتأتي وتستحمّ عندي .. بيدونة المازوت التي أملؤها للحمّام، تكفيني أكثر من شهر، فأنا أُشعل الحمّام نصف ساعة على الأكثر، تكفيني طيلة الأسبوع، وجاءت سُها، رغم أخطار الطريق، جاءتْ من حيّ الميريديان إلى

الخالديّة، لتستحمّ. أشعلتُ لها الحمّام على المازوت، وكان منظر النار داخل الموقد يشرح القلب في الشتاء. قلّة هي البيوت التي تُطَقْطِقُ فيها النار في مواقد الحمّامات، نحن الفقراء لسنا كأولئكَ الأثرياء الذين لا يهمّهم إنفاق المازوت.

أهل الحارة لبعضهم في الحرب. أمّ رامي أيضاً تأتي لتستحمّ عندي، وأوصيها أنْ تنتبه على الماء، حتّى لا يفرغ الخزّان. ولا سيما بعد رحيل حسام، صار أولاد الحارة يجلبون لي الماء ببراميل صغيرة، يضعونها في أرض الدار، وأصبح خزّاني فارغاً. لا أحد يستطيع الصعود حتّى السطح، وإفراغ الماء في الخزّان. كانت هذه مهمّة حسام، وبعده صار خزّاني يصفّر من الفراغ. ولكنْ، لا بأس، أحمد الله أنّ أولاد الحارة طيّبون، ولم يقطعوني. كانوا يملؤون الماء من الجامع، أو الحديقة، ويأتونني ببعضه، ولكنْ، بصراحة، برميل المازوت الذي كان فوق على البلكون، قبالة غرفة حسام كان كلّ ثروتي، تعلّقتُ به، تماماً كتعلُّقي بالأمبير، لم يكن يهمّني أنْ آكل أو أشرب، كلّ همّي كان الاستحمام بماء ساخن، ومشاهدة المسلسلات التركيّة التي أتسلّى بها عن أصوات القصف، وأخبار الموت. حتّى الهاتف لا يهمّني، ولا سيما أنّ لديكم أرقام البنات ورَقْم أمّ رامي وأمّ المجد، إذا تعطّلت الشبكة، وهذا ما كان يحدث كثيراً، تتّصلون عبر الإنترنت، بالواتس آب بجاراتي، لتطمئنّوا على أخباري، وهنّ يسجّلنَ صوتي عندهنّ، ليرسلنَ إليكم رسائلي.

مصائرُ الأصدقاءِ

كلّ واحد فينا صار في بلد، ليست لديّ معلومات عن الجميع، هناك مَن اختفى تماماً، وفقدتُ أخبارَهُ. أعرف أنّ فوّاز جاء إلى السويد، وتمّ رَفْض لجوئه، ثمّ ذَهَبَ إلى ألمانيا. وأنّ أبا جرّاح ذَهَبَ إلى ألمانيا بعد رَفْض السويد، وتمّ رَفْضُه أيضاً من الألمان، فعاد إلى اليونان، وهو حاليّاً في تركيا، في أورفا، يعيش مع عائلته التي استقدمَها من سورية، وسيم ذَهَبَ إلى بلجيكا، وأيضاً رُفِضَ لجوؤه، وذَهَبَ إلى السويد، ومجدّداً تمّ رَفْضه، وهو الآن في ألمانيا، ينتظر قرار الحكومة الألمانيّة.

الطَّرْدُ من السّويدِ

مزارعُ البقرِ

بعد مضي أكثر من عام، ورغم تكرّر طَلَبَاتي لنَقْلي من الكامب إلى مكان آخر، حيث أصبحتْ حياتي في الكامب مستحيلةً، وكانت الشجارات الدائمة المترافقة بالعنف تُخيفني.

جلستُ في الكامب سنة و٤ شهور، احتججتُ مئات المرّات على سوء وَضْعي، وطالبتُ بنَقْلي دون فائدة.

الكامب معزول عن البلدة، ليس هناك إمكانيّة للنقل والذهاب للتّسوّق، فالمال الذي نحصل عليه لا يكفي للمواصلات.

الحياةُ في الكامب تشبهُ المعتقلات، اللاجئون يتصرّفون كالمساجين الذين كنّا نراهم في الأفلام الأميركيّة: السجن عالمٌ قائمٌ بذاته، لا ينتمي إلى قانون البلد، وهكذا الكامب، فوضى وتصرّفات فَرْديّة، مثلاً، يخطر لأحد المقيمين معي في الغرفة نفسها أنْ يضع الموسيقا في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، بينما أكون متعباً، وأحتاج للنوم، وحين أطلب منه التّوقّف عن هذا، يشتمني، ويقول لي: إنّه حُرّ، ويفعل ما يريد. فعلاً هو حُرّ، يمكنه إزعاجي، ولا أستطيع مَنْعه، فليس هناك قوانين أو ضوابط للنوم أو للتّحرّك ،أو حتّى قواعد احترام النظافة ..

مثال آخر، حين اضطُررتُ لاستدعاء البوليس، بسبب حالة النظافة في الغرفة، شريكي في الغرفة يرمي الأوساخَ على الأرض، ويجمعُها تحت

السرير، بينما أقومُ بالتنظيف، لا يحترم هو المكان الذي نقيم فيه، كأنّنا في حظيرة، طالبتُهُ عدّة مرّات ألا يرمي الوَسَخَ على الأرض، فَشَتَمَني، وكاد يضربني، وحين استدعيتُ البوليس، ليكونوا شهوداً على قذارة المكان غير المحتملة، لم يتمكّن البوليس من اتّخاذ أيّ إجراء عَمَليّ، قالوا لي: معكَ حقّ، لكنّنا لا نستطيع التّدخّل، زَجَرُوهُ فقط، لأنّه وسخ، وهذا كلُّ شيء، لم أحتملْ وساخةَ هذا الشخص، وأنا مَهووسٌ بالنظافة، كنتُ أحاول تحويل الغرفة إلى مكان جميل، لأتمكّن من احتمال الوقت في انتظار إقامتي للانتقال إلى سَكَن مختلف، ولكنّ شريكي في السَّكَن كان يحرمني من هناءة بقاء الغرفة نظيفة ..

لم يكن لديّ أيّ مساحة حُرّيّة خاصّة بي، ليس هناك مثلاً خزائن ثياب خاصّة بكلّ منّا، بل يحقّ لأيّ شخص استعمال أيّ شيء، الفوضى قاتلة، هناك مَنْ ينام في النهار، ثمّ يفيق في الليل، ليسهر، ويُحدث الضجيج، بينما أكون أنا في وقت نومي وراحتي ..

كان الأمر يُسبّب لي التّوتّر العَصَبيّ طيلة الوقت، وتقدّمتُ بشروحات كتابيّة وشفويّة للمسؤولين عن الكامب، أعلنُ احتجاجي وعدم راحتي في المكان، ولكنّ أحداً لم يهتمّ.

تحوّل الكامب إلى مركز لبَيْع المخدّرات، هذا صادمٌ بالنسبة لي، ولكنّه حَدَثَ. كان البوليس، ولا سيما في الآونة الأخيرة، يداهم الكامبَ مرّتَيْن في الأسبوع، على الأقلّ، مصحوباً بكلاب وسيّارات مُدجّجة، ويقومون بتفتيش الغرف، كنتُ أشعر بالتّوتّر طيلة الوقت، والخوف أيضاً، كأنّني أعيش داخل عصابات، هناك الكثير من الأجواء الإجراميّة في الكامب، نعم، ثمّة شروع بالقتل، ثمّة مشاجرات عنيفة، قد تؤدّي إلى الموت، هناك تحرّشات جنسيّة، اغتصابات، اعتداء بالضرب، سرقات، أكثر ما

كنتُ أخافه هو الشجارات في الليل، وكان هناك أمر جديد عليّ كُلّيّاً: المشاجرات الجماعيّة بين المِلَل. مثلاً، كان الأريتيريون يتشاجرون ضدّ العراقيين، ويتناحر الأفغان ضدّ السوريين، والصوماليون ضدّ الأثيوبيين، كأنّنا في عصابات، الكلّ يترصّد للآخر، ويُهدّده.

هل يتخيّل أحد أنّ الفرشة التي حَصَلَتُ عليها منذ وصولي إلى الكامب هي ذاتها، يرفضون تغييرها؟ أكثر من سنة ونصف، وأنا أنام على فرشة من الإسفنج، لا تُريحني، هل لأنّني لاجئ وهارب من الحرب، عليّ أنْ أُعامَل كحيوان أو سجين؟

هذا الوَصْف ينطبق على أغلب اللاجئين السوريين معي، شعورهم بالانهيار النَّفْسيّ، والندم على المجيء إلى السويد، بل كنّا، أحياناً، نتحاور فيما بيننا، ونلعب القرعة، متسائلين: أيّهما أفضل السويد الآن أم بلدنا تحت الحرب؟ كان أغلبنا يشعر بالندم لأنّه جاء، وأنا شخصيّاً كنتُ أفضّل البقاء هناك، والموت بدل الذّلّ هنا، والكلام الآن عن العودة صعبٌ وشائكٌ، أنظر خلفي، إلى كلّ المحطّات التي قطعتُها لأصلَ إلى السويد، وأتساءل: هل كان طريقي يستحقّ هذه المخاطرة؟ عرّضتُ نفسي للموت عدّة مرّات، حالماً بالأمان والاستقرار في السويد، والآن أحلم لو أعود إلى أيّ مكان آخر غير السويد، ولكنْ، لا أعرف أين أذهب؟ تركيا؟ حيث العناء والنوم في مخزن المحلّ، حيث لا حمّام ولا مرحاض، أو حلب، حيث الموت والاعتقال..

حسناً، كنتُ أقول إنّ الوَضْعَ النَّفْسيّ لأغلب اللاجئين معي متقارب، كان أحدنا مستعدّاً للقَتْل، لحَرْق نفسِه، لحَرْق الكامب، تحت تأثير الغضب والقَهْر، حيث انعدام الانضباط، وسيادة الفوضى والمزاجيّات، وكأنّنا في غابة، والكثير من الصدمات، آخرها قرار تعديل الإقامة، من دائمة

إلى مؤقّتة. المتزوِّج منّا ترك زوجتَهُ تحت القصف، ولم يستطعْ جَلْبَهَا، والآن انقطعتْ سُبُلُ التهريب، وبعد أنْ أمضى سنة وأكثر في الانتظار، سيحصل على إقامة، إنْ حَصَلَ، مؤقّتة، لا تكفي للإتيان بزوجته حتّى تنقضي مدّتها، ولا يمكنه كذلك إرسال المال لها، لمساعدتها، فالمال هنا لا يكفي أحدَنا وحده، وما من وسلة قانونيّة لِلَمِّ الشَّمْل قبل الحصول على الإقامة، أي أنّ كلَّ الطُّرُق مُغلَقة، اليأس يتسبّب هنا بالانحدار النَّفْسيّ، والتّحوّل إلى الإجرام، بسبب فقدان الأمل، والشعور بالذنب، والخوف على العائلات هناك ..

حسناً، بعد كلّ هذه الجحيم في الكامب، خفتُ على نفسي، الكثير من الطاقة السلبيّة والإحباط، والشروط المناسبة لخَلْق جرائم، تخرج منها قاتلاً أو مقتولاً، لهذا غامرتُ بتَرْكِ الأمان الصغير بالحصول على الفراش والنوم هنا، للمغادرة، والإقامة على نفقتي، وسأحدِّثك لاحقاً عن الشروع بالقتل الذي تعرّض له صديقي خالد بعد مغادرتي، وكاد يفارق الحياة، لولا مصادفة، أنقذتْه، وتمكّن من الوصول إلى المشفى، لينجو من الموت.

Falkenberg أو صقرُ الجبلِ

أُقيم في قرية اسمها (سلوينج(*))، التابعة لمدينة فالكنبيري التي صارت سيّئة السمعة، مثل مالمو.

مالمو الآن مدينة تكاد تكون خارج سيطرة الحكومة السويديّة: مافيات من المهرّبين ومتعاطي المخدّرات ..

الشعب السويديّ شعبٌ مسالمٌ، لم يعتدْ على العنف. أسمعُ قصصاً تحدُثُ لأصدقائي في ألمانيا، مثلاً إذا تحرّش شابّ هناك بفتاة، تضربُهُ. الألمان عنيفون قليلاً، وصارمون، لكنّ السويديين هادئون وطيّبون للغاية. إذا وَضَعَ سويديّ عَجَلَتَهُ، وجاء أحدهم (غالباً من الأجانب) لسرقة العجلة أمام عين صاحبها، يحاول السويديّ مناقشتَهُ ومحاورتَهُ بهدوء: هذه عَجَلَتي، فلماذا تعتدي على أملاكي؟ السويديّ لا يردّ بالضرب الجسديّ، لم يَعْتَدْ على العنف، لهذا فاجأ العنفُ السويديين.

سأعترف لكِ الآن، لماذا تركتُ الكامب؟

سبق أنْ حكيتُ لكِ قصصاً كثيرة عن عدم اندماجي، حدّثتُكِ عن محمّد عابدين، السوريّ من تادف، كان شريكي في الغرفة، في الأيّام الأولى لوصولي إلى الكامب، وكان من الإخوان المسلمين المتشدّدين، كان محمّد مَنفيّاً وهارباً من النظام منذ الثمانينيّات، وجاء في الآونة الأخيرة إلى

(* slöinge

السويد، وكان بداية الصدام بيني وبين المقيمين في الكامب، مع محمّد. كنتُ قادماً بأفكار الثورة العلمانيّة، ونجوم العلم الأخضر الذي يسمّيه محمّد وصحبه بالراية العمياء، ولا يؤمنون بقِيَم الثورة، بل يطمحون إلى إقامة الخلافة وتطبيق شرع الله، تركتُ الغرفة له، وذَهَبْتُ أقيمُ في غرفة أخرى.

وجدتني مع أبو حمزة (سفيان الزعبي)، وهو أيضاً متشدّد دينيّاً، حَصَلَ مثلاً حين كنتُ نائماً، فَفَتَحَ الثلاجة، ووَجَدَ علبةَ بيرة، وضعتُها بالأمس، فرماها. وحين استيقظتُ، سألتُه، فقال: إنّ البيرة حرام. قلتُ له: أنتَ في السويد، وهنا المشروب ليس محرّماً، لماذا لا تذهبُ إلى السعوديّة؟ أنا من حقّي أنْ أشربَ، لا يمكنكَ أنْ تفرضَ قناعاتِكَ عليّ، نحن في بلد الحُرّيّات الدّينيّة، أيضاً صعبَ عليّ التفاهم معه، وتركتُ له الغرفة.

تذكرين عرفات، الشّابّ الصوماليّ، الذي استدعى الشرطة ليُريهم فوارغ زجاجات الفودكا. كان يترك حنفيّة الماء مفتوحةً، ويذهب إلى التواليت، ويترك أوساخه، ويدخل بحذائه المتّسخ إلى الغرفة، وأنا مَهووس بالنظافة والترتيب. وقال للشرطة: أنا مسلمٌ، وأرفض أنْ يشرب حسام أمامي!

كثيرةٌ هي القصص التي أتعبَتْني، لكنّني الآن سأحكي لكِ عن القصّة التي يمكن وَصْفُهَا بالشعرة التي قَصَمَتْ ظهرَ البعير، والتي أجبرتْني على مغادرة الكامب، خوفاً على سلامتي.

حكايةُ إلهام والزعرانِ

يقول لي: إلهام سيّدة فلسطينيّة من غزّة. عمرها حوالي خمس وثلاثين سنة، ولديها ثلاثة أطفال. وحدها في الكامب، أي دون أهل أو زوج، فقط مع أولادها، يقيمون معاً في غرفة واحدة. إلهام جميلة وجذّابة، وتلفتُ النَّظَرَ. أخذتْ مجموعة من الشباب بمُطاردتها، والتّحرّش بها. ولكنّها قامتْ بصَدّهم، يقول لي: علاقتي بها طيّبة، نحتسي القهوة معاً أحياناً، ونثرثر، أشعر معها بالراحة، ومن المحال التّحدّث عن سوء أخلاقها، كما ادّعى الشباب، لأنّها تنام مع أولادها في الغرفة نفسها، أي يصعب كثيراً أنْ تستقبلَ رجلاً، وتقيمَ معه علاقة أمام أولادها. أغلب الشباب قادمون من مناطق مكبوتة، ولم يحتكّوا بالنساء عن قُرب، لهذا قامت قيامتهم حتّى يحصلوا عليها جنسيّاً. بصراحة، شكلُها يوحي، أحياناً، بأنّها امرأة لعوب، لكنّني لم ألحظْ عليها أيّ شيء. مجموعة الشباب هذه لم تكفّ عن مطاردتها، ثمّ حاولوا لمسَها، فَصَرَخَتْ، وشَتَمَتْهُم، فقاموا بضَرْبِها.

يقول حسام مصدوماً: لم أُصدِّق أنْ تُضرَب امرأةٌ في السويد على الملأ. أنا لم أكنْ موجوداً، كنتُ خارج الكامب، حين عدتُ، وحكى لي باقي المقيمين هناك ما حَدَثَ، طار صوابي. حدَّثوني كيف انهال عليها الشباب بالضرب والركل، وتخميش وجهها، وشدّها من شعرها، وتمزيق ثيابها، مجموعة شباب يضربون امرأة وحيدة أمام أولادها، ولا أحد يتدخّل، الكلّ يخاف منهم.

كان يوماً دمويّاً في الكامب، ذُهل الجميعُ ممّا رأوه، ولم يتمكّنوا من التّدخّل لإنقاذ السّيّدة من بين أيديهم ..

ابنتها الصغيرة تتحدّث السويديّة، على الأغلب يخضعُ الأطفال لدورات لغة، اتّصلت الأمّ بالبوليس، وجعلتْ ابنتها تحكي لهم على الهاتف ما حَصَلَ، فجاءت الشرطة، وسَحَبَت الشبابَ بطريقة مُهينة لهم.

عند الشرطة، أنكر جميع الشباب ما فَعَلُوه، وقالوا: إنّها خَدَشَتْ وجهها، ومَزَّقَتْ ثيابها، وضَرَبَتْ نفسَها بنفسِها حتّى تتّهمهم بهذا.

طالبت الشرطة بالشهود، هناك حوالي مئتا شخص شهدوا الحادثةَ، لم يذهبْ للشهادة سوى شخص واحد، وَصَلَتْ تهديدات إلى الجميع، إنْ فكّر أحد بالشهادة لصالح إلهام، فسيتعرّض لأبشع ممّا تعرّضتْ له. لا أحدَ يجرؤ على مخالفتهم، إنّهم يشكّلون سلطة وقوّة مثل المافيات. الشخص الذي ذَهَبَ للإدلاء بشهادة لصالحها، عاد في اليوم التالي لسَحْب شهادته وإنكارِها، بسبب التهديد الذي تعرّض له.

في اليوم التالي، عاد الشباب: عبد الرحمن من درعا الذي كان يقيم في الإمارات، وطُرد منها، بسبب سلوكه وعمله في المخدّرات والسرقة والنهب، فجاء إلى السويد - باسل الغزّاوي - سيركي الأوكراني الذي يبدو كأحد رجال المافيات الذين نراهم في الأفلام، وهو فعلاً سيّئ السمعة والسلوك - حمّودة من دمشق - أبو يزن، أيضاً من درعا، وكان في كتائب المثنى، يدّعي التّديّن، ويمارس سلوكاً متناقضاً مع الدِّين: نساء ودعارة وحشيش ..

عاد جميعُهم بقوّة أكبر، وبزهو وانتصار إلى الكامب، دون أنْ يمضوا أكثر من أربع وعشرين ساعة لدى الشرطة.

صارت المسكينة تشعر بالرعب، حبست نفسها في غرفتها، لم تكن

تجرؤ على الخروج، كانوا يطاردونها، وكانت تخاف أنْ ينفردوا بها، فيضبروها بطريقة أكثر وحشيّة، لأنّها اشتكتهم للبوليس وأهانتهم حين جاء البوليس وسحبهم من غرفهم ورماهم في سيارته.

كنّا اثنَيْن فقط، أنا وأبو راضي، عقيدٌ مُنشقٌّ، وَقَفَ معها، رغم التهديدات التي كانت تصلنا. آخر رسالة وَصَلَتْنا عبر بعض الوسطاء في الكامب: هذه عاهرةٌ، ومَنْ يذهب إليها لا يتوقّع منّا أقلّ من طعنة سكّين.

تحوّلتْ حياتها إلى جحيم، إذا أرادت الخروج من الكامب، فإنّ سائقي السّيّارات المصطفّة أمام الكامب يرفضون أنْ تصعد بسيّاراتهم، حيث وَصَلَتْهم جميعاً تهديدات بحَرْق سيّارة أيّ أحد، يَسمح لها بالصعود في سيّارته.

لم تتمكّن حتّى من الذهاب إلى المطعم، خوفاً منهم ومن بطشهم، ولم يجرؤ أحد على زيارتها حتّى. إذا كانت امرأة قد تعرّضت للضرب المبرح، دون عقاب المعتدين، فكيف يغامر أحد الرجال بهذا؟ سيضربونه، ولن يُعاقَبوا، ويخرجون منها كما خرجوا من قبل ..

صارت المجموعة ذاتها تُقيم أمام غرفتها، يضعون طاولة، ويجلسون أمام بابها، يشربون الشاي، ويُسمِعُونها كلاماً بذيئاً، يخجل الرجال من سماعه، وحتّى أولادها معها، يسمعون تلك الألفاظ النابية ضدّ أمّهم: أيّتها الشرموطة ..

كانوا مجموعة مؤلّفة من عشرة إلى خمسة عشر شخصاً، مثل بائعي الدخان المهرّب في حارات حلب القديمة، حيث شبكات التهريب والبلطجة والزعرنة، دون أنْ يتمكّن أحد من التّصدّي لهم ..

قرّرت المرأةُ مغادرة الكامب، ولكنْ، كان عليها أنْ تفعل هذا بسرّيّة، كي لا يلحقُوها، ويعرفوا عنوانها الجديد.

كنتُ أزورُها أحياناً، وكانتْ تقول لي: أرجوكَ، لا تأتِ، سَيَضْرِبُونَكَ، ويُبَهْدِلُونَكَ. وأنا لم أكنْ أهتمّ، أتخيّل أنّ أختي أو إحدى قريباتي مكانها، هل أتركهنّ؟

وَصَلَتْني رسائل التهديد: إذا اقتربتَ منها، نضربكَ، ونكسر رأسكَ.

فأرسلتُ لهم الجوابَ: أنا شخصٌ فَقَدْتُ كلّ شيء، بيتي وأمّي وأهلي وبلدي، ليس لديّ ما أخسره، إذا لمسني أحدٌ، فسأحرقُه، لستُ إلهام لأشتكي عليهم، وأعرف أنّ لديهم شهوداً جاهزين للشهادة معهم، ضدّي، وسأخسر، لهذا لن أتأخّر عن حَرْق من يؤذيني، ولأذهب بعدها إلى الموت. بعد كلّ ما فَقَدْتُهُ، لن أقبلَ بصفعة واحدة في حياتي، لقد دفعتُ كثيراً، ولن أسكتَ لهؤلاء.

تحوّلت الحكايةُ إلى تَحدٍّ، صاروا يطاردونني، كنتُ أحسّ بهم في كلّ مكان: قرب الغسّالات، في الغابة، ينتظرون الانفراد بي، لضربي ..

لكنّ إلهام حَسَمَت الأمر، وطَلَبَتْ منّي فقط تأمين سيّارة من خارج السّيّارات المصطفّة أمام الكامب ..

غادرتُ وحدي خارج الكامب، في السادسة صباحاً، حيث ينامون حتّى وقت متأخّر، وأوْصَلْتُها حتّى باب الكامب ،حيث تنتظرُها سيّارة الأجرة، وهكذا غادرتْ بأمان.

لكنّهم بدؤوا بمطاردتي، وراحوا يختلقون القصص للشجار معي، كأنّ يقول أحدُهم: إنّني هكّرتُ حسابه على الفيسبوك، ثمّ يدّعي آخر أنّني كَتَبْتُ رسائل عاطفيّة لزوجته،في كلّ يوم، كانوا يجدون سبباً للشجار معي، فقرّرتُ أنا، أيضاً، مغادرة الكامب.

سَكَني الجديدُ

انتقلتُ، إذنْ، للعيش خارج الكامب، في بناية من طابقَيْن، حيث أسكن في القبو، في الطابق الأوّل، فوقي تسكن عائلة ألبانيّة، امرأة وابنتها ليندا في الثامنة عشر من عمرها. الزوج مسجونٌ بتهمة الترويج للمخدّرات، وفي الشقّة المقابلة، تسكن ابنتها الأخرى المتزوّجة من ألبانيّ، يأتي مرّة في العام تقريباً لزيارة زوجته، ويغيب طيلة السنة.

الطابق الذي يليه، يقيم فيه سوريّ من إدلب. البناية هَرَميّة الشكل، أي الطابق الأوّل يحوي شقّتَيْن، والطابق الثاني فيه شقّة واحدة، حيث يقطن محمّد الرّيّا. وهو شرطيّ مرور مُنشقّ عن النظام، وحاصل على الإقامة السويديّة، وينتظر قدوم عائلته للعيش معه.

تعرّفتُ على محمّد، حين انتقلتُ للعيش هنا، ولديه غرفة في القبو.

حين جئتُ إلى هذه البناية، كنتُ متأمّلاً العمل في محلّ البيتزا المتفرّع من البناية، حيث القبو الذي أسكنُ فيه، تابع لمحلّ البيتزا. جئتُ إلى (علي جان) التركيّ الأصل، صاحب المحلّ الذي وَعَدَني بأنْ يُشغّلني لديه، وأعطاني القبو، لأسكنَ فيه. وتقدّمتُ بطلَب للحكومة من أجل الحصول على ترخيص العمل، لكنّهم رفضوني، وكنتُ قد تركتُ الكامب، فاقترح عليّ علي جان أنْ أشتغلَ عنده بالمجان، وأنا لم أفهمْ كيف عليّ أنْ أشتغل دون مقابل، فَرَفَضْتُ، ولكنّني لم أغادر القبو، لا أريدُ العودة إلى الكامب.

رحتُ أنتظر قرار الإقامة، لأتحرّر من القبو، حيث المكان ليس مُعدّاً للسَّكَن، بل فقط لحِفْظ الأغراض والأثاث الفائض، وكما قلتُ من قبل، لا توجد حتّى نافذة للتهوية، يعني أسوأ من السجن، لكنّني لم أملكْ خياراً آخر.

كنتُ أنتظر بفارغ الصبر تلك الدائرة الخضراء: دائرة النجاة.

قد لا يُصَدَّقُ ما أقول، ولكنّني منذ وصولي إلى السويد وخضوعي لأوّل مقابلة، وأنا أفتحُ الإنترنت على موقع الهجرة، وأكتبُ رَقْمي، لأرى تلك الدائرة الخضراء، أفعلُ هذا أربع أو خمس مرّات في اليوم.

كانت الدائرةُ الصفراءُ تظهرُ لي دائماً، أي أنّ القرارَ لم يصدرْ بعدُ. وحدها الدائرةُ الخضراءُ تعني أنّ قراراً صَدَرَ، دون أنْ يعني هذا تأكيد الموافقة على الإقامة، بل قد يعني قرار الرَّفْض، المهمّ أنّ القرار يكون قد صَدَرَ، حين يتحوَّلُ اللونُ الأصفرُ، ليصبحَ أخضرَ.

فجأةً ظهرت الدائرة ..

كان قلبي يخفقُ من الإثارة، وبغتةً حلّقتُ فرحاً، لم تمضِ عليّ دقائق من الفرح، وأنا أحاولُ تصديق أنّني حصلتُ على الإقامة، حين دخل عليّ بُومُ الشؤم علي جان، يُلوِّح لي برسالة الهجرة مبتسماً: رفضوكَ.

ثرتُ عليه، وتشاجرتُ معه: لماذا تفتح بريدي؟ هذا ليس من حقّكَ، كنتُ بحاجة لقليل من الفرح الكاذب، لكنْ، حتّى هذه الأمنيّة حَرَمَني منها نذيرُ الشؤم، حين سَمَحَ لنفسه فَتْحَ الرسالة التي وَصَلَتْني على عنوانه، حيث أقيم، وبرّر لي بأنّني لا أفهمُ اللغة السويديّة، وأنّه قرأها، ليشرحَ لي القرار.

لم يعدْ أمامي أيّ خيار، سأُحضِّرُ حقيبتي.

أغراض السَّكَن التي اشتريتُها على دفعات، وتلك التي مُنِحْتُهَا من المعارف هنا، سأتركُها جميعاً في غرفة القبو لدى محمّد الرّيّا.

قلتُ لمحمّد: إذا عدتُ ذات يوم، أو بقيتُ في السويد ربّما أستعيدُ أغراضي، وإذا غادرتُ، فهي لكَ ..

طاولة المرمر الكبيرة التي أحبّها، سأتركُها. هي ثقيلة، وتحتاج لأكثر من رجل لتحريكها، سأترك الأريكَتَيْن، الكرسيّ البرّام، طاولة الخشب التي أضعُ عليها الطعام، مكنسة الكهرباء، ثلاث سجّادات، أربع بافلات، شوفاج كهربائيّ، وزجاج المطبخ: كاسات ماء وصحون، وسأترك، طبعاً، جهاز التلفزيون ..

لن آخذَ سوى حقيبتي، وأخرجَ بها، لا أعرف إلى أين.

حقيبةُ الرحيلِ

خَرَجَ حسام من حلب بحقيبة سوداء، كانت في الأساس لأخيه الأكبر. يقول لي: لم أعتد السَّفَرَ إلا في أثناء الجيش، حين أعود إلى البيت. هذه هي السَّفرات الوحيدة التي قطعتُها في حياتي: من الجيش إلى البيت، وبالعكس. هذه أوّل مرّة سأغادر فيها حلب في أثناء سَفرات الجيش، كنتُ أعرف أنّني سأعود مجدّداً إلى بيتي، ولكنّ إحساسي كان قاسياً، وأنا أحضّر حقيبة مغادرة حلب. كنتُ واثقاً أنّني لن أعودَ، ولم أكنْ مستعداً نَفْسيّاً لهذا الرحيل، كنتُ خائفاً وقلقاً، وضعتُ بعض الأغراض في الحقيبة: بنطالان، بيجامة ماركة نايك، صفراء وسوداء، منشفة صغيرة أحبّها كثيراً، قميصان داخليّان وكيلوتان، وجرابان ..

أمسَكَني الجيشُ الحُرّ بهذه الحقيبة، واعتُقِلْتُ يومَيْن معها، وأعادُوها إليّ كما هي، حين أفرجوا عنّي. ثمّ صحبتْني الحقيبةُ في المزرعة، وظلّتْ معي، ترافقُني في محطّات السَّفَر والهَرَب، كانت شاهدةً على طريقي من حلب، وأنا أركب من سيّارة سيرفيس لأخرى، ثمّ وأنا أركب خلف المهرِّب على درّاجته الناريّة، ثمّ وأنا أركضُ وهي ترتجُّ فوق كتفي في الأراضي الزراعيّة الفاصلة بين الحدود، حتّى دخلتُ الريحانيّة، وعملتُ مدّة أسبوع تقريباً في الفندق، ثمّ ذَهَبْتُ بها، كما هي إلى إستنبول، موعوداً بعمل، كان الوعد كاذباً، عدتُ وذَهَبْتُ إلى جلال. هناك اشترى لي جلال جاكيتاً، حين غادرتُ حلب لم يكنْ لديّ جاكيت، كنتُ أتنقّل بكنزة فقط، رغم

البرد. وأعطاني أصحابي في غازي عنتاب بعضَ الملابس الفائضة عنهم، فكبرتْ حقيبتي، واشتريتُ حقيبة أخرى.

غادرتُ إلى مرسين بحقيبتَيْن، تركتُهما من أجل الهروب إلى اليونان، حيث ذَهَبْتُ بحقيبة صغيرة جدّاً، فيها فقط قميصان داخليّان وكيلوتان وبيجامة، لكنّها سَقَطَتْ في البحر، ودخلتُ اليونان دون أيّة ملابس، سوى تلك التي أرتديها.

في اليونان، كانت المنظّمات والجمعيّات الخيريّة تأتينا إلى الاعتصام، وتجلبُ الملابسَ، كالصليب والهلال الأحمر. وكذلك أعطاني بعض الأصدقاء ملابسَ فائضة أيضاً. ولكنّي تركتُ كلّ شيء، وزّعتُ الأغراضَ على الذين عرفتُهم هناك، وغادرتُ إلى السويد، أحملُ كنزةً واحدةً وقميصاً داخليّاً وكيلوتاً. في السويد، داخل الكامب، الصليب الأحمر يوزّع الملابس مجانيّاً. حصلتُ على بعض الملابس، وأعطاني أصحابي أيضاً بعضَها الآخر، الآن سأتركُ كلّ شيء، كما يحصل في كلّ مرّة، أتخفّف من أغراضي، سأُوزّع ملابسي، كما حصلتُ عليها من الأصدقاء، ستذهبُ لآخرين..

حقيبة المجهول، حيث لا أعرف أين سأذهب، سأضع فقط منشفة وبيجامة وكنزة صوف وتي شيرت وكيلوتاً ..

الثاني والعشرون من شهر كانون الأوّل:
سقوطُ حلبَ

اليوم خَرَجَ آخرُ شخصٍ من حلب الغربيّة، تقدّمتُ بورقة استئناف لقرار الهجرة الرافض لمَنْحي حقّ الإقامة في السويد.

تتنابُني مشاعر متضاربة، أشعر كأنّني أطوف على طبقات عالية من الثلج، كأنّني أسير في جبال من الثلج، وبينها أبحث عن بيتي.

تذكّرتُ ماكينة الخياطة، ماكينة السينجر الشهيرة التي كانت دائماً في بيتنا منذ ولادتي، أراها أمامي. أعتقد أنّ أبي اشتراها منذ زواجه بأمّي، قبل خمسين عاماً تقريباً ..

كأنّني أبحث عن أغراض بيتِنا المفقود، عن الأغطيةِ المُلوّنة التي كانت أمّي تحرص عليها، ثمّ أنظرُ إلى نشرات الأخبار في جهاز هاتفي المحمول، وأنا أنتظرُ الباص الذي سينقلُني من غوتنبورغ إلى قبوي الصغير، حيث أقيمُ هناك.

أعيش في قبو، سأغادرُه بعد يومَيْن، وبيتي في حلب ضاعَ، وحلب في الأخبار تضيع ..

أخجل من معاناتي أمام معاناة الناس هناك.

أتفرّج على مقطع فيديو عبر الفيسبوك: امرأةٌ مع طفل يبكي، الثلج يتساقط بغزارة في حلب، المرأة تقول باللهجة الحلبيّة: بدنا أكل - بدنا

شرب - بدنا حرامات - بدنا نمشي - خلّونا نمشي، والطفل يبكي من البرد والجوع.

الناس عالقون بانتظار إخراجهم من القسم الخاضع لميلشيات مُرعبة، تتحكّم في مصائرِهم، هنا، في غوتنبورغ لم يسقط الثلج كثيراً بعد.

يصلُ الباصُ، أصعدُ، وأجلسُ، ثمّ أتابعُ قراءة الأخبار.

أحرقت الفصائلُ الباصات الخضر المتواجدة في الفوعا وكفريا، الباصات التي سيخرج عبرها الرهائن من هناك، مقابل خروج المحاصرين من حلب. هذا يعني عرقلة خروج الناس ..

أنا في الباص الفضّيّ والأزرق في غوتنبورغ. أشعرُ بالدفء. كدتُ أتجمّد من البرد قبل لحظات، بانتظار وصول الباص، اختبأتُ في كابينة الهاتف، لأحميَ نفسي من البرد. وهناك، في حلب، الجرحى والنساء والأطفال ينامون في العراء، بانتظار الخروج من المدينة التي يحكمها الموت.

رجالٌ يبكون بحرقة، قالوا: إنّهم وَصَلُوا إلى معبر الراموسة، ثمّ أطلقت الفصائل الرصاصَ، فأُعيدَت الباصاتُ إلى الداخل، تمّتْ تصفية ثلاثة أشخاص بدم بارد، أمام عين الركّاب، والباقون يشعرون بالخوف ..

سأعود إلى قبوي، وأجهِّز أغراضي للرحيل.

لم يبقَ لديّ المال للبقاء هنا، سأعود إلى الكامب، بانتظار قرار الرَّفْض على الأغلب. فالسويديون يميلون دائماً لتطبيق القانون وفقاً لمصالحهم ضدّ الأغراب.

الحَكيُ الجميل عن الحقوق هو مجرّد شعارات، السّيّدة التي استدعتْني للاستفسار عن بصمتي في اليونان، ماري لويز أندرسون، تحدَّثتْ إليّ

بلُطف كبير، وأحسستُ أنّها تتفهّمني. كدتُ أعانقُها وأنا أغادرُها، مؤمناً أنّها ستمنحُني الإقامة، حين وَصَلَ القرار في اليوم التالي، تخيّلتُ، أنّه في اللحظة التي كنتُ أتمنّى معانقَتَهَا امتناناً لتفهُّمها ولُطفها، كانت تصافحُني، لتكتبَ رأيها بالرفض، رأيها الذي سيُتّخذ القرار من دائرة الهجرة، وفقاً له.

ثلجٌ في حلبَ

اليوم نزلْنا ولعبْنا بالثلج.

لم نشعرْ بالأمان قبل اليوم، لن نسمعَ بعد الآن أصوات إطلاق النار، ولا قذائفهم.

تخلّصتْ حلبُ اليومَ من الحرب، عادتْ إلينا حلب، طهّرها الرئيس من الإرهابيين، حلب اليوم تتألّقُ وتفرحُ.

تحرّرتْ، إذنْ، وسَقَطَ الثلج، ولعبْنا، الأبيض يغطّي الجدران المثقوبة بالرصاص، وتبدو أنقاض البيوت جميلة، وهي مَكْسُوّة بالثلج الذي يخفي قبحَ الحرب.

البيتُ المُستعادُ

سَقَطَت حلب، يا مها، وأنا عدتُ إلى البيت.

لم نعدْ نعرفُ عدوَّنا من صديقنا، النظام يراني كبيئة حاضنة للإرهاب، والمعارضة المسلّحة سَطَتْ على بيتي، وطَرَدَتْني.

تشرّدتُ، يا مها، صرتُ أنام في بيت أولاد إخوتي الذين هم بدورهم نزحوا من بيوتهم، صرنا ننام في المحلات التي يشتغلون فيها، المحلات غير المُهيّأة للنوم. لا حمّامات ولا مراحيض، أنا بنت العزّ، حيث بيتُنا الكبير كقصر في باب الحديد، وحيث الغرفُ الكثيرة، والفرش الهائل، وعدّة حمّامات ومراحيض، أخرج من المكتب الذي تنام فيه العائلة، حيث نفرش على الأرض البطّانيّات والفرشات الرقيقة، فأحاول التّسكّع في النهار، في الحدائق والحارات، كي لا أبقى سجينةَ المكتب التابع للورشة، وجهي بوجه أهلي الكئيبين الذين لا يكفّون عن التّذمّر والشجار فيما بينهم، بسبب ضيق الحال والمكان.

فقدتُ عملي بسبب الحرب، وها أنا أكتبُ لكِ، أفكّر بكِ، أنتِ نجوتِ، يا مها، نجوتِ من الحرب، ومن عقليّة الناس هنا، حيث الجميعُ يحكم على الجميع، ويُحاكمه، ويبيحُ دمَه، أنتِ تكتبين الآن، أحسدُكِ، أنتِ فَلَحْتِ حقّاً، أنا أكَلَتْني الحياةُ، كنتُ ألومُكِ، وأقول كيف تتركين بلادكِ، وتذهبين إلى بلاد الأجانب؟ اليوم أغبطُكِ، لقد اختصرتِ الطريق.

تخيّلي أنّ النظام يحاربُنا في لقمة عيشنا وحياتنا، لأنّه يعدّنا بيئةً إرهابيّةً.

أنا بيئةٌ حاضنةٌ للإرهاب؟!

هكذا يراني الآخرون ربّما، حسبما يُشيع عنّا النظام، ويُصدِّقه الموالون.

الموالون ليسوا فقط أولئك السوريين، أو القسم من السوريين الذي يتبع رؤية النظام، ويتشكّل وعيه من إعلام النظام ومنهاجه الداخلي لتخريب العقول والنفوس والبيوت.

تخيّلي أنّني بيئةٌ حاضنةٌ للإرهاب! نحن اللواتي بدأنَ ثورتَنا باكراً، وتشهدُ علينا حيطان صالة معاوية في الجميليّة.

من أين جئْنا بتلك التسمية؟ أظنّ أنّنا كنّا تحت تأثير الشعارات الحزبيّة. اخترنا عنواناً يمثّل جنونَنا، وقرّرنا التّصدّي للمجتمع العاقل الرصين، والصمود في وجهه. اخترنا عنواناً لنا، يبدو من الخارج متماهياً مع المنهاج الداخليّ لحزب البعث الذي تربّينا عنوة في صفوفه، وحُوصرنا بشعاراته. ولكنْ، لنُحلّل العنوان، أو الشعار الذي تبنّيناه: كان ضدّ الحزب نفسه.

شلّة الصمود والتّصدّي، هكذا اخترنا اسمَنا، أفاقَ مدير صالة معاوية في اليوم التالي، حين جاء إلى الصالة، وفَقَدَ عقلَهُ وهو يقرأ توقيعَنا على جدران الصالة، ولا سيما ذلك التوقيع الفاقع، على جدار الدرج الفاصل بين الطابقَيْن، حيث كنّا نزور مكتب الأستاذ نادر، المخرج الذي آمنتِ أنّه سيصنعُ منكِ ساره برنار. هناك، كَتَبْتُ أنا بالخطّ العريض المائل بموازاة الدرج: شلّة الصمود والتّصدّي ..

بقيتْ شعاراتُنا طويلاً على الجدران، كان سيُكلّفهم طلاؤها، وتعرفين البيروقراطيّة، والحاجة إلى الموازنة المسبقَة للموافقة على نفقات طارئة،

لهذا صمدتْ شعاراتنا التي ملأنا بها الصالة، وجدران الحارة، بين ثانويّة التجارة الملاصقة لثانويّة الفنون، حيث كنّا نهرب من الباب الداخليّ المشترك والفاصل بين الثانويَّتَيْن، ونغارُ من حُرّيّة بنات الفنون، حيث تُشدِّد الإدارة في ثانويّتنا الرقابةَ على التّحرّك، كنّا نتسلّل من الباب الفاصل، إذنْ، ونرشو أبا هاني أحياناً، ليسكتَ، ويغضّ النَّظَرَ عنّا، ثمّ نخرج بثقة من باب الفنون، وكأنّنا طالباتٌ في تلك المدرسة ..

ملأنا الجدرانَ من باب الثانويّة حتّى صالة معاوية، ووقَّعْنا بحروف أسمائنا الثلاثة: راء - راء - ميم، نعم، جعلنا الراء يتكرّر، كما كنّا نسير، حافظْنا على التسلسل، إذ تسير رانيا في الوسط، وأتأبّط ذراعها من اليمين، وتضحكان عليّ، لأنّني اخترعتُ التسلسل وتشبّثتُ به: يختلّ توازني، إنْ لم أمشِ على اليمين! كان لك اليسار، إذنْ، وكنتِ تتبجّحين بميولكِ اليساريّة ..

لم تكنْ لنا مواقف سياسيّة، كنّا متمرّدات على كلّ شيء، بل أستطيع وصفَنا بالبوهيميّات، ولكنْ، بتحفّظ، لأنّ تمرّدنا كان خجولاً، إنْ قسناه بالخبرات التي قرأنا عنها لاحقاً، لدى بنات الغرب ..

كنّا محافظاتٍ، ولم يكنْ لدينا علاقات غراميّة، كانت ثورتنا لنا، ضمن محيط البنات، ثائرات ضدّ التقاليد وضدّ البنات اللواتي كنّ يحاولنَ رَبْطَنَا بالحظيرة الأخلاقيّة ..

تمرّدْنا، واشتريْنا الكُتُبَ بالتقسيط، وتبادلْناها بيننا ..

كانت كلّ منّا تخرج لأوّل مرّة في حياتها إلى حارة، تسكن فيها الأخرى، لم تذهبي يوماً إلى سيف الدولة، لولا رانيا، وتماماً، لولاي، ما جئتِ يوماً لتدخلي تلك البيوت الغريبة عليكِ، والتي أذهلتْكِ، في حارتنا، في قارلالق التابعة لباب الحديد.

أمّا أنا، فلم أتخيّل يوماً أنّني سأدخل بيتاً كرديّاً، في حارة تتبع للعشوائيّات آنذاك، نعم؛ الآن، صارت الحارة معروفة وأنيقة، وتأتيها كبار الشخصيّات، نعم، التقيتُ بميّادة حناوي ذات مرّة في حارتكِ، كانت تشتري الخضار من عند يحيا كرديّة ..

أنا، أيضاً، سَحَرَتْني حارتُكم، على عكس بيوتنا المغلقة بصرامة، كانت بيوت حارتكم مفتوحة، نحن نُغلقُ الأبواب، ونضعُ ستائرَ داخليّة خلف الباب، حرصاً على عدم وقوع مفاجأة من قبيل أنْ يدخلَ أحدُ أهل البيت أو الضيوف، في لحظة، يصادف فيها مرور رجل غريب، يرانا من خلف الباب، أمّا في حارتكم، فالأبوابُ مُشرّعة، وأمّكِ تجلس أمام الباب، على المصطبة، تجمع حولها الجارات ..

عندنا لا يرى الرجال وجوه الجارات ..

وقعتُ في غرام حارتكم، ووقعتِ في غرام حارتي ..

كنتِ تشهقين وأنت تمشين معي ومع رانيا في تلك الزواريب الضّيّقة، ونتّجه صوب القلعة مشياً على الأقدام .. منتشياتٍ بتبادُل الاكتشافات عن حاراتنا وبيوتنا وأهلنا ..

أنا بيئةٌ حاضنة للإرهاب، إذنْ، بعد كلّ تمرّدنا! بعد إعلاننا لثورة إلحادنا، وشجارنا مع البنات المتديّنات في الصّفّ، كنّا مجنونات إلى حدّ كبير، وكنّا وحيدات في ثورتنا، دون مرجعيّات، ودون دَعْم، سوى تشجيع بعض الأساتذة، كماهر الذي ترفضين الحديث عنه، لأنّه خذلَكِ، وتمسّكَ بالبعث الذي ينتمي إليه، أكثر ممّا انتمى للحُرّيّة التي كان يخدعُنا لسنواتٍ، وهو يُنظّر لنا عنها ..

حين قامت الثورة، كنتِ في باريس، وأنا هنا في قلب حلب، في حلب العتيقة، العريقة.

هل تعرفين مَنْ قام بالثورة؟ لن أُنَظِّرَ عليكِ، سأُحدِّثُكِ من خبرتي. أولاد العائلة عندي، أولاد إخوتي وبناتهم، أغلبهم ذَهَبَ صوب الثورة. أبطال، والله، يا مها، شباب وشابّات طيّبون مثلما كنّا، تاقوا للعدالة، وللحُرّيّة.

كانت شهوراً مدهشة، يا مها، رأيتُكِ على تلفزيون الجزيرة، بعد سنوات طويلة من فراقنا، وخَفَقَ قلبي من الفرح. إنّنا معاً، نمشي في الخطّ ذاته، رغم فراقنا الذي فرضتْهُ الحياة.

أمّا رانيا، فقد سَكَتَتْ، رانيا مَحسوبة على البعث، لم نكن نتحدّث إلا عن الأمور العامّة المحيطة بنا، ولم نكن نتحدّث عن تفاصيل الثورة، كانت رانيا خائفة من كلّ شيء.

كما تتحدّثين عن رجال الثلج النبلاء، هكذا كنتُ أرى أبناء إخوتي. يركضون للتظاهر في بستان القصر، ويرفعون شعارات الحُرّيّة والكرامة، وفجأةً، هطل ثلج أسود، ثلج كثيف، غطّى المشهد، وملأ الساحات بالدم، وبأعلام سوداء.

أرجوكِ أنْ تكتبي هذا الكلام، لا تقولي: إنّك تكتبين رواية، وتحاذرين الكلام المباشر، هذه أمانة، يا مها، قد أموتُ في أيّة لحظة، وليس لديّ أحدٌ أطلبُ منه أنْ يُوصِلَ شهادتي هذه سواكِ، أنتِ الوحيدةُ التي تابعتْ خيارَنا الثوريّ، أنت كَتَبْتِ وصرتِ كاتبة معروفة للكثيرين منّا، بينما راحتْ رانيا صوبَ خيار العائلة. أنجبت الأولاد، وصار لديها أحفاد، وغرقتْ في الحياة التقليديّة التي كنّا نذمُّها، ونثور عليها، وأنا تَبَهْدَلْتُ، أنا لم أتزوّج، لكنّني بقيتُ وحدي، ماتت أمّي، وكان أبي ميتاً منذ سنوات طويلة. تذكرين، منذ صداقتنا آنذاك لم يكنْ لديّ أب.

هَطَلَ الثلج الأسود، وملأت الأعلام السوداء التظاهرات، ثمّ احتلّ هؤلاء

السود الحارة. طُرِدْتُ من بيتي، واحتلَّت جماعة النصرة بيتي، وحوّلَتْهُ إلى مقرّ عسكريّ ..

هؤلاء أصدقاء النظام، لا أراهم سوى هكذا، يمضغون لفظة الثورة في أفواههم، لِلَّعب على مشاعر البسطاء، ولكنّهم يخدمون النظام ..

الذين نقلوا الثورة من حراكها المَدَنيّ إلى المُسلّح، ثمّ حوَّلوها إلى كفاح مُسلّح، تماهى على الفور، في ذاكرتنا جميعاً، مع حراك الإخوان المسلمين، قضوا على الثورة المَدَنيّة التي تمثِّل أحلام الجميع: مُسلمين ومُلحدين ولا أدريين وعلمانيين ..

كانت ثورة اجتماعيّة بكل ما تحمله الكلمة من دلالات، خروج البنات مع الشباب في الحارات القديمة المحافظة، كتظاهرات بستان القصر، وعمل الصبايا في الإغاثة والتنسيقيّات، بصحبة الرجال، كان أيضاً ثورة اجتماعيّة وانقلاباً على المفاهيم القديمة حول الفصل بين النساء والرجال ..

بنات إخوتي وأخواتي عشنَ تجارب جريئة في العمل السّرّيّ، والخروج في الليل، يجب أنْ تلتقي بإحداهنّ ذات يوم، لتحكي لكِ بنفسها، كيف انقلبتْ حياتها، كيف سَقَطَتْ هذه الستائر التي كنّا ننشرُها أمام الباب من الداخل، لحَجْب رؤية المارّين لنسائنا، وكيف صارتْ النساء يخرجنَ دون خوف ..

لكنّ هذا سرعان ما سَقَطَ، هذا الحلمُ الورديّ تحوّل إلى برك من الدم، تنتصب فوقها الرايات السوداء للقاعدة والنصرة، ولداعش لاحقاً.

النظام ذكيّ وخبيث، استطاع خَلْقَ هؤلاء الإرهابيين، هو الذي ربّاهم، واحتفظ بهم في السجون، لساعة الضرورة، ثمّ استعانَ بهم. ربّما أغلبُهم لا يعرفون هذه اللعبة، انخرطوا بها كنوع من الثأر لأحداث الثمانينيّات،

حيث فَقَدَ الكثير منهم أهلهم، سواء الذين ماتوا في السجون، أو المَخفيّون والمُغيَّبون، والذين هم بحُكم الموتى، لا يعرف أحدٌ عنهم شيئاً، نعم، هناك فريقٌ بريء، حرَّكَهُ الدِّينُ الإسلامي، اشتغل عليه الكبار، ليجعلوا منه قنابلَ ضدّ الثورة، هل يُصدِّقُ أحدٌ مثلاً أنّ همام حوت الذي كان يُقدِّم المسرحيّات دَعْماً للنظام، بينما كنّا نعدّه تافهاً وتقليديّاً، يتحوّل إلى معارض، ويُشكِّلُ كتيبةً، فيقصف بيتَ أمِّكِ الوحيدة، حيث لا يوجد أيّة نقطة عسكريّة حولها!

هذا ما حَصَلَ، الظّلم الذي ثارَ عليه الناس، توالد إلى ظُلم أكبر ..

ظُلم النظام اخترع ظُلم الكتائب الإسلاميّة، وهذان راحا يقتلاننا ..

طُرِدتُ من بيتي، وتشرّدتُ عند أقاربي، أنامُ في مكاتب أبناء أخوتي، وفي العيادات، على أريكة، ليست للنوم، أو أمدّ فرشة على الأرض، بعد انتهاء دوام المكتب، لأنامَ وحيدةً وخائفةً ومقهورةً على بيتي وسريري وأغراضي وحمّامي ومرحاضي ..

خَذَلَنَا العالمُ، يا مها! العالمُ شريكُ النظام في قَتْلِنا، كَثُرَ ذَبَّاحُونا، لو أنّ العالم وَقَفَ معنا منذ الشهور الأولى، وحَمَانَا من النظام، لما ظَهَرَتْ الرايات السود، هذه الرايات خَلَقَهَا النظام الخبيرُ بأجهزته الأمنيّة الأخطبوطيّة والمتجذّرة بين الناس، إلا أنّنا لا نعرف مَنْ منّا من المخابرات ومَنْ منّا مستقلّ تماماً عنهم. الحاضنة التي يتحدَّث عنها النظام هي النظام ذاته، هو الذي خَلَقَ لسنوات طويلة، قبل أنْ نُولَد، أو بعد ولادتنا بسنوات قليلة، منذ الأسد الأب، صانع الحركة التصحيحيّة، اشتغل على خَلْق حاضنة، يملكُ تفاصيلَهَا، ويُحرّكها حين يريد، الحاضنة المخابراتيّة هي التي أخرجت الإرهاب، بِلَعِبٍ ذكيّ وماهر، أغلب هذه الفصائل ريبية

النظام، وكلّها تشتغل لخدمته، وإن كان الكثيرون لا يعرفون أنّهم يخدمون النظام بشكل مباشر، هؤلاء الجنود الأغبياء للنظام الذين يريدون إقامة شرع الله على الأرض، رَكَلُوا الثورةَ، والثوّار ..

نعم، هي ثورة اجتماعيّة، تلقائيّة، عفويّة، أجْهَضَهَا السياسيون، أجْهَضَتْها المعارضة الفاسدة التي وَضَعَتْ مصالحَهَا فوقَ مصلحة الشعب، وضَحَّتْ بدمائنا نحن الأبرياء، لتصعدَ على جثثنا، وتُحقِّق أحلامَها في السلطة والمال ..

إنّها ثورة اجتماعيّة نبيلة، ضدّ الظّلم والفساد والقمْع، حَوَّلها النظامُ وأعوانه (من المعارضة والفصائل العسكريّة والنُّخب الانتهازيّة التي تخلّتْ عن خطابها الأخلاقيّ، وصفَّقَتْ للسّلاح الدِّيني)، لتتحوّل إلى كارثةٍ إنسانيّة، وحربٍ تطهيريّة، تقتل نصفَ الشعب السوريّ، وتُهجِّره، وسيدفعُ العالم بأكمله، يا مها، فاتورةَ إجهاضِ ثورتِنا، هؤلاء الذين تخلّوا عن السوريين، وتركُوا النظام يهرُسُهم تحت الدبّابات والصواريخ والقذائف، وتنهار عليهم البيوت، فيموتون تحت أنقاضها، أو يهربون، فيموتون في البحار، أو من القَهْر في المغتربات، هؤلاء الذين تركُونا لهذا المصير الدمويّ، أبناء الجماعات الأمميّة التي ظهرت بعد الحرب لحماية المَدَنيين من الحروب، الأمم المتّحدة وغيرها، سيدفعون الفاتورة، وأنا لا أقولها شماتة، ولا كراهية، بل قَهْراً وتبصُّراً، سوف يكبرُ الحقد، وسوف يأكلُ الأيّامَ والسنواتِ القادمةَ ..

لم يكن الربيعُ العربيّ جريمةَ الشعوب التي انتفضتْ من أجل الحُرّيّة، في اليمن وليبيا ومصر، وعندنا في سورية، الجريمةُ مارستْها الأمم العظمى والكبرى، حيث كَشَفَ الربيعُ العربيّ وشعوبُنا فسادَ هذه الأمم وبيروقراطيّتَها، ولا معناها، وهي تمارس المشاعرَ صوبَنا، وتكتفي بالتنديد والقَلَق والحُزن، كعجوز ضعيفة، لا تملك سوى الدعاء للسماء. هذه

المنظّمات العظمى، الأمم المتّحدة والدول العظمى هي التي ارتكبتْ ما نُسمّيه قانونيّاً بالجريمة السلبيّة، حيث تركت الأنظمةَ تعاقبُ شعوبَها، وتذبحها كالنِّعاج، لتربّيها لأجيال قادمة، على الخضوع واليأس، ولكنّ هذا لن يحصل، يا مها، لو تأتين إلى هنا ليوم واحد، وترين البريق في عيون الشباب والصبايا الذين عرفوا معنى الثورة، وتذوّقوا حلاوة الانتفاضة والحُرّيّة، لَصَدَّقْتِني، شعلةُ الثورة مستمرّة، لن تقتلَها الدبّابات والطيران والميليشيات والرايات السوداء والصفراء ..

حسناً، لقد عدتُ إلى البيت، أخرجَ النظامُ أهلَ المدينة، تشرّدَ الأبرياءُ منهم، ودفعوا فاتورة الإرهابيين، إرهابيّي النظام الذين صَنَعَهُم، وقدَّمهم كإرهابيّي الثورة.

عدتُ إلى البيت، لأجدَهُ فارغاً، عليّ أنْ أنام هنا، لم أعدْ متشرّدة، ولكنّ هذا البيتَ، أيضاً، لم يعدْ يشبهُ بيتي. كيف أمحو من رأسي صور العَسْكَر هنا؟ من هنا، كانوا يُخطّطون لقَتْل الأهالي في الطرف الآخر من المدينة، في القسم الشرقي، عند أمِّكِ وغيرها، بحجّة قَتْل عَسْكَر النظام، هنا سأنام خائفة ومقهورة، وحزينة ومُحبَطَة، لأنّني، رغم كلّ شيء، ورغم الثورة التي تشبّثتُ بها، لتُغيِّر حياة الجيل الجديد، أطلبُ منكِ عدم الكَشْفِ عن اسمي، سَمِّني ما شئتِ، ادعِني مثلاً: رباح - ريم - رباب - ربيعة، فقط اتركي لي حرف الراء، من أجل كرامة شلّة الصمود والتّصدّي، وراء راء ميم، بحبّكْ مها. هذا غريب، فأنا لم أعبِّر يوماً عن مشاعري، وكنتُ القاسية بينكما، رانيا وأنت العاطفيّتان، وأنا الشرّيرة القصيرة، حاضنة الإرهاب، إذنْ، منذ تلك الأيّام، حيث أنا العضوُ اللئيمُ في شلّة الصمود والتّصدّي التي أعدُّ كتاباتها على الجدران وتمرّدها على العالم محاولةً بريئةً وطفوليّةً منذ ذلك الوقت لإسقاط النظام.

سبعةُ بيوتٍ في سبعةِ أيّامٍ لسبعةِ أولادٍ(*)

*) المقاطع الواردة في هذا الفصل من كتابتي وتأليفي، وفق خبراتي الشخصيّة مع شخوص الفصول، دون علْمهم بمحتوى هذا الكتاب

اللا بيتُ

استلمتُ اليومَ قرارَ رَفْض إقامتي ..

بعد عام وعشرة أيّام من موت أمّي، أموتُ في كلّ لحظة، متمسّكاً بأمل العثور على بيت في السويد، لكنّ السويد ترفضُني.

نتمسّكُ بأمل صغير، وأنتِ تكتبينَ لي طَلَبَ استئناف القرار، ويرفضُونني من جديد، مع صيغةِ تهديدٍ حادّة، كموجة الصقيع هنا.

وَقَعْتِ اليومَ على ظهرِكِ، وأنتِ تخرجين من البيت، لتتزحلقي على الجليد، ليستْ لديكِ خبرة في قسوة الجليد، أنا اعتدتُ صرامة ثلج السويد، وأعرفُ أنّ حكاية الثلج هنا كاذبة، وأنّ كلّ الأحاديث والقصص عن أمان السويد، وعدالة السويد، هي أكذوبة كبيرة، دَفَعْتُ ثمنها أكثر من سَنَتَيْن من الانتظار والعزلة والقلق والخوف ..

أنا غاضبٌ، يا مها، لو كنتِ هنا معي، ترين ما أراه، لملأتِ الصُّحُفَ بالمقالاتِ الغاضبة. أقسمُ لكِ أنّني قابلتُ أشخاصاً قَتَلُوا سوريين هناك، مُتطرّفون تلوّثتْ أياديهم بدمائنا، وقَطَعُوا رؤوساً هناك، ثمّ حَصَلُوا على الإقامات، لأنّ قوانين السويد لا تقبلُ بوثائق غير رَسْميّة، لا بالشهادات الشفويّة، ولا صفحات الفيسبوك المليئة بالعنف والكراهية ضدّ الغرب، وضدّ السويد، ولا بصور المسلّحين ضاحكين قرب الجثث هناك، هؤلاء حصلوا على الإقامة، ولأنّني أحمق صادق، دونكيشوتي كما تصفينني، لم

أكذبْ، ولم أدخل السويد بوثائق مزوّرة، رَفَضُوني، وهدّدوني، وكأنّني لصّ أو مجرم، بتتبّع إجراءات طَرْدي، في حال رفضتُ الرحيل سِلْميّاً.

يريدون لاجئين مزيّفين كاذبين، لأنّ قوانينهم تأخذ الشكْليّات، ولا تهتمّ بالنّيّات والحقائق الداخليّة.

إنّ حكاياتِ العدالة والحقوق كاذبةٌ، كثلج لا معنى له، لا لون، بل كثلج أسود، مثل رايات المتطرّفين ..

انتظري سنواتٍ أخرى، وتوقّعي ماذا سيفعلُ هؤلاء في السويد، انتظري!

أمّا عنّي، فإنّني سأرحل ،أنا راحل عن هذه البلاد، راحلٌ بغصّة مُوجِعَة، غصّة الظّلم.

أسير على الثلج الأخير، تغوص قَدَمَاي في الثلج، ثلجٌ عميقٌ يغطّي ساقيّ، أتخيّل أنّ ساقيّ تحوّلتا إلى عمودَيْن من الخشب أو الحديد، ترتطمان بشيءٍ ما تحت الثلج، شيءٍ لا أراه، أسمعُ صوتَ ارتطام قَدَمي بما تحت الثلج. أُغمضُ عينَيّ، فأتخيّل أنْ تُشرقَ شمسٌ قويّة بغتة، لتُذيب الثلج، وأرى بماذا ترتطم قَدَمي، وعلى ماذا أسير؟

أتخيّل أنّني أسير فوق سطح البيت، بيتنا الذي صار هناك تحت الأنقاض، غَمَرَهُ الثلج، إنّه هنا، يلحق بي كلعنةٍ، لعنةِ البيتِ السوريّ، لعنةِ أنْ تكون سوريّاً اليوم.

أتخيّل أنّني أحفر الثلج كَكَلبٍ يبحثُ عن شيءٍ يشدّه إلى الحياة، فأعثر على أغراض البيت: ماكينة الخياطة التي كان أبي يركنُها لأكثر من أربعين عاماً في زاوية غرفة المعيشة، ماكينة الكبّة التي أحضرَها عامر من بيروت، التلفزيون الذي خفّف آلام الخوف في أثناء الحرب، ملابسي التي تركتُها

هناك، الأريكة التي طالما تمدّد عليها أبي في قيلولة صغيرة بين فترتيَ عمله في الصباح والمساء، المدفأة التي كانت جدّتي تطردنا من الجلوس قُربها، لتحتلّ تلك الزاوية، قبّعة عمّ أبي وأمّي الذي شارك في الحرب مع الفرنسيين، وترك قبّعته تذكاراً لنضاله كما يدعوه، القبّعة التي تتحدّثين عنها في كتابِك هذا، ظلّتْ معلّقة لسنوات على الحائط، بارودة الصيد أو التفنكة، كما كنّا نسمّيها، كاميرا أبي المُعطّلة التي صلّحناها، وضحكنا بفرح، ونحن نلتقط الصور، لكنّني أتوقّف عن تخيّلاتي الحمقاء، أعرف أنّه حين يذوبُ الثلج، لن أجدَ هذا كلّه، أعرف أنّه لا بلدَ تحت الثلج، لا وطنَ، لا بيتَ تحت الثلج، وأنّ الثلجَ هو كذبةٌ، أرفض وَصْفَهَا بالبيضاء، تُغطّي فساد العالم.

كنتُ أحبّ الثلج. الثلج هناك دافئٌ وحنونٌ، باعثٌ على المرح واللعب والعَبَث اللذيذ، ثلجٌ تخلطُهُ أمّي بالعصير، فيتلوّن، ونبتهج ونحن نأكله بدل الآيس كريم، أمّا هذا الثلج، ثلج السويد، فهو عازل، يُفرِّق بين الناس، يفصل بين الطبقات، يُوجِعُ، ينغرسُ البرد حتّى ما تحت العظام، ويسكنُ الروح.

عليّ العودة إلى اليونان، التّشرّد والفقر، وطلَب الطعام من الجمعيّات، والوقوف في طوابير الخبز، والنوم في الساحات، ومواجهة عنف المهرِّبين، هكذا تريد السويد.

لا أعرفُ أين أذهب، بيتي في حلب ضاعَ، ولم يعدْ أمامي مكانٌ أذهب إليه، أحمل حقيبتي وورقة الطَّرْد، وأفكّر في الأيّام السوداء القادمة، ليتني أموت، وأُدفَن هناك جوار أمّي، أسمع حكاياتِها، وأعيشُ في الموت.

هلعُ المخيّماتِ

هَطَلَ الثلج كثيراً اليوم في غازي عنتاب، خرجتُ مع أسمانور، لتلعبَ بالثلج، كباقي الأطفال، لكنّ الغصّة لم تفارقْ روحي، أطفال المخيّمات قريباً من الحدود، في كلّس، يأكلون الثلجَ، ويموتُون من البرد ..

أنا نائلة التي هَجَرتِها في قصّتِك هذه، حيثُ تعتقدين أنّ حكايتي ليست مهمّة الآن، أو أنّها أقلّ أهمّيّة من حكاية حسام. نعم، ربّما تشرَّد حسام في البلاد، وقضى أيّاماً وشهوراً في الانتظار، بينما حسمتُ أنا أمري منذ وصولي إلى تركيا، ولكنّ قصّتي ليست سهلة وبسيطة، لقد تزوّجتُ، لأنجو من رعب التّشرّد الذي عاشَهُ حسام، لستُ حاقدة عليكِ، كما تظنّين، نعم، خاصمتُكِ طويلاً، ورميتُ أسباب انكساري وإحباطي عليكِ، ليستْ هذه الحياة التي كنتُ أتمنّاها، تتذكّرين كيف كنتُ أسخرُ منكِ، وأعلِّمكِ الاعتناءَ ببشرتكِ! كنتُ أشتغل خبيرةَ تجميل، وكنتُ حين أخرجُ من البيت، يقفُ أهل الحارة للتّفرُّج على أناقتي. كنتُ خبيرةً بماركات التجميل والعطورات، والآن ترينني أرتدي الملابس كالقرويّات اللواتي لم يذهبنَ يوماً إلى المدينة، ولم يُجرِّبنَ الملابسَ الحديثة. إنّه زوجي، زوجي التركيّ الذي أنقذني من التّشرّد، تلومينني لأنّني رميتُ نفسي في النار، أو الزواج، ولكنْ، ماذا كنتُ سأفعل وحدي؟!

هربتُ من جحيم الحرب، وخَدَعَني الرجلُ الذي اصطحَبَني، قال لي: إنّه وَجَدَ عملاً في إستنبول لكلَيْنا، وأنّه سيُنقذني من الحرب.

كنتُ فاقدةً الأملَ، كنتُ خائفةً من القصف، كان الطيران يُحلّق فوق رؤوسنا، نجوتُ من الموت مرَّتَيْن، وعَدَدْتُ المرّة الثانية بمثابة إنذار ربّانيّ، لأهرب.

سَقَطَت الشظايا فوق سطح بيتِنا، بعد دقائق من نزولنا عن السطح، أنا وحسام. لو أنّنا تأخّرنا للحظات فقط، لكانت الشظايا قَطَعَتْ جَسَدَيْنَا، أمّا المرّة الثانية، فقد كنتُ ذاهبةً إلى المحلّ الذي أشتغلُ فيه، حين وَقَعَت الاشتباكاتُ فجأة، ورأيتُ الرصاص يمرُّ بين ساقَيّ، وأنا أرتجفُ من الرعب، ولا أعرف إنْ كنتُ سأنجو، لم أصدِّق أنّني نجوتُ، عدتُ إلى البيت، وقرّرتُ عدم الخروج أبداً، حتّى أموتَ داخل البيت، تحت القصف، أو تنتهي هذه الحرب.

نزحتُ مع أمّي عدّة مرّات، وتعرّضتُ للذّلّ في كلّ مرّة، في القرية، في لبنان لدى أخي عامر، في بيت أخي الكبير ماهر، حيث كانت حارته هادئة تلك الأيّام ..

أذَلّني الجميع، فأنا البنتُ العازبة، الصغيرة، الجميلة التي يستغلّها الجميع لتنظيف بيوتهم حين تنزح لديهم، أمّي وحدها وَقَفَتْ معي، لا أنسى مغامرتها، رغم خوفها، حين تشاجرتْ مع زوجة عامر، أماني التي كانت كالقطّة المقطوعة اللسان، لا تنبس أمامي بكلمة في بيت أهلي في حلب، راحتْ تتعامل معي كأنّني خادمتُها في بيروت، وكان أخي يقفُ معها، ويُوبِّخني، ويشتمُني ..

قرّرتُ العودةَ إلى البيت، رغم الحرب، ولحقتْ بي أمّي.

لستُ حاقدةً عليكِ، لكنّكِ كنتُ تستطيعينَ إنقاذي، أنتِ فرنسيّة، وتعرفين أشخاصاً نافذين في المعارضة، وصديقتُكِ عضوةٌ في الائتلاف،

وبهاتف واحد منكِ تستطيعين إيجاد عمل لي، أعيش منه بكرامتي في تركيا، أو تأتين لي بتأشيرة، لأذهب إلى فرنسا، لكنّكِ تخلّيتِ عنّي.

جئتِ إلى تركيا كسائحة، استأجرتِ البيتَ الجميل في غازي عنتاب، من أجل سُها وأولادِها، وحين لم تأتِ سُها، أعدتِ البيتَ لأصحابه، ولم تفكّري بتَرْكِهِ من أجلي، لو أنّكِ تابعتِ دَفْعَ الإيجار، لبقيتُ في البيت، وبحثتُ عن عمل، أعيش منه، لكنّكِ تَرَكْتِنِي أعودُ لزوجي التركيّ الذي لا يُشبهُني، ولا يشبهُ أحلامي. تقولين لي: انظري إلى البنات في سنّكِ! إنّهنّ في المخيّمات، أنتِ وزوجي تذلانني بهذه العبارة، وكأنّ زواجي هو نجاةٌ من مصير المخيّمات، وشائعات، أو ربّما حقيقة تعرّضهنّ للتّحرّش أو الاغتصاب..

أنا، أيضاً، تعرّضتُ للتّحرّش، حين تشاجرتُ مع أورهان، وطَرَدَني، لم يكنْ لديّ مأوى في تركيا، ذَهَبْتُ إلى الحديقة، واتّصلتُ بكِ في فرنسا، لحقَ بي شابّان، وحاولا التّحرّش بي، كنتُ خائفةً ومنكسرةً وضائعةً. أرسَلْتِنِي إلى بيتِ صديقِكِ محمّد الذي جاء مع زوجته سلطانة، وأخذاني إلى بيتهما ؟ غرفة واحدة فيها خمسة أولاد، كنتُ عبئاً عليهما، أنام وأخرج في الصباح، حتّى لا أُحرجهما بدعوتي على الطعام، وأنا أرى كيف يتقاسمون الفتات. وهكذا تزوّجتُ، وأنجبتُ، ولكنّ هذا لم يكن مشروعي أو حُلمي، كنتُ أتمنّى أنْ أذهب إلى أوربا. انظري إلى أماني! كانت تتلعثمُ بالكلام، ولم يكنْ لها أيّ حضور، تضعُ الحجابَ ،وتتدثّر بالأسود من رأسها حتّى قَدَمَيْها، بينما تُراقبني بغَيْرة، وأنا أرتدي الماركات كمانيكان، وأشتري لها أدواتِ التجميل، وأعلّمها أسماءَ الماركات التي لم تسمعْ بها في حياتها. انظري إليها الآن، وقَدِّري الظُّلمَ الذي وَقَعَ عليّ، أنا أضعُ الحجابَ بطريقة قديمة، كأنّني في قرية نائية، كما يرفض زوجي أنْ أستعملَ أدوات التجميل،

وكذلك يرفضُ أنْ أرتديَ البنطالَ أو الملابسَ الضّيّقة. أبدو كامرأة تركيّة قادمة من قرى أورفا البعيدة، ببشرة باهتة، ودون مال لتسريح شعري حتّى، أو شراء العطور. زوجي يعتقد أنّ دوره هو فقط جَلْب الطعام، أمّا الملابس والعطور وأدوات الزينة والإكسسوارات، فهي ترفٌ، لا تعرفه نساء عائلته، انظري الفرقَ بيني وبين أماني، ألم أكنْ أستحقّ حياة أفضل؟! لماذا لم تُخرجوني معكم إلى أوربا؟ ذَهَبْتُم جميعاً، وتَرَكْتُمُوني وحدي بين الأتراك. أنا شابّة وصغيرة، ولديّ أحلام، كنتُ أتمنّى أنْ أعمل في مهنتي كخبيرة تجميل، وأعيش حُرّة. لستُ حُرّة الآن، ولم يعدْ لي عائلة أو أهل أو سند. ماتتْ أمّي هناك، وفَقَدْنَا بيتَنا، وتشرّد أخوتُنا في أوربا، لهذا أُغلِقُ فمي، وأصمتُ، وأعيشُ كأنّني مُنوَّمة أو مُخدَّرة، إلى أنْ تنتهي هذه الحرب ..

لو أنّني وُلِدتُ هنا / بيتٌ في فنلندا

تقول أماني زوجة عامر كأنّني وُلِدْتُ للتّوّ، إنّها حياةٌ جديدةٌ وعظيمةٌ.

عشتُ في حلب سنوات طويلة، كرهتُ فيها الحياة، إلى أنْ تزوَّجتُ، وخرجتُ من قفص أبي الظالم.

انتقلتُ للعيش مع عامر في بيروت، حيث كان يعمل، ورأيتُ وجهاً آخر للحياة.

إلى أنْ قامت الحرب، وبدأنا نتعرَّض للضغوطات كسوريين في لبنان. تقدّم أخوكِ عامر بطلَب لجوءٍ عبر الأمم المتّحدة، وجاءنا الرّدّ الساحر، لتنقلبَ حياتي تماماً.

لم تكنْ لدينا وثائقُ سَفَر، لكنّ الأمم المتحدة زوّدتْنا بوثائق سَفَر لمرّة واحدة، وتمّ إرسالنا إلى فنلندة.

منذ عام ونحنُ هنا، أنظرُ إلى وجهي في المرآة، ولا أعرفني، لقد قَتَلْتُ تلك الفتاة المقهورة المضطهدة الخانعة الخائفة، كنتُ أختفي تحت ملاءةٍ سوداءَ، وحجابٍ يغطّي شعري ووجهي، كأنّني أنتقمُ اليوم من سنواتِ حَجْبي عن العالم، أو حَجْب العالم عنّي.

في كلِّ فترة، أغيّر تسريحةَ شعري، أُلوِّنُه بلون جديد، أستعملُ العدسات اللاصقة لتبديل لون عينَيّ من وقت لآخر: أخضر - أزرق - بنّيّ، أُخرِج من

نفسي، في كلّ مرّة، امرأةً جديدةً، أريد أنْ أعيشَ مليون حياة هنا، في فنلندا التي مَنَحَتْني نفسي، ومَنَحَتْني الحياةَ.

بيتُنا صغيرٌ وجميلٌ، ستأتين لزيارتنا عن قريب، وتعرفين معنى البيت. أنا لا أقرأ، أجل، أنا شبه أمّيّة، لم أذهبْ إلى المدرسة، لكنّني تعلّمتُ هنا، أكتبُ الآن بالفنلنديّة، والله، أقسمُ لكِ، أنا كائنٌ جديدٌ، أتحسّرُ على الزمن الذي عشتُهُ هناك، ليتَني وُلِدْتُ هنا، بل إنّني الآن في كلّ يوم أُولَدُ من جديد هنا.

غرفةٌ في سَكَنٍ جامعيٍّ

نطبخُ هنا، ننامُ هنا، نتشاجرُ هنا، في هذه الغرفة الصغيرة، خمسةُ أولاد وأخوك وأنا، هذه هي حياتُنا اليوميّة، منذ فَقَدْنَا بيتَنا تحت القصف في بني زيد، ثمّ طَرَدَتْنا أمُّكِ من بيتها الكبير، أين أذهبُ بأولادي الخمسة؟ أخوكِ يدخّن كثيراً، وبصعوبة يعمل في أعمال يوميّة مؤقّتة، حمّال، سائق، أيّ شيء، ليأتي بقوت اليوم، نحصل على لقمتِنا يوماً بيوم، وما يأتي به أخوكِ يذهبُ نصفُه لسجائره، ولأسعار المكالمات الهاتفيّة.

هل تعتقدين أنّ استعمال الهاتف النقّال (الموبايل) هو تَرَفٌ في أثناء الحرب؟ أبداً، هي ضرورةٌ، لأنّنا نُضيِّع بعضنا، فَقَدْتُ أخبارَ أهلي عدّة مرّات، الهاتفُ فقط لنتأكّد، بعد كلّ قصف، من حياة أهلنا، ولنتفقّد الأحياء من الأموات ..

ثمّ لا توجدُ كهرباء غالباً، ولا يوجد جهازُ تلفزيون، كيف نتابعُ ما يحدث؟ الهاتف فقط للتواصل بين الأهل ومعرفة خارطة القصف والاشتباكات، نتّصل، نطمئنّ، ثمّ نُحدّد حَرَكَتَنَا، هل نغادرُ؟ أم نبقى؟

جاءتْ أختُكِ سُها ذات يومٍ لزيارتنا هنا، حدَّثَتْكِ، أليس كذلك؟ راحتْ تبكي حين رأتْ أحوالَ أولاد أخيها. وأمُّكِ جاءتْ مرّة واحدة، ثمّ صارتْ ترفض أنْ تأتي، تقول: إنّها لا تحتمل رؤية هذا البؤس. اقترحتْ على البنتَيْن الكبيرتَيْن، فَرَح ومَرَح أنْ تُقيما عندها، لكنّ بناتي لا يفترقنَ

عنّي. قلتُ لأمّكِ: إمّا أنْ نأتي جميعاً أو لا. قالتْ: إنّ الصغار يبولون، وهي تصلّي، وترفض النجاسة. نعم، أولادي يبولون، حتّى سنّ الثانية عشرة وأكثر، يبولون. إنّها الحربُ، كيف تتوقّعين أنْ يعيشَ أطفالُ هذه الحرب: أصواتُ انفجارات، إطلاقُ نار لا يتوقّف، تحليقُ طيران، جثث وأشلاء يرونها كأنّها أمرٌ عاديّ. إنّهم يخافون، والتّبوّل الليلي هو ردٌّ على الخوف، وأنا مَلَلْتُ. كيف أغسلُ الفرشة؟ لا ماء، ولا شمس في الشتاء لتنشيف الفراش، ولا تدفئة، كيف أغسلُ الفراش في الشتاء؟.

تقرف أمّكِ من أولادي، وتقول: إنّ رائحة البول عالقةٌ بهم. ماذا أفعل؟ أذبحُ أولادي، لأنّهم يبولون في ملابسهم؟ إنّها الحرب، أخذتْ بيتَنا وأغراضَنا، فَهَرَبْنا دون ملابس حتّى، هنا نعيشُ على عمل أخيكِ المؤقّت والطارئ، يعمل يوماً، ويتوقّف أسبوعاً. حين تشتدّ المعارك، لا يستطيع الخروج، يجلس معنا، ونتشاجرُ، فيضربُ الأولادَ، أجل، يضربهم، وأدعو عليه، ألعنُهُ بصوتٍ عالٍ بأنْ تُكسَر يَدُهُ، أو يموتَ برصاصة في رأسه، ثمّ أندم، وأعتذر، ويندم هو أيضاً، لكنّه لا يعتذر.

أنتِ لا تعرفين عن أخيكِ أيّ شيء، لا تتحدّثين معه، ربّما يكون هو السبب، لأنّه يرفض الرّدّ على اتّصالاتكِ، ولكنْ، قولي لي: متى بدأتِ تفكّرين بالاتّصال بنا؟ لم يخطرْ في بالكِ هذا حين نَزَحْنا وتَشَرّدْنا، خَطَرْنا في بالكِ، حين اشتدّ القصف على مناطقنا التي تسمّونها مناطق النظام، بعد أكثر من سَنَتَيْن على تشرّدنا. أين كنتِ قبل هذا؟! كنتِ مهتمّة بسَفراتكِ، بأختكِ وأولادِها، تعدّين أولاد أختكِ كأولادكِ، وتهتمّين بهم، ترسلين لهم المساعدات، بينما تعاملين أولاد أخيكِ كالغرباء، لأنّهم أولادي أنا؟ أنا التي تتعاركين معها، وتعدّين أنّ لساني طويل، أجل، أنا طويلةُ اللسان، وفاجرةٌ كما تقول أمّكِ. أنا لم أذهبْ إلى المدرسة مثلكنّ، ولا أعرف الأتيكيت،

وعصبيّة، وأشتم على الطّالعة والنّازلة، لكنّني زوجةُ أخيكم، وأمّ أولاده، لو أنّكِ ترسلين لنا مئة يورو فقط شهريّاً، لكان وَضْعُنا أفضلَ بكثير. كيف تقولين: إنّكِ لا تملكين المالَ، ولا تعملين؟ لماذا تُرسلين اليوروهات لأمّكِ وأختكِ؟! هل تعتقدين أنّني لا أعرف؟. أنتم ترقدون على أطنانٍ من الدولارات واليوروهات، وأنا لن أسامحَكُم على لامبالاتِكُم بي وبأولادي، نعيشُ هنا، في هذه الغرفة المُهيّأة لسَكَن طالبة أو اثنَتَيْن على الأكثر، نعيش هنا سبعة أشخاص، نُوقدُ النارَ في الممرّ، حيث نضعُ الموقدَ والطناجرَ، لا مكانَ في الغرفة حتّى لموقد الغاز. نعم، لستُ وحدي، كلّ النازحين هنا، يعملون هكذا. تحوّل الممرّ إلى معرض للطناجر ودلاء الماء والزجاجات التي نملؤها أيضاً بالماء، نستعملُها للشرب والطهي، حين ينقطع الماء.

ألستِ كاتبة؟ تعالي، تفرّجي على غرف السَّكَن الجامعيّ، كيف تعجّ بالسّكّان، كأنّنا في سجون عائليّة، صراخ أولاد، بكاء، تبوّل، صراخ أمّهات، آباءٌ يضربون الأولاد، رجالٌ يضربون الزوجات، زوجاتٌ يفكّرن بالحَرَد، ثمّ يعدنَ قبل الوصول إلى آخر الممرّ، يتذكّرنَ الحواجز العسكريّة في الخارج، الاشتباكات التي تقع في كلّ لحظة، ويذهب ضحيّتها المارّون، أو تتلقّى هذه الزوجات الغاضبات رسائلَ عن اشتباكات في أحياء الأهل، أو خبر سقوط قذيفة على أحد أفراد العائلة، نتراجعُ صوبَ غرفنا، ملاذنا الصغير، نتكوّم على أنفسنا، ونبكي ..

هنا، في هذه الممرّات، تمتلئ الحكايات، تعالي، لتكتبي هذا الجنونَ، رجالٌ يضاجعون زوجاتِهم في آخر الليل، ويسمعُ الأولاد أنين الأمّهات، ويسمع سكّان الغرف المجاورة أنينَ الجارات ..

لديّ الكثيرُ لأرويهِ لكِ، لكنّني لن أفعلَ، إنْ رأيتُكِ ذات يوم، فلن أسلِّمَ عليكِ حتّى، أنتم باعةُ الوطن، الخَوَنَة ..

بل قد أبصقُ في وجهكِ، ها، نعم؟ أجل، تقولين: إنّك لهذا لا تتّصلين بي، إنّ أخاكِ لا يردّ على هواتفكِ، وإنّني قليلةُ أدب، أنا قليلةُ أدب، وأنتم قليلو شَرَف، بعتُم الوطن للأجانب، وزرعتُم الإرهابَ بيننا، أنتِ، وأمثالُكِ من المعارضين، سببُ بلائنا، وسببُ عيشنا في هذه الغرفة. كأنّنا محكومون بسجن أبديّ، أحلم فقط بغرفة، لها بابٌ، لا يطلّ على ممرّ مليء بأبواب تنفتح على غرف الآخرين، أحلم ببيت لي وحدي، مع أولادي الخمسة، أحلم بخزانة ثياب، وبثلاجة وموقد غاز بثلاث عيون، وغسّالة، أحلم بغسّالة، وأشعرُ بالبهجة، حين أذكر أنّ كلّ أغراض أمّكِ صارتْ تحت الحجارة. نعم، أنا شمتانة، لقد قصفت المعارضة بيتكم، يا فهيمة! سوَّتْهُ بالأرض، طَمَرَت الغسّالة والثلاجةَ وأريكةَ الصالون وغرفةَ النوم في الطابق الفوقاني وماكينةَ الخياطة، طَمَرَت المعارضةُ بيتَكُم كلَّه تحت الأرض، وأنا سعيدةٌ، سأذهب ذات يوم، حين تتوقّف الاشتباكات، ويقضي الرئيس على الإرهابيين، لأمتلكَ تلك الأرض، أرضِ بيتكُم، ستُعوِّضني الحكومةُ، سآخذُ التعويضات، وأُعيدُ بناءَ البيت، وحدي أنا وأخوكِ لنا الحقّ بهذا، نحن الشرفاء الذين بقينا، أنتُم الخَوَنَة لن تروا هذه الأرض يوماً، ولن تري حتّى مكانَ بيت أهلِكِ، أو ما كان ذات يوم بيتاً.

بيتٌ صغيرٌ في باجالا(*)

هَطَلَ الثلجُ كالعادة، كما يهطل دائماً هنا، لعبنا كثيراً مع الأولاد، وتزحلقتْ راما، وانقلبتْ على ظهرها، وضحكْنا أكثر ..

أنا أحبّ السويد، ولا أتّفق مع كتابكِ هذا، لكنّني، أيضاً، أتعاطف مع حكاية حسام، وأزعل على أمّي، هل تعرفين أنّ وَلَدَيّ يقولان: إنّ أجملَ بيت في ذاكرتهما هو بيتُ جدّهما، حيث اللعب والمرح، حين كان أبي يقلبُ أرض الدار إلى مسبح، ويفتح خرطوم الماء، فيُغرِق الساحةَ، ليتزحلقَ أحمد وراما على البلاط الغارق بالماء.

يبدو أنّ الحياة قصيرةٌ، وتنبترُ فجأة. كنتُ أتمنّى لو أنّ أمّي عاشتْ أكثر بقليل، وأنّها رأتْ بيتي هنا في السويد، المسكينة ماتتْ وهي تحتفظ بحرقة قلبها على بيتي. كانت تُوبّخني: ستتركين هذه الأغراض كلّها، شقاءَ السنوات، وتعبَ الأيّام، وتغادرين؟ تذكرين، كيف أنّها، كلّما اتّصلتِ بها شَكَتْ قَهْرَهَا على أغراض بيتي: غسّالة الكهرباء التي تركتُها خلفي - الملابس الهائلة - فناجين القهوة ذات الماركات الثمينة، حتّى صُورنا العائليّة تركناها.

فَرَرْنَا من حلب، نحملُ بعض الملابس الضروريّة، وبدأنا من الصفر في تركيا، حيث نَزَحْنَا، وبعد أنْ تنقّلتُ في عدّة مُدُن، من أنطاكية إلى غازي

---

*) Pajala

عنتاب إلى أورفه، استقررتُ في مرسين، وبعد أنْ أسّستُ بيتي الجديد في مرسين، وأتيتُ بمروحة كهربائيّة، وعدّة مطبخ، وثلاجة، بل وغسّالة أتوماتيك، وجلستُ قرابة العامَيْن، حتّى إنّني تعلّمتُ اللغة التركيّة، تركتُ كلّ شيء مجدّداً، كما فعلتُ مع بيت حلب، أخذتُ بعض الملابس، وجئْنا إلى السويد.

لستُ نادمةً، ستأتين لزيارتي قريباً، وسترين بيتي، لقد أسّستُ البيت هنا من جديد، لا ينقصُني شيء: ميكروييف - ثلاجة - غسّالة. كلّ شيء، كلّ شيء، حتّى (شوبك) العجين لصُنع الفطائر، إنّ مَنْ يرى بيتي هنا الذي لم يمضِ على وجودي فيه أكثر من سنة، يظنّ أنّني أعيش فيه منذ عشرين سنة، إنّه كامل تماماً.

لستُ نادمة على تَرْكِ أغراضي في حلب، ولا على تَرْكِ كلّ ما اقتنيتُه من جديد في مرسين، الحياةُ هنا عظيمةٌ. تُتاحُ لنا الفرصُ دائماً، لقد تعلّمتُ اللغة السويديّة في زمن قياسيّ، وتفوّقتُ بها، تعرفين هَوَسي باللغات، والآن سأُعلِّم اللغةَ العربيّة للسويديين، هذا رائعٌ، أليس كذلك؟

أشعر أنّني إنسانٌ محترمٌ هنا، أمتلئ بالطاقة، والمهمّ أنّني مطمئنّة على وَلَدَيّ، وأراهما يمتلئان بالأمان، والمستقبل أمامهما منير ومشرق.

نعم، أضعتُ الكثير من البيوت في حلب، وخسرتُ الكثير، ولكنّ هذا البيت في السويد، عوَّضني تلك البيوت كلّها. كنتُ أخاف من تَرْك بيتي في حلب، لكنْ، دائماً هناك بدائل للبيوت. هذا البيت البديل في السويد هو أهمّ من البيوت كلّها التي تركتُها، كأنّني كنتُ أؤسّسها، لأحضرَ ذات يوم إلى هذا المكان الأخير، البيت الأجمل من البيوت كلّها.

أنا البيتوتيّة

انفجرْنا بالضحك، أنا ونورا، أستاذة الأدب الفرنسيّ في جامعة ليون، حين التقيْنا في مؤتمر في جامعة ستراسبورغ، دُعيتُ إليه ككَاتبة تعيش في المَنفى، لأتحدَّثَ عن الكتابة خارج الوطن.

قدَّمتُ شهادتي باللّغة الفرنسيّة، ثمّ قطعتُ قراءتي، لأتحدَّثَ إلى الجمهور الذي كان أغلبُهُ من الطلاب والأساتذة في قسم اللّغة العربيّة، لأشرحَ لهم تكويني النَّفْسيّ: أنا بيتوتيّة. أحبّ البيت، وأكتبُ من داخل البيت، على عكس الكتّاب المغامرين الذين يرفضون الاستقرار والجدران، يكتبون في الفنادق والمقاهي ووسائل المواصلات ..

على جان جينيه الذي كان يرفض شراء بيت، ويقيم في الفنادق، كنتُ أخاف من فكرة (اللا بيت). أعتقد أنّ البيت هو معادلٌ للوطن، انتماء إلى المكان.

حدَّثتُهم أنّني في هولندا، في البيت الذي استُقبلتُ فيه ككَاتبة مقيمة، كنتُ أتسوّق مرّة واحدة، ثمّ أجلس أسبوعاً كاملاً دون أنْ أغادرَ البيت، وأنّني إنْ لم أضطرّ لشراء الخبز أو أيّ مادّة تنقصني، أستطيع البقاءَ لأسابيع طويلة داخل البيت.

كان أصحابي في باريس يلومونني، كيف أعيش في أمستردام، ولا أخرج

للتّسكّع؟ وحين تعرّفتُ على الهولنديّة إيرين، دعتْني إلى بارٍ، يفتح بعد منتصف الليل، فاعتذرتُ قائلة: أنا أحبّ جوّ البيت.

هكذا هو البيتُ بالنسبة لي، وطنٌ دائمٌ للكتابة والتّخيّل واكتشاف الذات والعالم، وإيجاد الحلول لأزماتي الحياتيّة والكتابيّة.

أكتب كثيراً الكتابة عن البيوت، عن البيوت العديدة التي نمتُ فيها، وعن البيوت التي فَقَدْتُها، مطرودةً منها، محرومةً منها، كأنّني أعاني من عقدة بروست ذاته، وهو يُجبَر على مغادرة الزمن الجميل الذي صار بالنسبة إليه زمناً ضائعاً.

أبحث في زمني الضائع، في بيوتي التائهة.

أعتقد أنّني سأظلّ أكتب عن البيوت، حتّى أعودَ إلى حلب، وأرى أشباح بيتي الذي دمَّرتْهُ الحرب، أو بقايا البيت، أو حتّى صورة البيت الذي لم يعدْ موجوداً، بسبب الحرب.

مع أنّني من طرف آخر أعدُّ الكتابة بيتي/ وطني، وأحكي أنّني أسكنُ في رأسي، حيث هناك غرف: غرفة للكتابة - غرفة للمخيّلة. غرفة للاسترخاء والتّخلّص من الكوابيس - غرفة للتّأمّل - غرفة لترتيب حياتي، ثمّة غرف وممرّات وأرائك وشرفات، وكأنّني نفسي أصبح مكاناً، أو بيتاً لي.

البيتُ الأخيرُ: بستانُ الخرزِ

متُّ في اليوم السابع ..

أنهى اللهُ تأسيسَ الحياة في اليوم السابع، وأخذ روحي في اليوم السابع لسقوط البيت.

كأنّني كنتُ أعيش كلّ يوم من أجل أحدِكُم، أنتُم أبنائي السبعة، إلى أنْ حلَّت ساعة مغادرتي.

حَصَلَ ما كنتُ أخاف منه طيلة حياتي: أنْ أموتَ دون بيت.

البيتُ هو الكرامةُ، فقدانُ البيت ذُلٌّ، لا يمكن وَصْفُهُ. الموتُ أهونُ من التّشرّد لدى الآخرين، في بلادهم، أو في بيوتهم.

كان عليّ أنْ أموتَ حين سَقَطَ البيت، ولكنّكم أنتُم، أبنائي السبعة، أطَلْتُم عذابي. كأنّني كنتُ أعيش يوماً زائداً لكلّ منكم: يوماً من الأمل، الرجاء، احتمال النجاة.

لكنّني متُّ في اليوم السابع، في يومكِ أنتِ.

بدأتُ أعيش أيّامي بعد سقوط البيت، من أجلِكُم، بالتسلسل العكسيّ: من الأصغر، صوب الأكبر ..

في يومكِ أنتِ، اليومِ السابعِ، في الشهرِ الذي وَضَعْتُكِ فيه في الحياة، متُّ.

كنتُ أتمنّى أنْ نُنهيَ هذا الكتاب، باستقرار حسام، لأتمكّنَ من الرقاد بهناءَة، وأستسلمَ لموتي بعُمق. لكنّه القَدَرُ ربمّا، أو أكاذيب العالم الكبير، تدفعُ امرأةً عجوزاً مثلي لنصف موت. لأفيقَ وأموتَ، وأموتَ وأفيقَ، بين موجات القصف حولي، وقلقي على أولادي.

يتساقط الثلجُ بغزارة في حلب، الحديقةُ بيضاء، أقصد المقبرة. الحديقةُ التي احتلَّها الموتى، وحوّلوها إلى مقبرة.

أشعر بالبرد، ما تزال عظامي متماسكةً، وقد بدأ اللحم يتساقط حولها، مرّتْ سنة وبضعة أسابيع، وما يزال القَلَقُ يسكنني.

لماذا لا نعودُ إلى البيت جميعاً الآن؟ لأنّ البيتَ سَقَطَ؟ أمَا من أملٍ لإعماره من جديد؟ أمَا من أملٍ لعودتِكُم؟

عُودُوا، يا أولادي، عُودُوا ،وقفُوا قربي هنا، أشتمُّ روائحَكُم التي سَكَنَتْ ذاكرتي منذ اللحظات الأولى لخروجِكُم من رحمي، وانفصالكم عن جَسَدي، والتصاقي بكم في الحياة.

أريد أنْ أنامَ، لكنّه القصف الذي يُرعبني، ويوقظُني على هاجس تطاير أشلاء جثّتي في أنحاء الحديقة، أعني المقبرة، وقلقي على أوراق حسام.

أين سيذهبُ الولدُ بنفسه؟ لا بلادَ تقبلُ به، وتضيقُ به الأرض، كما يضيقُ بي هذا القبر.

الثلجُ يهطلُ بغزارة في حلب. أنجبتُكِ في مثل هذا الطقس، تحتَ الثلج، في شهر ديسمبر. أنتِ أوّلُ العنقود، الأملُ بالنجاة، بعد ولادة بكْري ميتة، نجوتِ أنتِ، وعَدَدْتُكِ بكري الحقيقي.

أمّا هو، آخر العنقود، فأراه يتجمّد في الثلج، هناك في السويد، وحيداً،

حزيناً، منكسراً، يا إلهي، ليتَهُ يعود إلى البيت، وليتَني أستطيعُ أنْ أضمَّه، وأُدفئَهُ، ولكنّ البيتَ راحَ، وأنا رحتُ لأرقدَ هنا، في حديقة الموتى، في بستان الجثث.

من نتائج إجهاض الثورة، وصول اليمين المتطرّف في الغرب، في أوربا وأمريكا. هذا العالمُ أحمق، بدلاً من مساعدة السوريين في خيارهم الديمقراطيّ، أفشلُوهم، وساعدوا على صعود التّطرّف الإسلامي الذي لا يهدّد سورية فقط، بل العالم بأسره، وبدلاً من حلّ المشكلة السوريّة في أرضها وبيتها، راحوا يسنّون القوانين، ويخترعون التشريعات، للوقوف ضدّ اللاجئين، وقد تغلغل الإرهابيون في بلادهم كالسوس في الخشب، هؤلاء يفكّرون بطريقة تُعقّد الأشياء، وأنا المرأة الجاهلة أفهم أكثر منهم. لو كنتُ رئيسةَ العالم، لطردتُ بشّار من الحُكم، وثبّتُّ شكلاً ديمقراطيّاً، أعرفُ لن يقوم بين يوم وآخر، لكنّني كنتُ سأساعد السوريين لتطبيق الديمقراطيّة في بلادهم، وهكذا يعود المهاجرون واللاجئون إلى بيوتهم، كلّنا نريد العودة إلى البيت، لكنّ العالم الأحمق، ذلك العالم الأشقر، سوف يخرب بيته وبيوتنا، لأنّه يطردُنا ويطاردُنا من مكان لمكان، ونحن فقط نبحثُ عن مكان آمن، ليس إلاّ ..

أنا أستلقي هنا في الحديقة، ولا يزال الخوف ينخرُ عظامي بعد الموت. الخوفُ بعد الموت ظُلم كبير، أشدّ من ظُلم الموت. الموتُ تحت الحرب ظُلم آخر. تذكرين حكاية الصبيّ الذي تركتْهُ أمّهُ في البستان، تحت فَيءِ شجرةٍ، وراحتْ تقطفُ حبّات الزيتون؟ نعم، تهزّين رأسَكِ لأنّك تعرفين الحكايةَ. كان ثمّة قطرميز زجاج مليء بالعسل بين أغراض الأمّ، المتروكة جوار الصغير، حين تسلّلتْ أفعى، فأمسكَ الطفلُ برأسِ الأفعى، وراحَ يُطعِمُهَا العسلَ، وهو يتحدَّث إليها بلُغته غير الواضحة. حين عادت الأمّ، وكادت

تموت من الخوف والدهشة: كانت الأفعى تأكلُ العسلَ من القطرميز الذي يمُسكُ به الصغير، وكأنّها قطّة أليفة، لا أفعى مُخيفة. هكذا هي الحرب، يا ابنتي. الأفعى المخيفة، لهذا رويتُ لكِ هذا الكتاب، ولا أزال أروي، طالما الحرب قائمة، أدلّلها، أُجلِسُها في حضني، حتّى إنّني أكاد أقول لها، مُتّقيةً شرَّها: "*بلغني، أيّتها الحرب السعيدة*" . لا، بل يفيق أغلبُنا، نحن المدفونون في هذه الحديقة، في كلّ صباح، على الخوف الأعظم بعد الموت، لنهمسَ لها مُتصنِّعين الفرحَ: صباح الخير، أيّتها الحربُ الحبيبة، آه، يا حبيبتي الحرب!

منزل الكاتبة في حلب



فهرس فصول الرواية



لا شيء يمكنه أن يعوض عن خسارات الحروب، ولا منديل، مهما كان أبيض ونظيفاً ومقدساً يمكنه أن يكفكف دمعنا على الذين قتلتهم الحرب. وأكثر ما سيؤلم في المستقبل حين نجلس ونستذكر سنوات الحرب، سيبدو أن كل شيء حدث بساعة واحدة من الزمن، على الأكثر، وانتهى. فقط الرواية ستنجو من هذه الممارسة اللا أخلاقية التي قد ترتكبها جميع الفنون الأخرى. لأنها الوحيدة القادرة على انتاج الشعور بزمن الحرب الطويل. الحرب بكل لحظاتها المظلمة، ورائحة جلدها الذي يتصبب رصاصاً وخوف. نعم الرواية فقط ستنجو وخاصة حين تأتينا من روائية متمرسة وصاحبة دربة طويلة.

في هذه الرواية تفعل مها حسن بالزمن الثابت والمتعارف عليه للحرب، ما فعله موديلياني بوجود ورقاب شخصيات لوحاته. حين جعلها تستطيل فاصبحت أكثر تحريضاً لنا على التأمل واستيلاد الأفكار. هذه الحرب التي بدأها قاتل واحد أصبحت حرب الجميع الآن، حرب من لا حرب له. الكلّ ضد الكلّ.

هنا ترجع مها من بيتها الفرنسي إلى بيتها الحلبي الذي دمرته الحرب. تدعو الحرب إليه وتُقعدها في حضنها، وتبدأ تروي لها حكايات، تماماً كما فعلت شهرزاد مع شهريار. تحدثها عن أمها وخالاتها وأخيها، عن حارتها وبيتها، عما حدث مع شعبها، كيف أصبح فتى الحي الوسيم الخلوق أمير حرب، وكيف أصبح الدم ماء.

الناشر

ISBN 978-88-99687-92-2
9 788899 687922

المتوسط